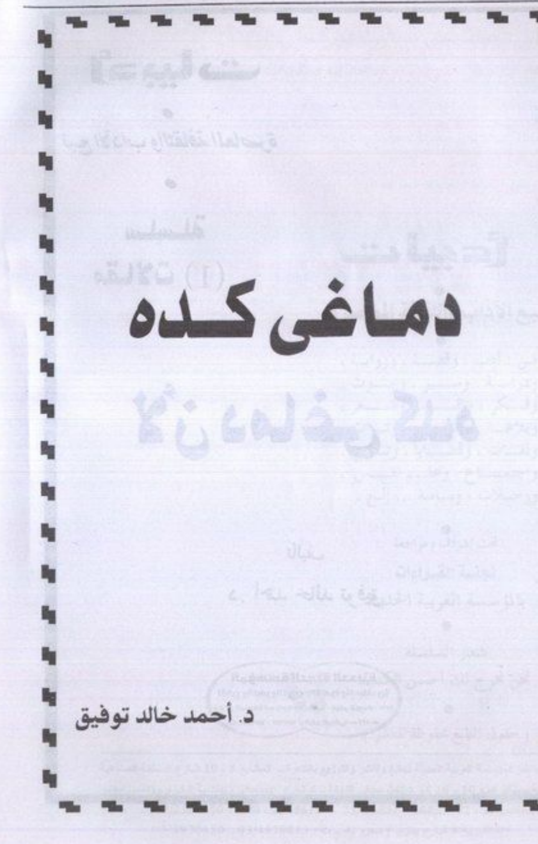




دماغي كده!

د. أحمد خالد توفيق



لأن دماغى كده

راق لى جدًا رأى سيد الرواية (نجيب محفوظ) عندما سأله حشد من الأدباء فى مجلة الهلال عن سبب عدم كتابته المقال ، فقال : « شاء الله أن يجعلنى من أصحاب الانفعالات لا أصحاب الآراء » . وفى موضع آخر قال إن فن الرواية مراوغ يسمح لك بقول ما تريد دون أن يُمسَك عليك رأى معين ، فهو كالكرة التى رآها فلاسفة الإغريق أكمل الأشكال الهندسية لأنه ليس لها طرف يمكن الإمساك به .

ظللت أتبنى هذا الرأى كثيرًا ، وكانت الصحفية اللامعة والصديقة العزيزة (أمنية فهمى) تتألق وقتها فى جريدة الدستور الإصدار الأول ، فاقترحتْ علىّ أن أكتب المقال معهم ، لكننى اعتذرت لأننى وجدت أن كُتَّاب الدستور يقولون بالضبط ما أريد قوله وبشكل أفضل .. لماذا يجب أن يصير الجميع طهاة ؟.. لماذا لا يكتفى البعض بتذوق الطعام الجيد ؟..

عندما انتقلت (أمنية) إلى جريدة التجمع كررت طلبها ، وهنا خطر لى أن عندى أشياء لم يقولوها أو على الأقل لم أقرأها لهم ، وأنه من الممكن ألا تكون (هيكل) أو (هويدى) أو (محمود عوض) أو د . (جلال أمين) ، وبرغم هذا يمكنك التعبير عن رأيك . من ثم كتبت على استحياء المقال الأول .. ثم الثانى فالثالث .. وكنت على استعداد تام للتوقف فى أية لحظة ، لكنى ذهبت لزيارة مقر جريدة التجمع لأجد مجموعة ظريفة ودودة من المفكرين ، واتضح أن مقر هذه الجريدة غرفة عتيقة متداعية بالطابق العلوى من حزب التجمع تطل على سطح جميل جهم تغمره الشمس ، ووجدت أن أكثرهم يعمل متطوعًا وبحماس غريب تحت قيادة الأستاذ

(مدحت الزاهد) . أعتقد أنهم جميعًا كانوا يحبون ما يعملون ، ولربما ستبقى هذه الأيام فى ذاكرتهم باعتبارها من أجمل أيامهم . الأجمل أنهم رحبوا بى فلا أعرف بالضبط ما قالته (أمنية) لهم .. لكنهم كانوا سيتصرفون بالطريقة نفسها لو جاء (بوب ودوارد) للكتابة معهم !!

كتبت لجريدة التجمع فترة طويلة بلا انتظام ، ثم توقفت الجريدة للأسف لأسباب يطول شرحها ، وولد الدستور الجديد لأكتب له بلا انتظام كذلك . ثم ولد الدستور اليومى ليطلب منى الصديق العزيز (إبراهيم عيسى) مقالاً يوميًا ، لكنى صحت فى ذعر : « كله إلا هذا !.. أريد بعض الحرية وإلا اضطررت لاختلاق الأفكار اختلاقًا ! » هكذا وافق على أن أكتب مقالاً أسبوعيًا فى حدود ألف كلمة .. . وهو ما حرصت على الالتزام به ، ما عدا بعض أسابيع الانشغال أو النضوب أو الإرهاق.

ثم جاء موقع (بص وطل) على الإنترنت .. انضممت له متأخرًا لارتباطى الحصرى بموقع آخر ، لكنى بدأت أكتب له بشبه انتظام . النتيجة هى أن عددًا هائلاً من المقالات قد تراكم عندى مع الوقت ، وهنا شعرت بالهباء .. كتبت كثيرًا لكنه تبدد على الأرجح فى وسائل سريعة البخر .. الإنترنت وسيلة طيارة لا يبقى فيها شىء فى موضعه أكثر من عامين .. الصحف تظل وسيلة ثابتة حتى يُلف فيها أول رغيف أو تستعمل لتلميع أول نافذة ..

هكذا خطر لى أن أجمع ما كتبت بين دفتى كتاب ، ليكون شيئًا ثابتًا يمكن الرجوع إليه . مارست انتقائية عالية فى اختيار المقالات لأن عددها كبير فعلاً (لم أعرف أننى ثرثار كالآخرين إلا فى تلك اللحظة) ونشر كل

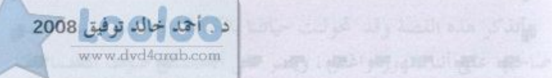
شىء يجعل هذا الكتاب فى حجم الموسوعة البريطانية ، ولأن أحداثًا كثيرة لم تعد تهم أحدًا ، وبعض الآراء وجدتها فيما بعد سخيفة أو ساذجة . حاولت كذلك تصنيف المقالات إلى أقسام :

هناك مقالات لها طابع الذكريات .. هناك مقالات تزعم أنها تفهم فى السياسة .. هناك مقالات تلعب بالضبط فى دائرة (ماذا حدث للمصريين) التى كتب فيها د . (جلال أمين) كتابًا بالغ الأهمية ، وكتب فيها (أسامة غريب) كتابًا فائق الإمتاع قرأه الجميع تقريبًا هو (مصر ليست أمى دى مرات أبويا) .. هناك مقالات ذات طابع نقدى فنى .. وهكذا ..

لعلك قرأت بعض هذه المقالات ، ولعلك قرأتها كلها . لكن اجتماعها فى كتاب واحد يعطيك نظرة أشمل وأعمق . قد يبرهن هذا الكتاب على أن العزيزة (أمنية فهمى) بعيدة النظر ، أو يبرهن على أنها حسنة النية أكثر من اللازم ، لكنى فى جميع الأحوال أعدك بشىء واحد : هذه مقالات صادقة تمامًا لم أكتبها طلبًا للمادة أو نفاقًا لمسئول أو دفاعًا عن جهة ما ..

عندما حاول بعض المحيطين بعبد الناصر أن يوغروا صدره على العظيم (أحمد بهاء الدين) ، قال لهم : أتركوه .. نحن راقبناه وندرك أنه لا علاقة له بأحد .. هذا رجل (دماغه كده) ..

(دماغه كده) .. هذا هو شعار هذه المقالات .. فقط هناك شخص واحد كتبت وهو فى ذهنى ، ويهمنى بالطبع رضاه والفوز باحترامه إن لم يكن يحبه ، وهو القادر على جعلى أتردد أو أراجع دماغى هذه .. وهو الوحيد الذى أدين له بكل شىء : القارئ .....



د. أحمد خالد توفيق 2008

دماغى كده
فى السياسة

جمهور واغش

يجلس الناقد السينمائى الجميل رءوف توفيق فى قاعة السينما يحاول أن يفهم شيئًا من الفيلم ، لكنه يفاجأ بأن الصوت عال جدًا لدرجة أن الجمهور لا يسمع حرفًا من الحوار .. هناك حيوان ما قد فتح السماعات إلى أقصى طاقة لها ، وبالتالى تحولت قاعة السينما إلى معتقل نازى أو جحيم دانتى أو حظيرة مواش حسب التشبيه الذى يروق لك ، وبما أنه رجل مهذب فقد طلب من هذا العامل أو ذاك تخفيض الصوت بلا جدوى ، من ثم اتجه إلى مدير السينما فى مكتبه ليفاجأ بحلوف بدين جالسًا يعد كومة من أوراق المال .. عرفه بشخصه ونقل له شكواه ، لكن المدير رفض فى كبرياء أن يخفض ارتفاع الصوت ، وقال دون أن ينظر له : « يا أستاذ سيبك منهم .. ده جمهور واغش ! »

كان هذا فى أوائل السبعينيات ، وكانت تلك أول مرة يسمع فيها الناقد الكبير هذا المصطلح ، فلما سأل عرف أنه مصطلح سوقى معناه (تحت المستوى) ، وهو ما يشبه مصطلح (بيئة) الذى نستعمله اليوم .

لم أستطع قط نسيان هذه القصة ، وإن كنت أراهن على أن رءوف توفيق نفسه لا يذكرها. ما الذى كان يمكن أن يحدث لو خفض المدير ارتفاع الصوت ؟.. هذا الإصرار يعكس بلا شك رغبة لا نهائية فى الإيذاء والإهانة والاستعلاء .. هذا جمهور واغش فليُعامل كما يُعامل الجمهور الواغش إذن ..

أتذكر هذه القصة وقد تحولت حياتنا بالكامل إلى قاعة سينما يصر صاحبها على أننا جمهور واغش ، ويصر على ألا يخفض صوت السماعات

مع أن هذا لن يكلفه شيئًا . رءوف توفيق يمثل الصحافة ويمثل المثقفين الذين يسودون صفحات الجرائد والمجلات كل يوم فلا يصغى لهم أحد ..

تكلم عن الغلاء .. تكلم عن انقطاع المياه .. تكلم عن التعذيب .. تكلم عن الفساد. تكلم عن تدهور التعليم والخدمات .. تكلم عن انهيار الريادة الإعلامية المزعومة .. تكلم كما تريد فأنت جمهور واغش ولن يتعب أحد نفسه بأن يخفض صوت السماعات من أجلك .. من الذى أصر على تغيير عبارة (الشرطة فى خدمة الشعب) إلى (الشعب والشرطة فى خدمة الوطن) ؟.. لماذا لا تترك هذا الشعار يا أخى حتى لو كان مجرد شعار ، وما أكثر الشعارات الجوفاء فى حياتنا ؟ ، لكن لا .. لا يجب أن تنسى لحظة واحدة أنك جمهور واغش .. هل تجرؤ على أن تتصور لحظة أن الشرطة فى خدمتك يا جربوع ؟..

ما الذى جعلنا جمهورًا واغشًا ؛ أو لماذا يعتبروننا كذلك ؟.. على قدر علمى نحن أولاد ناس ، ومعظمنا يستحم (فى المحافظات التى ما زال الماء يصلها) ، ومعظمنا حاصل على الإعدادية والله العظيم . هذا التعامل الخشن جعل الناس يتصرفون بالمثل ولا يثقون بالحكومة . ولهذا تتداعى إلى ذهنى لفظة (أومرتا Omertà) . (أومرتا) معناها مؤامرة الصمت ، وهو سلوك شعبى معتاد لدى الصقليين والإيطاليين الذين يتعاملون مع عصابات المافيا .. هنا يصير من الممنوع على المواطنين أن يتعاملوا مع أية جهة حكومية كانت . يُقتل أخوك أو جارك لا سمح الله لكنك لا تبلغ الشرطة حتى لو عرفت القاتل. كل الشهود الذين رأوا الجريمة لم يروا شيئًا .. يقبضون على القاتل فينكر أن المافيا كلفته بأى شىء ولا ينطق بحرف . ينسحب هذا على أى تعامل حكومى ؛ لأن الناس هناك كونوا حكومتهم الخاصة التى تديرها المافيا.

كنت على الطريق السريع مع صديق لى ، عندما رأيت تلك العلامات المعروفة التى تنذر بوجود رادار فى طريقنا . إنها الإشارات المتقطعة للنور من السيارات القادمة فى الاتجاه المقابل. على الفور خفض صاحبى سرعة سيارته إلى ستين ، وتحول الطريق السريع إلى صف من سيارات مهذبة تمشى فى سلام كأننا جوقة من الملائكة فى موكب سماوى ..

ما حدث على الطريق السريع هو مؤامرة شعبية كاملة على طريقة أومرتا لخداع الرادار وخداع الحكومة. مؤامرة اتفق عليها مئات من سائقى السيارات .. من يلتزم بها جدع ومن يخرج عنها نذل ابن نذل وخائن يعمل مع الأعداء. برغم أن الحد من السرعات المجنونة أمر حميد ومن صميم عمل الدولة ، فإن هؤلاء يعتبرون الحكومة شرًا من السماء جاء ليخرب بيتك وييتم عيالك ، وعلينا أن نتكاتف لمنعه ، وأن السائق الذى سوف يظفرون به ليس سوى صاحب عيال غلبان وأرزقى .. عامة يؤمن المواطن المصرى أن الدولة تأخذ منه أضعاف ما تعطيه ، وهو قد يجد غضاضة فى سلب حق بواب العمارة لكنه لا يفوت فرصة لخداع الدولة التى لا يشعر بأنها تقدم له أية خدمات.

عرفت عريسين شابين عاكفين على تشطيب عش الزوجية قبل زواجهما بشهر ، فكانا بعد رحيل الصنايعية وقبل مغادرة الشقة يتأكدان من أن الأنوار كلها مضاءة ، لدرجة أن العريس عاد ذات مرة من الشارع ؛ لأنه نسى أن يضىء الأنوار . سألته عن سبب هذا الحرص وقد حسبته تقليدًا شعبيًا لمنع العفاريت أو الحسد أو شىء كهذا . قال لى فى ذكاء : « لأن هناك شهر إعفاء من دفع رسوم الكهرباء مع العدادات الجديدة ؛ لهذا نحاول أن نكلف الحكومة بعض المال ! »

مبالغة ؟.. أقسم بالله العظيم أن هذا الموقف حدث حرفيًا ، ولا داعى بالطبع لوصف ملامح وجه العريس عندما عرف فيما بعد أن موضوع الإعفاء هذا إشاعة لا أساس لها من الصحة !

على قدر علمى عسير أن يحدث هذا الموقف فى أى بلد من بلدان العالم ، وهو يعكس قرونًا من انعدام الثقة بين الشعب والحكومة. المشكلة أن هذا الوضع يتفاقم أكثر مع ذلك الإصرار الجهنمى على اعتبارك جمهورًا واغشًا . لا يمكنك أن تعرف أى شيء على الإطلاق .. ليس من حقك أن تفهم .. رأيك لا قيمة له .. لا تبيعوا القطاع العام لكنه يُبـاع .. لا توقعوا الكويز فتُوقع .. لا تذبحوا القضاة فهى جريمة لا تغتفر لكنهم يُذبحون .. استقبلوا وزير الخارجية الفلسطينى المنتخب لكن لا أحد يستقبله .. نصح المفكرون بأهمية وجود خطوط دبلوماسية قوية مع إيران فلم يبال أحد .. حذر الجميع من خطر تعويم الجنيه فعوموه ..

لقد صفق الناس فى قاعة السينما التى كانت تعرض فيلم (عمارة يعقوبيان) عندما سقط ضابط أمن الدولة مضرجًا بدمه . كم منهم صفق لأنه سفاح سادى عذب الفتى واغتصبه ، وكم منهم صفق لأنه يمثل الحكومة التى تزدرينا ؟.. إجابة هذا السؤال تحدد مستقبل مصر !

الدور دائم الاخضرار

كتاب قديم مصفر الأوراق ممزقها وجدته فى مكتبة صديقى هاوى الشطرنج . كنت فى سن المراهقة ولم أسمع قط عن وجود خطط للعبة الشطرنج ، ولا هذه الرموز العجيبة على غرار (ب 4 م – ح 3 فو – بو X بم) .. (هو مش لعب وخلاص ؟) ، لكنى ذهلت عندما وجدت عددًا من الأدوار البارعة جدًا التى خلدها التاريخ ، وكان لكل دور اسم . من بين هذه الأدوار دور عجيب أطلقوا عليه اسم (الدور دائم الاخضرار) ، وقد لعب فى النمسا فى يوم ما من القرن التاسع عشر. فى هذا الدور يلعب الأبيض بسلبية غريبة ، تاركًا قطعه ليتسلى عليها الأسود. الأسود يأكل الطابيتين .. الوزير .. الفيلين .. إلخ .. موقف الأبيض يسوء بلا انقطاع ، بينما ملك الأسود يقف مزهوًا بين قطعه .. هنا ينقل الأبيض فرسًا .. القطعة الوحيدة الباقية له .. كش مات .. ملك الأسود المحاط بحاشيته أدرك فجأة أنه فى حصار لا فكاك منه ، وأن حفاظه على قطعه جعله عاجزًا عن الحركة . لا تدرك مدى خطورة المأزق إلا عندما تبتعد عن الرقعة ، وعندها تسلم بالعبقرية الأستاذية للاعب الأبيض.

فكرت فى هذا الدور عندما كنت أتابع نشرة الأخبار بما تنقله من أنباء (زى الطين) لمسمعى . ما الذى حدث ؟.. للحظات كثيرة حسبنا أننا نربح وأننا نتقدم ، لكن تأتى اللحظة التى تبتعد فيها عن الرقعة فتفهم سوء الموقف .

عندما تبتعد عن الرقعة تدرك أن هناك حقائق ولدت على الأرض ولم تفطن لها من قبل .. بوش والجيش الأمريكى يلاقون الأمرين على أرض

العراق ، لكن هل بوش يخسر المعركة فعلاً ؟.. هل نكسبها فعلاً ؟.. الغرض من الحرب كان التخلص من صدام ، وتدمير العراق ، والسيطرة على البترول . لقد تم التخلص من صدام ، ولا يوجد أى شك اليوم فى أن العراق عاد إلى العصر الحجرى ، والعراقيون يتساقطون كالدجاج وتغرق دماؤهم الشوارع كل يوم . عبارة (خمسون جثة مقطوعة الرأس مقيدة اليدين عليها آثار تعذيب) صارت جزءًا أساسيًا من كل نشرة أخبار ، ولم تعد تستدعى الانتباه على الإطلاق. والمشكلة أنك لا تعرف أبدًا كيف الخروج من هذه الورطة .. هذا وضع مرشح للأبدية .. وفى اللحظة المناسبة سيتراجع الجيش الأمريكى ليسيطر على منابع النفط وبالتالى ينتهى مسلسل خسائره . لو كانت أرقام خسائر الجيش الأمريكى التى يعلنها حقيقية فهى مصيبة ، ومعناها أن العراق أكثر الأماكن أمنا فى العالم بالنسبة للغزاة ، ولو كانت زائفة فقد استطاع بوش وجنرالاته إخفاءها على كل حال. لا أحد فى أمريكا يصدق أن يتم تزوير أعداد القتلى ، وقد أرسلت خطابًا للمخرج المشاغب مايكل مور عبر موقعه على الإنترنت أقترح فيه أن يكون بوش كذابًا بصدد أعداد القتلى الأمريكيين ، فرد علىَّ مور فى حزم بخطاب من كلمة واحدة : مستحيل . هو يعشق التشهير ببوش لكنه لا يصدق هذه الدرجة من القذارة. هكذا مهما كان عدد القتلى فقد تولى بوش فترة رئاسة ثانية .. اجتاز دغل الفضائح ، وتخلص من معارضيه ولم يجر معه أى تحقيق عن أى شىء ، ونفذ ما أراده بالضبط .

وماذا عن فلسطين ؟.. كنا فى الانتفاضة الثانية والحماس يعمى العيون ، والانفجارات تدوى فى تل أبيب . شارون الأحمق يريد بناء سور عنصرى واق ويبدأ التنفيذ فعلاً برغم الإدانة الدولية . يومها قال محمد حسنين هيكل :

« أشعر أن القضية الفلسطينية تتلاشى فلم يعد منها سوى بضعة جيوب » .. هيكل من المفكرين القلائل الذين يجيدون فن الابتعاد عن الرقعة ليروها أفضل .. الآن ابتعد أنت أيضًا عن الرقعة لتدرك أن السور الواقى قد نجح فى منع الهجمات فعلاً ، وأن حماس وفتح يقتتلان فى الشوارع ، وهو ألعن كوابيسك .. الكابوس الذى لم تجسر على التفكير فيه على الإطلاق من قبل. محاولات التسوية تمضى قدمًا نحو تدبير أية صحراء يُحشر فيها الفلسطينيون لتنتهى القضية سريعًا .

عندما يتكلم هيكل عن الخطة (جاما) تجد بين أوراقه مذكرة ـ منذ خمسينيات القرن الماضى ـ كتبها إيزنهاور ، يقترح فيها إزاحة ناصر ومصر المشاغبة عن قيادة العالم العربى ، واتخاذ زعيم روحى هو الملك سعود يتولى قيادة الأمة . تكلم عن الريادة كما تريد لكن من يقود العالم العربى اليوم ؟.. ما الدولة التى يذكر اسمها دومًا فى المقدمة قبل مصر ؟.. متى صارت مصر مرهقة مكبلة غارقة فى مشاكلها الاقتصادية والسياسية فلا وقت عندها ولا بال رائقًا للعب دور قيادى ؟. هذه أشياء تمت بالتدريج ولا نفطن لها إلا عندما نبتعد عن الرقعة أكثر. عندها تدرك أن الأسود يخسر فعلاً ، وأن الأبيض ينفذ كل ما أراد .

منذ نحو عشرة أعوام ابتعد هيكل مرة أخرى عن الرقعة ، وكان الموضوع يتعلق بمؤتمر دولى لمناقشة مشكلة الأقليات فى مصر . يومها كتب هيكل فى إحدى الصحف ما معناه : « تكرار الكلام عن الأقليات يشبه قطرات الماء التى تسقط بلا هوادة على الصخر بعد قليل يتكون خط باهت .. ثم يزداد عمق الخط فترى أخدودًا صغيرًا يزداد عمقًا ويستمر

تساقط القطرات فيتكون شرخ لا شك فيه يفصل بين صخرة وأخرى ».

وما زال المقال مقصوصًا عندى . كان الوقت مبكرًا جدًا ولم نكن نسمع عن حوادث فتنة طائفية إلا فيما ندر لعل أهمها كان حادث الكشح . ثم بدأت القصص تتوالى .. قضية الراهب المشلوح .. قضية الزوجة التى أسلمت .. مشكلة شريط الفيديو فى الإسكندرية .. اعتداء على كنائس .. أحداث بنها .. الدخيلة .. أقباط المهجر ومايكل منير .. احتقان يتزايد بين الطرفين ، وشعور لدى كل طرف أنه يأخذ الجزء الأقل من الكعكة أو لا يأخذ أى شىء على الإطلاق . قارئة قبطية قبلت أن تتكلم معى بصراحة تقول فى جزء صغير جدًا من خطابها : « أنا عمومًا مشكلتى مش مع الحكومة أد ما هى فى الشارع ، لما أركب تاكسى والسواق مايردش عليا السلام ويبقى عنده استعداد يتعارك معايا لو اتنفست ويفضل يزغر لى فى المراية . مشكلتى مع التعليقات فى الشارع (يا مسيحية) و (هما دول اللى مبوظين البلد) .. » فى المقابل كلنا يعرف الساكن المسيحى الذى يتشاجر مع صاحب البيت على الإيجار فيشكوه فى أمن الدولة باعتباره متطرفًا. لا تنكر هذا أو ذاك من فضلك ، فالمثالان موجودان ويصرخان فى وجوهنا كل يوم . كيف وصلنا لهذا وكيف لم نر الخط وهو يتزايد عمقًا ؟.. وكيف نمنعه من أن يتحول إلى شرخ حقيقى عميق ؟.. أرى يد لاعب الشطرنج الخفى تنقل هذه النقلة البارعة ، واللاعب يعرف جيدًا أن السبيل إلى إضعاف مصر يبدأ بتفكيك نسيج الوحدة الوطنية الحقيقية وليست الإعلامية .

لا أؤمن بنظرية المؤامرة وكل الكتب السخيفة عن الأحجار على رقعة الشطرنج التى يحركها الكرادلة والحاخامات المتآمرون فى ضوء المشاعل السباعية ، لكننى أؤمن يقينًا أن هناك مؤسسات صنع قرار وخزانات تفكير وخبراء استراتيجيين يخططون ونحن لا نفهم .. أؤمن بأن هناك لاعب شطرنج عبقريًا يتوقع كل هذه النقلات ، وهو ينتظر اللحظة المناسبة كى يحرك فرسه .. كش مات يا عرب .. انتهى الدور دائم الاخضرار !

عن البنيوية العملياتية الفتحوية

« أعرف من يرفض حقًا .. من لون الغربة والجوع بعينيه وأعرف أمراض التخمة .. »

لماذا أتذكر هذا المقطع من شعر (مظفر النواب) الآن وفى هذه الظروف ؟

من الجلى أن (مظفر النواب) كان يعتمد كثيرًا على انطباعه الشخصى ، وهذا ما حدث معى بالضبط عندما كنت أشاهد شاشة الجزيرة منذ أعوام بعد ما فكت إسرائيل حصار عرفات أول مرة واجتاحت جنين يوم الجمعة 5 أبريل 2002 . كنا نحن نحترق غمًّا وألمًا بعد ما رأينا الجثث مكومة فى الأكياس السوداء ، ورأينا المسعفين يلبسون الكمامات وهم يملئون شاحنة كاملة ، ورأينا الرجل الذى قضى ثلاثة أيام حبيسًا مع جثث أمه وولديه وزوجته التى دب فيها العفن ، عاجزًا عن دفنهم أو الخروج من البيت . فيما بعد رأيت موقعًا متخصصًا فى الصور المرعبة اسمه (روتن دوت كوم) فيه فصل كامل عن مذبحة جنين ، ترى فيه صورًا لا يصدقها عقل ولا يتحملها جهاز عصبى بشرى ، مع تعليق ساخر من صاحب الموقع الأمريكى يقول : « ومستر أنان يصر على أنه لم تحدث مذبحة فى جنين ! »

رأينا كل هذا ثم رأينا عرفات يتصدر المائدة بينما من حوله رجال فتح يحتفلون (بالنصر المؤزر) الذى هو فك الحصار ، كأن لهم من أمرهم شيئًا وكأن إسرائيل غير قادرة على إعادة الحصار فى أية لحظة تريد . كان هناك

جو عام من المرح أكثر مما يتحمله الموقف .. ضحكات .. قهقهة .. قفشات .. وتوقفت الكاميرا عند رجلين مكتنزين غليظى الشاربين والجسدين جالسين إلى المنضدة يتبادلان المزاح مع ذلك التعبير الفاحش الذى يوحى بأنهما يقولان نكتًا (أبيحة) ، ثم لاحظ أحدهما الكاميرا فتقلص وجهه وهمس فى أذن صاحبه كى يأخذ باله . كان انطباعى عن المشهد أن هذه وجوه تعانى (أمراض التخمة) . هناك كعكة دسمة جدًّا فى الموضوع ، وهم سعداء بأنها عادت لهم بصرف النظر عن الجثث المكدسة فى أكياس . انطباع آخر شعرت به هو أن هذه ذئاب يسيطر عليها مدرب محنك يلعب بالبيضة والحجر هو (عرفات) ، لكنه لو توارى لانقضوا على كل شىء . كان وضع عرفات مع الإضاءة يوحيان نوعًا بالمسيح فى صورة العشاء الأخير الشهيرة لدافنشى ، وقلت لنفسى : إن أحد هؤلاء سيكون يهوذا .. لا أعتقد أننى أخطأت كثيرًا ؛ لأن أحدهم هو من دس له السم قطعًا ، غير أن عرفات لم يكن المسيح بالتأكيد .

فى هذا الوقت كانت هناك اتهامات عدة للعقيد جبريل الرجوب قائد الأمن الوقائى السابق فى الضفة الغربية بتسليم 8 مقاومين فلسطينيين من فصائل مختلفة لقوات الاحتلال ، منهم مقاتل من حركة فتح نفسها . وهى تهمة أنكرها بشدة وزعم أنهم تم اعتقالهم أثناء اجتياح بتونيا . قال الشهيد أحمد يس أنه تلقى مكالمة استغاثة منهم قبل اعتقالهم تؤكد أن الرجوب هو الفاعل .

هناك مقال شهير يتداوله الفلسطينيون كتبه طبيب فلسطينى اسمه إبراهيم حمامى يكشف معلومات عن محمد دحلان الذى ولد فى أسرة فقيرة ، وتنقل بين ليبيا وتونس ، ويزعم المقال أنه تم تجنيده مع الرجوب

من قبل المخابرات المركزية أثناء وجوده فى تونس . أمـا خطـة رومـا فهـى اتفاق يقضى بأن يحتوى دحلان كمسئول للأمن الوقائى حركة حماس . هـذه هى الفترة التى أطلق عليه فيها اسم (الكولونيل الوسيم) فى الصحافة الغربية . امتلك فندقًا خمسة نجوم فى غزة ، وبـدأت خلافاتـه مـع عرفـات . والمقـال يوجه له عدة أسئلة مهمة : 1« ـ من أين أتى بالملايين ليصرفها على أتباعه فى فتح ؟ 2 ـ من أين له الأموال ليمتلك فندق الواحة ، وليشترى مؤخرًا أكبر وأشهر منازل غزة 3 ـ هل يستطيع أن يكشف عن مصـدر ثروتـه المقـدرة بـ53 مليون دولار وهو القادم من عائلة معدمة؟ 4 ـ من دفع فاتورة إقامته بفندق كارلتون تاور بكامبردج ليتعلم اللغة الإنجليزية على أيدى ثلاثة مـن المختصين فى إحدى أكبر وأغلى الجامعات فى العالم وتحت الحراسة الأمنية ؟ »

لهـذا عندمـا اقـترحت أم العيـال أن نتبرع للشعـب الفلسـطينى فـى المصرف ، راقت لى الفكرة . ثم راجعتها مـرارًا .. مـن قـال لى إن التبرع سيصل فعلاً للفلسطينيين ؟.. يصل لأهل إيمـان حجـو وأهـل محمـد الـدرة وذلك الذى حُبس ثلاثة أيام مع جثث أسرته ؟.. مـن يضمـن لى ألا آخـذ المال من قوت عيالى كى أزيد من ثروة الأخ دحلان وسـواه ، وهـو قطـرة فى بحر على كل حال ؟

عندما يظهـر جبريل الرجـوب على الشاشـة بصلعتـه وصوتـه الفـظ ، ومصطلحاته : « البنوية العملياتية ، وترتيب البيت الفتحـوى » ، لابـد أن تشعر بالاختناق .. كلهـم يتكلمـون بهـذه الطريقـة وأسـلوب النسـب إلى الجمع ليوحوا بأنهم من كبار المناضلين ، تشعر بـذات الجـو القديـم الـذى صاحب اغتيال يوسف السباعى فى 18 فبراير من عام 1979 . ربما ترفـض كامب ديفيد ومبادرة السادات لكنك كذلك ترفض من اصطلـح إعلامنـا

على تسميتهم (مجاهدى الميكروفونات) . ما علاقة كاتب رومانسى مثـل يوسـف السـباعى بالقصـة ؟ ، ومـا الإضـافة التى تقدمهـا باغتياله (منشـان القضية) ؟ . نفس جو اغتيال عصام السرطاوى فى لشبونة يوم 10 إبريـل عام 1983 . أنت أدنته واعتبرته عميلاً ، لكن لماذا تقتلـه وهـو خـارج مـن الفندق بينما على بعد متر واحد منه يمشى السفاح بيريز فتتركـه .. لمـاذا لا تقتل الاثنين يا أخى ؟.. لماذا لا تبدأ بعدوك ؟

لقد شاخ رجال فتح ما بعد أوسلو حقًّا .. إنه (تعب المعادن) .. لـم تعد هناك علاقة بينهم وبين فتح العقائدية الثورية التى عرفناها أيام خطـف الطائرات إياها .

قـارن هـذه العيـون المنتفخـة التـى أغلقتهـا السـلطة والنفـوذ بـالعينين الحساستين الذكيتين لخالد مشعل أو الرنتيسى أو المتحدث الرسـمى لحماس . هذه عيون تشى بـ (لون الغربة والجوع) .. عيون (ترفض .. حقًّا) .

قد تختلف مع حماس كثيرًا جدًّا .. هناك ألف تَحفُّظ علـى فكـرة خلـط الدين بالسياسة والإسلام السياسـى ، لكـن لا تنكـر لحظـة أن هـؤلاء قـوم صادقون يؤمنون بما يفعلون وقد ضحوا بحياتهم فعـلاً ، وكـان سلاحهم حتى الأشهر الأخيرة موجهًا نحو هدف واحد فقط هو الهـدف الصحيـح . أحمد يس القائد العجوز رأينا أجزاء مخه مبعثرة على الرصيف سـاعة صـلاة الفجر ، والرنتيسى تمزق جسده ، وخالد مشعل مـات فعـلاً وعـاد للحيـاة لأن الملك حسين لـم يستطع قبـول اغتيالـه علـى أرض الأردن . لا ننكـر كذلك أن هناك شرفاء كثيرين فى فتح ما بعد أوسلو ، منهـم علـى سـبيل المثـال الرائـد سـعيد الكرمـى مـن قـادة شـهداء الأقصـى الـذى نسـفه الإسرائيليون فى 14 يناير عام 2002 ..

حماس قد تم وضعها فى مصيدة ، وكان عليها أن تواجه تحدى جيفارا الشهير : الثائر الذى يجيد التفجير ودك الحصون عندما يطلب منه أن يبنى ويشيد وأن يفهم تعقيدات السياسة . جندى المدفعية الذى يطلب منه أن يتحول إلى عامل بناء . ربما كانت حماس على استعداد للتعلم وبالتأكيد كانت قادرة عليه ، لكن أحدًا لم يعطها فرصة .. تحالف العالم كله ضد تجربتها كى تفشل . وفى النهاية كانت الضباع المستفيدة فى حركة فتح على استعداد للقتال حتى الموت من أجل مكاسبها ، واشتعل الوضع فى غزة . ربما أكون عاطفيًا أكثر من اللازم ، لكننى بالفعل أرى الصراع صراعًا بين من (يرفض .. حقًا) ومن يعانى (أمراض التخمة) .

عن مكدونالد والبطة دونالد

من الخصائص المهمة فى الإمبراطورية الأمريكية كونها تقدم كما يقول الأستاذ هيكل نمطًا معيشيًا وثقافيًا بالغ الجاذبية . إنها الإمبراطورية الأولى فى التاريخ التى تستعمل هذا النوع من السلاح . وفى الماضى كان من السهل أن تمقت الإمبراطورية الرومانية بكل رموزها؛ فلم تكن كتابات ماركوس أوريليوس أو خطب بللينى الأكبر تتسرب إلى دارك ، أما اليوم فأنت تشتم الولايات المتحدة ثم تقضى الليل كله مع فيلم أمريكى شائق . يذكر أبناء جيلى أيام الحرب الباردة حينما كان الماركسيون يعدونك بجنة البروليتاريا التى ستتحقق بعد الكثير من الدم والعرق والدموع ، بينما كان الأمريكيون يقدمون لك بالفعل جنتهم الصناعية ذات اللون والطعم والرائحة ، حيث تسبح الحسناوات الشقراوات فى بحار البيبسى كولا بينما يرقص ميكى ماوس ويحلق سوبرمان فى الجو . إنه (العالم الحر) .. . تلك اللفظة الأمريكية الاستعمارية التى سادت لتصف كل ما ينضوى تحت جناح الولايات المتحدة خارج الستار الحديدى ، أما ما وراء الستار الحديدى فحفنة من الجنرالات الساديين المصابين بالشذوذ الجنسى والذين يتكلمون الإنجليزية (المكسرة) ، ومواطنون لا يرغبون فى شىء إلا الفرار إلى العالم الحر .

منذ أسابيع قدمت قناة الجزيرة فيلمًا وثائقيًا بريطانيًا عن احتلال العراق ، وكان المراسل البريطانى يختبئ مع المارينز خلف دبابة بينما طلقات المقاومة تنهمر عليهم .. هنا قال أحد رجال المارينز دعابة ليزيل التوتر ، لكنها تستدعى وقفة عميقة : « تصور أننا لم نقصف قط أية مدينة فيها (ماكدونالد) ؟! » وقد اندهش المراسل البريطانى لهذه المعلومة التى

ثبت أنها حقيقية . إن ماكدونالد رمز استعمارى قوى يعنى أن هذه الدولة غير مارقة ، وله ذات ثقل القنصلية البريطانية فى الماضى .. بل إن ظهوره فى بلد ما يعطيها نوعًا من صكوك الأمان ضد الغزو . ولهذا لا نندهش كثيرًا عندما نعرف أن الصين اعتبرت البطة دونالد عميلة للمخابرات المركزية ومنعت دخولها البلاد لفترة طويلة إبان الثورة الثقافية .

إن الثقافة الأمريكية على مستوى القراءة أو المشاهدة أو الطعام هى أمضى سلاح فى ترسانة الحرب الأمريكية ، والولايات المتحدة قادرة بالفعل على فرض أولوياتها الثقافية .. إنها الدولة الوحيدة التى تشتمها وأنت تستمتع بأفلامها وتتلذذ بمشروبها الشهير .

أنت تشعر بأن من يرتادون محلات الوجبات الجاهزة الأمريكية لا يفعلون ذلك لأنهم يحبونها ، بل لما يحظون به من (ممارسة للأمركة) على أرض وطنهم ، وهم يدفعون ثمن هذه الممارسة غاليًا ..إن هذه المحلات لا تبيع طعامًا لكنها تبيع جوًا وطقوسًا وهى تعرف هذا .. يلبس الشاب (الكاجوال وير) مع كاسكيت البيزبول المقلوب على رأسه ، ويحمل شطيرة الهامبورجر وفى اليد الأخرى كوب البيبسى يبرز منه الشفاط فيشعر بأنه واحد من هؤلاء السادة فى مانهاتن ، ويا حبذا لو استعمل لفظة **Shit** مع كل عبارة .. باختصار هم يرتادون هذه المحلات لكى يكونوا من القوم الذين يرتادون هذه المحلات .. لماذا صار الشباب يصافحون بعضهم على طريقة **High five** أى تلك المصافحات العالية التى يستعملها لاعبو السلة الأمريكيون ؟.. لماذا يلبس الشباب القلنسوات الصوفية على غرار الزنوج الأمريكيين مطربى (الراب) ؟

عندما أشاهد أفلام الأمريكيين وحلقاتهم الكوميدية من طراز كوميديا الموقف **Sitcom** أجد غريبًا جدًا أن يفهم المواطن العربى هذه الموضوعات أو يتذوقها لكن هذا يحدث .. مشكلة الفتى المراهق الذى لا يستطيع مواعدة **Dating** أية فتاة فى الصف .. مشكلة الفتاة فى الذهاب إلى حفل الرقص السنوى .. مشكلة الطفل الذى لا يحقق أهدافًا فى لعبة البيزبول .. ثم الدعابات السمجة : « أطرف شىء حدث لى فى طريقى لهذا الحفل .. تصوروا أننى لم أجد زيتونًا للمارتينى ! » فينفجر الجمهور ضحكًا ومعه يضحك (عباس) أو (حلمى) من فرط طرافة الموقف .. لا زيتون للمارتينى ؟.. يا للسخرية! . ثم الكلام عن « بطل الكلية الذى يزن مائة رطل وطوله ستة أقدام .. » فتحاول أنت جاهدًا فهم ما يمثله هذا بالمتر والكيلوجرام .. ثم يظهر مقدم حفل الأوسكار الذى مهمته هى التَّظارُف ستيف مارتن غالبًا ليقول لنا : « لقد شعرت كأننى فى رون هوارد شو !.. » هنا ينفجر الجمهور ضحكًا ويوشك على الاختناق .. أنت مطالب بأن تعرف ما تعنيه هذه الدعابة أو تختنق ضحكًا مع الجمهور ..

حتى على مستوى مجلات الأطفال ، لماذا لا يتزوج دونالد صديقته ديزى أبدًا ؟.. إنه يحاول الفوز بحبها ومن جديد ندخل فى نطاق (المواعدة) .. لكن ولا كلمة عن الزواج .. أين الآباء والأمهات فى هذه القصص ؟..

ويلاحظ من يتابع الأفلام الأمريكية الحديثة أن هناك نغمة تقديس واضحة لثلاثة أنماط من البشر : الزنجى واليهودى والشاذ جنسيًا .. راجع فيلم (أفضل ما يكون) حيث تجد ثلاثة الأنماط معًا . يسهل قبول العنصر الأول بشرط ألا يتحول إلى عنصرية مضادة ، وإن كان العارفون ببواطن

الأمور يؤكدون أنها مجرد قشرة سطحية تخفى عطن العنصرية .. يسهل قبول العنصر الثانى بشرط ألا يتحول إلى صهيونية أو تعصب أعمى .. أما العنصر الثالث فابتلاعه عسير جدًا .. لكننا نتعلم كيف نبتلعه بالتدريج ، وعلى طريقة راسبوتين فى ابتلاع جرعات متزايدة من السم يوميًا ..

إن الثقافة الأمريكية قوية إلى درجة أنها تخدر المواطن الأمريكى نفسه .. هذا المواطن الذى يمسك بعلبة البيرة الباردة ويلبس الكاسكيت بالمقلوب ويصلح هوائى التلفزيون لمشاهدة مباراة كرة القدم .. كرة القدم التى يلعبها على عكس العالم كله . وهو يؤمن فعلاً بأن أمريكا تقود العالم الحر وأن ديمقراطيتها هى النموذج الأعلى للشعوب الأخرى .. هذا المواطن التعس الذى آمن بخطر الشيوعية ، ثم بعد سنوات راح يتساءل : كيف قادنا ماكارثى إلى هذا كله ؟.. هل كنا مجانين ؟.. ثم نسى الأمر برمته وحارب فى فيتنام وبعدها بسنوات راح يتساءل كيف وصلنا لهذا ؟.. كيف كنا بهذا الحمق ؟.. ثم سرعان ما نسى وأرسل ابنه إلى العراق .. ولسوف يتذكر الأمر بعد عام أو عامين ليتساءل : كيف تركنا بوش يقودنا إلى هذا الجحيم ؟..

بعد خسارة كيرى أمام بوش قرأت رأيًا لأحد المواطنين الأمريكيين يقول : لقد كان كيرى رائعًا فى المناظرات .. لكننا نؤمن أن المناظرات لا تدل على شىء لهذا كان لابد أن يخسر !..

تأمل معى منطق الأطفال هذا : من يفز فى المناظرة لابد أن يخسر الانتخابات لأن المناظرات لا تدل على شىء !.. إذن هل كان على كيرى أن يخسر المناظرات ؟.. وما جدواها إذن ..؟..

كائن مغرور ساذج مخدوع ..هذا هو المواطن الأمريكى .. المواطن الأمريكى المتوسط الذى ليس خبيرًا فى مؤسسة (راند) وليس طبيبًا فى (مايو كلينيك) .. لكنه صار النمط الثقافى الأكثر جاذبية على ظهر هذا الكوكب ، وصار على الشباب أن يفرح لما يفرحه ، و يقلق من أجل ما يقلقه حتى لو كان عدم وجود زيتون لشراب المارتينى .. إنها العولمة التى وصفها د . (جلال أمين) بأنها تسرى فى اتجاه واحد : منهم إلينا .. بينما المفترض أن تسرى فى الاتجاهين .. لكن الأمريكى يؤمن أنه ليس لدى الشعوب الأخرى ما تقدمه له إلا فطيرة إيطالية جديدة أو وجبة مكسيكية أو أسلوبًا صينيًا جديدًا فى التأمل ..

لقد تغلغلت الثقافة الأمريكية فى خلايانا وخلايا شبابنا بلا شك .. والمشكلة أن المقابل الفكرى المتمثل فى الاتحاد السوفييتى لم يعد موجودًا .. كانت هناك سماء وأرض ، وكان هناك أبيض وأسود ، وكان هناك ماء ونار .. اليوم لم يعد لدينا إلا الأرض والأسود والنار .. فلابد أن الناس فى روسيا الآن يحاولون تحويل الرطل والقدم إلى الكيلوجرام والمتر ، أو يبحثون عن زيتون لشراب المارتينى !



الكابوس الأمريكى

كلما رأيت تداعى الأحوال فى مصر ، وذلك الشرخ الذى يتسع ويتسع فى الجدار منذرًا بالويل ، فكرت فى أنانيتى الخاصة عندما لم أفكر فى الهجرة للولايات المتحدة من أجل أولادى .. لقد عانى (كونتا كينتى) جد (أليكس هيلى) الكثير عندما تم اختطافه من سواحل غانا وحُمل فى قاع سفينة إلى العالم الجديد ، لكننا لو فكرنا تفكيرًا جانبيًّا لوجدنا أنه كان يكافح كى ينعم أحفاده اليوم باستعمال الألفاظ البذيئة وشرب الكولا ورقص الراب فى بروكلين .. يكفى أن أحد أحفاده صار هو الكاتب العظيم (أليكس هيلى) ..

لى صديق فعلها فى هذه السن المتأخرة نسبيًّا .. السن التى لا تسمح لك بأن تغسل الصحون أو تقف فى محطة وقود ، بينما تقضى الليل منكبًّا على دراسة الطب .. لكنى فى النهاية أجد أننى بالفعل لا أحب نمط الحياة الأمريكى ولا أطيقه .. حياة رُسمت سلفًا بكل مراحلها وسوف تتحرك فيها كأنك قطار يتحرك على خط حديدى .. صحيح أنك فى مصر قطار آخر يتحرك بجرار تالف على خط حديدى متآكل ، لكن الحياة هنا فى مصر ذات طعم ولون ورائحة ..الكثير منها فى الواقع ..

لو أننى ولدت فى نيويورك وكنت ذكرًا بروتستنتيًّا أبيض WASP فإن حياتى مرسومة عبر محطات معروفة صرت أحفظها من قراءة المجلات الأمريكية ومشاهدة أفلامهم ..

عالم المراهقة : هذا هو عالم المدرسة الثانوية وقلة الأدب والتطاول على المعلمين لأن التعليم ممل Boring .. مشكلتى هى البلطجى (هانك) الذى يتربص بى لأننى نحيل وبنظارة وهناك نمش على وجهى ، وهو يتعمد إهانتى وسكب اللبن على رأسى ساعة الطعام ، ولا أحد يتعاطف معى فى مجتمع لا يرحم المهزومين سواء كانوا هنودًا حمرًا أو عربًا أو زملاءك فى الصف ، ثم يأتى موعد الحفل الراقص السنوى وانتخاب الـ Prom queen أو ملكة الحفل .. كيف أقنع فتاة بأن تصحبنى للحفل ؟.. كيف يرضى أبى بالتخلى عن السيارة ؟.. بعد حفل كهذا سوف تفقد حسناء الصف (كارول آن) عذريتها ، وهى ليست مشكلة ؛ لأن أباها كان سيصحبها للطبيب النفسى لو تأخر الأمر أكثر من هذا ، ولربما ظهرت فى إحدى حلقات (أوبرا) لمناقشة مشكلتها ..

البيزبول لعبة مملة يستحيل فهمها .. ملعب يشبه الماسة وشخص يضرب الكرة بمضرب يستعملونه لقتل الزوجات كذلك ، وهناك ثور يلبس درعًا على صدره يتلقفها بقفاز .. ثم يصرخ الجميع : « اركضوا يا فتيان ! » ونحرز نقاطًا لا أدرى على أى شىء ، لكن البيزبول هو الطريقة الوحيدة لقبولك فى مجتمع كهذا ، وكى تحبك الكتاكيت Chicks .. هناك كرة القدم الأمريكية العجيبة التى تلبس فيها الدروع وتضرب عددًا من الثيران ، ولا تلمس قدمك الكرة مرة واحدة .. بينما المدرب (رالف) يصرخ فى وحشية : سوف نسحقهم يا شباب !

كلها ألعاب معقدة تختلف عما يلعبه العالم كله ، وكلها تحتاج إلى إمكانيات وثراء .

الكلية : تقريبًا نفس روتين المدرسة الثانوية .. أضف لهذا الحفلات الصاخبة التى يشرب فيها الجميع البيرة Booze وتتعرى الفتيات تمامًا .. هذه هى الفترة

التى سأجرب فيها المخدرات لأول مرة .. سأكون محظوظًا لو شاركت فى احتفالات (ماردى جرا) التى تذكرك بأعياد (باخوس) الرومانية الماجنة ..

بعد التخرج : أنا أعمل فى شركة تنفيذية ما تمارس المنافسة قاطعة الرقاب مع شركات أخرى .. القميص قصير الكمين وربطة العنق والعروض على جهاز الكمبيوتر .. مغازلة زميلة العمل عند براد الماء .. العمل من التاسعة للخامسة والخوف المزمن من الطرد والجوع .. لو طردت سأقوم بتعبئة لوازمى فى علبة كبيرة من الورق المقوى وأخرج من الباب يرافقنى رجل الأمن ... ولسوف أصير سكيرًا ...

الأسرة : حفل الزفاف والسيارة التى ربطوا بها علب طعام محفوظة فارغة تحدث قعقعة .. مشكلة زوجتى هى تقليل السعرات فى الطعام بسبب الشحوم حول الخصر .. يجب أن أقلل من ولعى بشطائر الهامبرجر والجبن .. ابنتى (سو ألين) صارت الآن مراهقة وقحة تصر على أن ترافق الفتية للمرقص وتقول لى : « داد .. أنت ابن عاهرة وسافل وحقير .. أنا أكرهك .. » تقولها وهى تهز شعرها الطويل ليغطى نصف وجهها ثم تندفع خارجة من الغرفة كنمر هائج ...

فأبتلع الإهانة .. لو صفعتها لشكتنى للشرطة وقُبض على .. لابد من الصبر حتى أحل مشكلة تعاطيها المخدرات ومشكلة الحمل فى سن الخامسة عشرة .. أذهب أنا وزوجتى لحفلات الكوكتيل حيث أقف أمام الناس لأحكى لهم عن (أظرف شىء حدث لى فى طريقى لهذا الحفل) .. و(أفضل مطعم يمكن أن تتناول فيه شطائر التونة بالبطاطا المقلية) .. ثم نعود للبيت لتطالبنى زوجتى بالطلاق بلا سبب وتبدأ فى حساب ما يناله كل منا من ممتلكاتى ..

ربما تنجب زوجتى لو لم تطلقنى طفلاً مشوهًا له أربعة أنوف وثلاث آذان وذيل .. هنا أقرأ فى الصحف عن معهد فى أوهايو متخصص فى الأطفال الذين لهم أربعة أنوف وثلاث آذان وذيل .. أذهب هناك لأقابل د. (سميث باركر) خبير الأطفال ذوى الأربعة أنوف والثلاث آذان والذيل الذى يقول لى : "أهم شىء أن نجعل طفلك لا يشعر بالاختلاف عن الآخرين .. »

هكذا يصير طفلى رسامًا وأستاذًا جامعيًا وبطلاً فى كرة القدم ، ويظهر فى حلقة من حلقات (أوبرا) حيث يبكى الجميع مع كثير من (الواو والأوه وماى جاش) ..

السياسة : سواء كنت ديمقراطيًا أو جمهوريًا فأنا مؤمن أن الفلسطينيين إرهابيون يحاولون أن يأخذوا من اليهود الطيبين أرضهم .. أؤمن بالقيم الأمريكية وطريقة حياتنا .. أؤمن بالديموكراسى وماى فيلو أمريكانز .. أدعو لهم بالنصر فى العراق الذى لا أعرف أين هو ولا مشكلته بالضبط .. ولا يعنينى شىء من هذا .. أحترم بشدة أو أتظاهر باحترام اليهود والزنوج والشواذ جنسيًا حتى لو كنت أنتمى للحزب الجمهورى .. كنت أمقت الشيوعية واليوم أمقت الإسلام .. هؤلاء القوم الذين يعبدون القمر ويذبحون الأطفال قرابين من أجل إلههم الذى يسمونه (الله) .. ويرقصون عراة فى موسم الحصاد ..

الحادث : ثم أسقط من على الجبل وأنا أمارس التزلج فيتهشم ظهرى وأصاب بالشلل ، لكنى أصر على المقاومة .. وأروح أضرب كرة البيزبول فى الحائط طيلة اليوم على سبيل التدريب .. هكذا أستعيد صحتى ،

وأكتب قصتى فى كتاب اسمه (كيف قهرت الشلل) وهو الكتاب الذى يشتريه التلفزيون فورًا ، من ثم أتمكن من شراء ذلك البيت الجميل الذى كنت احلم بشرائه فى (بالتيمور) ..

النهاية : هذه هى سن سرطان القولون .. مشكلة التقدم فى الرعاية الصحية هى أنك لا تموت بالتيفود ولا نوبة قلبية فى سن الخمسين كما كان يحدث ، بل تنتظر حتى سن الثمانين حين تقرر خلاياك أن تصاب بالجنون .. سأموت فى المستشفى ويحرقون جثتى .. ثم يقف أولادى متظاهرين بالتأثر فوق قبرى ويطوق أحدهم كتف أمه مواسيًا ويقول آخر : « وداعًا داد .. كنت عظيمًا .. »

أموت مطمئنًا لأن أولادى باقون من بعدى وسيمشون فى نفس الدرب ، ويحافظون على القيم الأمريكية .. قيم (علم النجوم اللامعة) ..

هذه هى حياتى لو نشأت فى أمريكا أو هاجرت إليها .. وإننى لأسألك بكل صدق : متى عشت ؟.. متى اختلفت ؟.. هل هذه هى الحياة التى من أجلها أغسل الأطباق ، و أدرس الطب ليلاً ، وأبحث عن فتاة أمريكية (مضروبة) تقبل الزواج منى وتمنحنى الجنسية ؟.. بصراحة عندما أقارن بين حياة (ماى فلو أمريكانز) هذه وحياتنا الحالية بما فيها من فوضى وعشوائية وفقر ومرض و(شعبان عبد الرحيم) فإن شعبان يكسب بالتأكيد ..!

إذن هو الدلاى لاما ..

مصر بلد جميل ذو تاريخ عريق ، وقد حباها الله بشمس دافئة طيلة العام ، مع هواء عليل ومناظر خلابة ، لهذا يقصدها السياح من أرجاء الأرض لينعموا برؤية آثارها العظيمة التى تنطق بعظمة التاريخ ، وينعموا بالسباحة فى مياهها الجميلة أو يمارسوا رياضة الغطس فى البحر الأحمر حيث الشعاب المرجانية رائعة الجمال . وقد قال مصطفى كامل : لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا ، لهذا يبكى السياح لأنهم ليسوا مصريين ، ويحقدون على مصر كثيرًا . ولقد عاشت فى مصر شعوب كثيرة شربت من مائها وامتزجت بحضارتها ، لهذا نقول بحق أن مصر أم الدنيا ، و ...

أراك تتساءل : هل جن الرجل ؟.. ما هذا الكلام الذى يكتبه ؟ . أقول لك إننى لم أجن لكنى اكتسبت الحكمة فجأة ، وقد تعلمت الكثير من رأس الذئب الطائر لو افترضنا جدلاً أن إبراهيم عيسى ذئب . لقد قررت أن أكتب كلامًا يحقق لى المعادلة الصعبة : ألا أسجن أو أثير غضب أحد ممن نستعيذ بالله من غضبهم ، وفى الوقت نفسه يحفظ لى مكانى فى جريدة الدستور . الحقيقة أن هناك حلولاً أسهل مثل أن أتفرغ للكتابة فى مجلة (ميكى) ، لكنهم لا ينشرون صورة الكاتب هناك ، وهذا سيقلل من مكانتى فى البيت كما تعلم .

بحثت كثيرًا جدًا عن قضية لا تثير حفيظة أولى الأمر .. مستحيل .. كل شيء زفت وهباب ولابد أن يغريك بإبداء الغضب فالتورط فى كلام يودى فى ستين داهية .. يبدو أن العرب الذين كانوا يكتبون فى وصف الأطلال والناقة كانوا يفعلون هذا كى لا يسجنهم سادة القبيلة لو تكلموا

عن شىء آخر . لو تكلمت عن إسرائيل كالعادة فأنا أقع فى عش الدبابير ، خاصة أننى سأكتب وأنا أغلى تحت تأثير مقال الأستاذ هويدى الذى كشف عن قيامنا بتصدير الغاز الطبيعى النادر لإسرائيل بملاليم ، مع الالتزام بالتصدير حتى بعد نفاده عندنا .. يعنى لن يكون عندنا غاز لكننا سنشترى غازًا بسعر باهظ نصدره لها بملاليم ، والأدهى أن دولة مثل أسبانيا ستأخذ الغاز منا بذات السعر الرخيص لتبيعه بسعر السوق .. ليه كده ؟.. هل إسرائيل تبتزنا بشىء ما ؟.. هل معها (النيجاتيف) على رأى استيفان روستى ؟.. لماذا تبيعون حق ابنى فى الحياة ؟.. أنا متنازل عن حقى لكن ماذا عنه هو ؟ لماذا تصرون على ذبح الدجاجة وسرقة كل مسمار فى السفينة ؟.. لماذا لا تبقونها طافية ؟.. محمد على أراد حلب مصر لكنه قرر أن يسمنها ويحسن تغذيتها جيدًا أولاً .. فلماذا لا تتعلمون منه ؟

هل أتكلم عن الرغيف وأزمته و الرجل النحيل البائس ممزق الثياب الذى رأيته يركض فى الشارع وهو يحتضن عشرة أرغفة فاز بها من الطابور ، حتى ليوشك على البكاء ، فقط لينقض عليه صبى على دراجة ليخطف منه رغيفين ؟.. هل هى المجاعة إذن ؟.. هل نحن مقبلون على ذلك العصر الرهيب الذى قرأنا عنه (أكل حمار الوالى ثم أكل جثة اللص الذى أكل حمار الوالى) ؟

هل تتكلم عن البطالة ؟.. عن المستقبل ؟.. عن أزمة التعليم ؟.. عن المرور ؟.. عن ؟.. عن ..؟..

هل تتكلم عن انتخابات المحليات ؟.. أنت تعرف جيدًا أنك لم تعد تتابع حرفًا من هذه الأمور منذ 73 سنة . ربما تتكلم عن كرة القدم وتشتم فى الحضرى قليلاً ، لكن هذا مجال خطر .. قد تدوس على لغم لا تعرف أنه لغم .

هل أتكلم عن قصة حب شبابى الفاشلة ؟.. محاسن التى تخلت عنى بعد ما تقدم لها مهراجا يملك طائرة بوينج وعدة جزر وقدم لها ماسة الكوهينور على سبيل الشبكة ؟.. بدا لى الأمر رقيعًا ، خاصة وأنا لا أكف عن ابتلاع أقراص علاج ضغط الدم ولا توجد ثلاث شعرات سوداء متجاورة فى رأسى ..حب إيه وزفت إيه ؟.. دعك من أن المقال قد يقع فى يد أم العيال ، وهذا يجعلنى فى موقف لا يقل خطورة عن غضب الكبار على .. على الأقل غضب الكبار معناه أن أموت مناضلاً ، أما غضب أم العيال فمعناه أن أموت نذلاً منكرًا للنعمة .

وجدتها ..!.. الحل العبقرى الوحيد هو أن أكتب عن مشكلة الدلاى لاما .. سوف اكتب عن الصين المفترية التى تمنع هذا الزعيم الروحى البوذى من العودة إلى التبت حيث ينتظره المؤمنون . أمريكا قلقة وتطالب بتفسيرات من الصين .. جميل جدًا .. هكذا أنا عرفت اتجاه الريح وأين أكون آمنًا .. سوف أشتم فى الصين للصبح . سوف أتضامن مع سكان التبت وأسود الصفحات من أجلهم . لم لا ؟.. لماذا نتوقع أن يتعاطف العالم معنا ولا نتعاطف مع العالم ؟.. أليس هذا أقرب للتحضر ؟

قلت لصديقى إننى سأحلق شعرى زيرو وأحمل كيسًا خيشيًا للشحاذة وأخرج حافى القدمين إلى الشارع كما رأيت الناشطين الأوروبيين يفعلون فى التلفزيون . قال لى إن هذا ليس عملاً عاقلاً لأن رجال الأمن سيعتبروننى مجنونًا أو شيئًا آخر لا أستطيع كتابته هنا ، ولسوف يعتنون بى فعلاً . بتحب الدلاى لاما يا روح أمك ؟.. طيب تعال !.. هكذا عدلت عن هذه الفكرة وقررت أن أكتب مطالبًا الصين بأن تعيد الدلاى لاما

للتبت وأن تسمح بالحرية الدينية لسكان هذا البلد . حتى أننى بدأت تأليف أغنية جديدة لشعبان عبد الرحيم تناسب طريقته فى مواكبة الأحداث كأنه نشرة التاسعة :

فيه ناس كتيرة ياما ..خلاص حتتنقط

ما تسيبوا الدلاى لاما..يرجع للتبت ..

حقًا هى ليست أغنية جيدة لكنها تؤدى الغرض ، وأرجو ألا يتجاهلها شعبان كما تجاهل رائعتى السابقة (قتلوا بناظير بوتو .. كل الحلوين بيموتوا ..) ..

نعم .. صدقنى .. بعد الحكم الصادر ضد إبراهيم عيسى وزكيبة القضايا التى تنتظره ، لم أعد طفلاً .. كنت بحاجة لهذا الدرس كى أعرف طريقى وكى أعرف عن أى شيء أكتب بالضبط . كنت أعتقد أننى ذكى بما يكفى وأننى يمكن أن أقتدى بالكاتب الشهير (.....) والكاتب الشهير (.....) الذين يكتبون بطريقة (الحكومة سيئة وتضيع كل جهود مبارك للإصلاح) ، وهى طريقة خبيثة ناجحة تضمن لك رضا الجميع ، وتحفظ لك لدى رجل الشارع بصورة المناضل الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم . هذه مدرسة تختلف تماما عن مدرسة عيسى وقنديل التى نعرفها حيث لا سقف من أى نوع ، لكن من الواضح أن سقف الحرية يهبط يومًا بعد يوم ، وأن هذه المدرسة الخبيثة نفسها خطرة ..

إذن هو الدلاى لاما حتى إشعار آخر ..

عبقرية النفاق

عندما قلت فى الأسبوع الماضى إننى قررت التفرغ للكتابة عن الدلاى لاما وحكومة الصين ، منعًا لانزلاق قدمى فى قول كلام يغضب الكبار ، كتب لى أحد القراء : « هناك حل ثالث وهو أن تنافق .. الأمر سهل .. »

فعلاً لم يخطر هذا ببالى من قبل لكن الفكرة بدت جديرة بالتأمل . النفاق ليس عملاً سهلاً أو هينًا بل هو يحتاج إلى أكبر قدر ممكن من التحكم فى العواطف وفى تعبيرات الوجه وانتقاء الكلمات . عندما يجلس الرجل مع امرأة يمقتها ويشمئز منها ، فإن خروج أبسط كلمة مجاملة تغدو كالولادة المتعسرة .. الكلمات لها ثقل الحجارة ووعورتها . فقط يجتاز هذا الاختبار الرجال الموهوبون الذين يستحقون لقب جيجولو أو Womanizer كما يقول الغربيون .. هذا رجل استطاع أن يتحكم فى لسانه وملامح وجهه كى يخرج الكلمة الثقيلة . بعض هؤلاء العباقرة ينجح فى برمجة عواطفه كذلك بحيث يعتقد صادقًا أنه يحب هذه المرأة .. باختصار : النفاق ليس لعبة للهواة ، ومن يحسن النفاق يستحق المكافأة التى سينالها من حظوة ونفوذ وثراء ..

رأيت منذ أيام على إحدى الفضائيات مناظرة ثلاثية على الهواء بين أحد قيادات الأخوان وأحد رؤساء التحرير الحكوميين وسيدة حقوقية أوروبية ، وكان الكلام عن المعجزة التى جعلت عشرة آلاف مرشح أخوانى للمحليات يذوبون فلا يبقى منهم إلا بضعة عشرات ، سوف يذوبون بدورهم فلا يبقى منهم أحد . كانت تهمة (تزوير الانتخابات قبل أن تبدأ) قوية وكلام السيدة منطقيًا ومرتبًا . هنا وضعت يدى على قلبى

تعاطفًا مع رئيس التحرير الذى يواجه سيل الاتهامات هذا ، خاصة وقد انضم المذيع نفسه لمن يتهمون الحكومة المصرية بالقمع والتزوير . ماذا سيقول ؟.. هذا رجل يعتمد مستقبله ونفوذه وثراء أولاده وفيلا الساحل الشمالى وزفاف البنت فى أكبر فنادق القاهرة على الكلمات التى سيقولها حالاً ..

لكن الرجل بدأ يتكلم .. قال إن هذا دليل على أن الأحزاب المصرية ـ باستثناء الحزب الوطنى ـ لم تستطع تربية كوادر صالحة لخوض التجربة ، ولم تستطع خوض عملية الانتخاب الطبيعى الداروينى فالموت للفاشلين .. إلخ . لم يكن مقتنعًا .. كانت عيناه تنطقان بعدم التصديق ، ومن الواضح أنه غير سعيد بما يقول ، والأسوأ أنه الرجل الذى يأتون به دومًا للدفاع عن الحكومة فى أى شىء تفعله .. وضع عصا فى مؤخرة المعتقلين .. تعرية الصحفيات .. تزوير الانتخابات .. تصدير الغاز لإسرائيل .. إلخ .. هو دائمًا هناك ليرد وليبدى إعجابه بحكمة الحكومة وغباء المعارضين وقلة أدبهم .

لا شك فى أنه تنفس الصعداء عندما انتهى البرنامج وتخلص من هؤلاء المزعجين الثلاثة ، لكنى أسألك بصراحة : هل تستطيع أن تحل محله ؟.. هل يمكنك أن تدافع بهذه الكفاءة عن شىء لا تؤمن به ؟.. أنت لا تستطيع .. هو استطاع ولهذا استحق أن يظفر بكل ما ظفر به .. ربما أوصلته العبقرية فيما بعد إلى أن يقنع نفسه بأنه يحب الحكومة فعلاً ، لكن عينيه كما قلت لك كانتا تشيان بأنه لا يصدق حرفًا مما يقول .. إنه ما زال فى مرحلة مغالبة النفس قبل أن يصل إلى حالة السلام النهائى أو النيرفانا ، وعندها يحب الأخ الأكبر على رأى الخواجة أورويل ..

هناك خبر قرأته منذ أعوام ولست متأكدًا من صحته بصراحة عن مذيع نيجيرى كان يقدم نشرة الأخبار ، وفجأة تصلب وصمت .. ثم قال للمشاهدين : « معذرة .. لا أستطيع المضى فى قراءة هذه الأكاذيب .. » هذا الخبر لو صح حدث فى نيجيريا ، أى أنه يحدث فى بلد أفريقى متخلف لا يتمتع بوجود هؤلاء العباقرة الموهوبين ...

كنت أقرأ ما يكتبه بعض رؤساء التحرير الحكوميين فى صفحة جريدة كاملة لابد أنها تلتهم ثلاثة أو أربعة آلاف كلمة بلا مبالغة .. كلام لا أول له ولا آخر ولا رأس ولا ذيل .. أسأل نفسى عن الموهبة الخارقة فوق البشرية التى أوتيها هؤلاء لكتابة كل هذا الهراء .. الأمر قد تجاوز مجال الأحكام الأخلاقية إلى مجال الانبهار بقدرات بشرية خارقة ، مثل ذلك الساحر من جزر الكاريبى الذى رأيته يلتهم عشرين ضفدعة حية دون أن يموت أو يقيء .. ألا يستحق هذا المجهود مالاً ونفوذًا ؟

أحيانًا يكون دافع النفاق هو الخوف .. منذ أعوام قبل غزو العراق رأيت مناظرة على شاشة الجزيرة بين دبلوماسى كويتى هادئ الأعصاب قوى الحجة ، ورئيس تحرير جريدة عراقية متوتر عصبى .. الموضوع كان عن احتلال الكويت ، وقد كان العراقى يعرف أنه يدافع عن قضية باطلة أصلاً ، لكنه كان يدافع عن حياته أولاً .. وتساءلت عما كان سيقوله لو كانت الحلقة تذاع من بلد غير العراق .. أعتقد أنه كان سيقول ما يقوله الكويتى بالضبط ..

يذكر التاريخ للشاعر ابن هانى الأندلسى بيتين مدح بهما الخليفة الفاطمى المعز لدين الله قائلاً :

ما شئت لا ماشاءت الاقدار .... فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبى محمـــد .... وكأنما أنصارك الأنصار !!

قيل إن هذين البيتين كانا شؤمًا أدى لسقوط دولة المسلمين فى الأندلس ، لكن لا تنكر أن الرجل ضحى بالكثير جدًا .. لقد قبل أن يستحق الاحتقار طيلة حياته ، وأن يظل دارسو الأدب العربى يلعنونه ، وأن يصير اسمه نموذجًا للنفاق للأبد ، خاصة والشعر لا يموت وسيظل يطاردك حتى يوم القيامة . وأعتقد أنه نال الكثير مقابل هذين البيتين .. هذا رجل قبل أن يصير غريبًا وسط أهله وقومه وأن ينعزل وأن يعتبره عامة الناس كلبًا ، وأن يربطوا بين صورته وصورة فتاة الليل المستندة على عامود نور وبين شفتيها المصبوغتين سيجارة .. قبل الرجل هذا كله فهل ترضون له أن يبيع نفسه مقابل لا شىء ؟ . عم أحمد فؤاد نجم يقول : "نبدأ كلامنا عن الأشعار واللى زانوها .. بيرم وخيرى وكل الناس اللى صانوها . أما الكلاب عند الجواسيس واللى خانوها .. فدول كلاب وما يتذكروش هنا بالمرة .. الله الله يا بدوى جاب اليسرى » . قد تلصق بعم نجم تهمًا كثيرة لكن تهمة النفاق لن تكون بالتأكيد من بينها .

نعم .. للنفاق ناسه وقومه الموهوبون القادرون على أن يكونوا مكروهين . ليس لعبة للهواة ولا يمكن تعلمه فى سن متأخرة .. لهذا لا يبقى أمامى سوى المجال الذى أعتقد أننى يمكن أن أبرع فيه : لماذا لا تسمح الصين للدلاى لاما بالعودة للتبت ؟.. ولماذا لا تسحب جيوشها من هذا البلد الصغير التعس ؟.. سؤال وجيه جدًا ارجو أن أتلقى عنه ردًا أكثر وجاهة ..

عن إيرفنج ودرشوفتز وآخرين

لو أنك كنت مواطنًا إسرائيليًا لبدت لك الحياة مجموعة من المفاجآت السارة : مع كل صباح هناك من يحج إلى إسرائيل ليقدم فروض الطاعة ويعدهم بالحماية .. ربما إلى درجة البكاء .. هاهو ذا ماكين المرشح الجمهورى للرياسة يقصد إسرائيل ليبكى عند حائط المبكى ، ثم يزور الأردن ليعلن وهو هناك أنه سيجعل القدس عاصمة أبدية لإسرائيل .. قالها فى الأردن ولم يقلها فى إسرائيل ، ولسبب ما لم يضربه أحد بالجزمة . ميركل الألمانية تزور إسرائيل لتعتذر للمرة المليون عما فعله هتلر وتؤكد أنها خادمة إسرائيل للأبد . كل هذا التدليل وبرغم ذلك تجد ثلاثة أعضاء فى الكنيسست لا يعجبهم العجب .. يقول أحدهم فى تعصب : نحن لا نريد من ألمانيا سوى الغواصات والسلاح .. لكن ليس لها أن تأمل فى أى تطبيع ثقافى من أى نوع لأننا لن ننسى ما فعلوه بنا .. ثم كيف تجرؤ هذه المرأة على استعمال اللغة الألمانية الكريهة فى مكان مقدس كالكنيسست ؟!!

اليوم نتحدث عن رجلين أكاديميين غربيين كرس كل منهما قلمه وعلمه للدفاع عن قضية : الأول كرس حياته لكى يثبت أن إسرائيل دولة سفاحين تتلاعب بذكريات الهولوكوست الغامضة كى تبتز العالم وبالتالى هو يسبح عكس التيار تمامًا . الثانى يتبنى عكس هذا الرأى ويغنى مع السرب..

الرجل الأول هو المؤرخ البريطانى ديفيد ارفينج الذى فتح فمه وقال إن الإمبراطور عار تمامًا .. إنه عالم مهم لكن سمعته (زى الزفت) فى العالم الغربى وتهمته يشيب لها الولدان وهى (إنكار المحرقة) ، وهى تهمة تفوق الكفر بمراحل وتعنى أنك معاد للسامية ونازى .

مشكلة الرجل هى أنه منذ كتابه الأول (قصف درسدن) أبدى ميلاً واضحًا إلى تبرئة النازيين من معظم ما لصق بهم من تهم ، وألقى بالكثير من الجرائم على عاتق الحلفاء وخاصة تشرشل الذى اتهمه بأنه عنصرى قاس كذوب . لهذا لم يكن هجومه على إسرائيل مفيدًا لنا إلى هذا الحد لأنه صنف ضمن الفكر النازى الجديد .

أدرج الرجل ضمن قائمة ليست طويلة جدًا من منكرى الهولوكوست ومنهم جارودى وروبير فوريسون وإرنست زوندل الذى قال إرفينج إن كتاباته جعلته يقتنع بعدم حدوث الهولوكوست .. كل التحاليل الكيميائية لم تثبت وجود غاز (زيكلون) فى الأماكن التى يزعم اليهود أنها كانت أفران غاز .. كيف يُباد ستة ملايين يهودى وبرغم هذا ما زالت أعداد الناجين من المحرقة تتزايد كل يوم ؟ « لماذا ينقل النازيون اليهود من أمستردام وبروكسل إلى معتقل (أوشفيتز) الذى يبعد خمسمائة كيلومتر لمجرد حرقهم ، بينما كان يمكن عمل هذا خارج المدن التى أسروهم فيها ؟ » ويقول كذلك : « معسكر (أوشفيتز) كان مجرد معسكر عمل له ظروف سيئة ، وقد مات الكثيرون فيه كما مات سواهم طيلة سنوات الحرب» .

عندما اتهمه الكتاب الغربيون بأنه ينكر الهولوكوست استشاط غضبًا ، وقال : أنا لا أنكر الهولوكوست لسبب بسيط هو أنه لا يوجد شىء اسمه الهولوكوست أصلاً !

ألقى تلك المحاضرات النارية فى النمسا هكذا صدرت أوامر اعتقال ضده . فى تلك السنوات كان إرفنج قد صار الرجل غير المرغوب فيه رقم واحد لدى حشد من الدول ، وصار من المألوف أن تصدر الصحف وعليها صورته أثناء طرده من دولة تلو أخرى . وصدر فى فرنسا أمر

باستدعائه للمحاكمة طبقًا لقانون جيسو الذى يسمح لك بأن تشكك فى وجود الله وتنتقد المسيح لكن لا تشكك فى الهولوكوست ، لكن الرجل بالطبع لم يذهب لفرنسا . وسط هذا كله كان يواجه سيلاً من القضايا المرفوعة ضده حتى أنه أشهر إفلاسه عام 2002 .. لقد حارب الرجل كثيرًا من أجل ما يؤمن به . كانت نهاية فراره هى النمسا عام 2005 حيث تم اعتقاله ومحاكمته خلال أربعة أيام ، وقد وجد الرجل نفسه مضطرًا للاعتذار وسحب كلامه وإبداء الندم الشديد : "الآن أعرف أن النازيين أحرقوا ملايين اليهود .. كنت مخطئًا عندما قلت إنه لا توجد غرف غاز .. أنا آسف يا حضرات .. »

لكن المحكمة رأت أن ندمه غير أصيل وغير صادق .. ووصفه القاضى بعبارة قلما نسمعها فى المحاكمات : « إنه مثل عاهرة لم تغير أساليبها .. إن إرفنج مزيف للتاريخ وليس مؤرخًا لأنه يعتبر أنه لم تكن هناك محرقة ولا غرف غاز .. » هكذا صدر الحكم عليه بالسجن وقد أدهشه هذا لأنه كان واثقًا من البراءة كما قال وحجز تذكرة طائرة للندن . وقد عاد إلى آرائه القديمة بمجرد أن عرف أن الإنكار لا يجدي . لقد ربحت الرقابة فى العالم الغربى وأخرس مفكر جرؤ على إعلان رأيه .. كتب البعض على استحياء عن حرية القول التى تمت مصادرتها فى مجتمع ديمقراطى ، لكن الجميع تنهد فى ارتياح لأن هذا المزعج قد خرس قليلاً .

والآن أقدم لكم بكل فخر وغدًا أمريكيًا اسمه (آلان درشوفتز) .. هو محام شهير تخصص فى القضايا سيئة السمعة ، وأستاذ تاريخ فى هارفارد ، وله مظهر وديع مضحك يذكرك بالممثل الكوميدى (وودى آلن) . هذا الرجل متخصص فى الدفاع عن إسرائيل مهما فعلت وبشكل لا يمكن

تصديقه .. كلما قامت إسرائيل بمذبحة ما كتب أنها تقف فى مقدمة عشر دول تعنى بحقوق الإنسان فى العالم . « بأية معايير تظل إسرائيل صاحبة أنقى سجل حقوق إنسان وسط دول الشرق الأوسط .. » للأسف نحن نعرف أن هذه الجملة على الأقل صحيحة ..

لقد أصابته الانتفاضة بإسهال مقالات (والتعبير ليس من عندى بل هو لكاتب أمريكى) يدافع فيها محمومًا عن إسرائيل ، ويلومها على شىء واحد هو رقتها الزائدة مع الفلسطينيين .

عندما كتب أساتذة هارفارد عريضة تطالب بمنع تصدير السلاح لإسرائيل سخر منهم بقسوة وهدد بمقاضاة كل من يوقع على هذه القائمة . وهو صاحب المقال الشهير فى واشنجتون بوست الذى يطالب فيه إسرائيل بأن تدمر قرية فلسطينية مقابل أول خرق لوقف إطلاق النار . برغم كل شىء أثار هذا الاقتراح غضب الأمريكيين وكتب أحدهم : « تدمير بيوت الأقارب الأبرياء لانتحارى .. هذا كلام يحرمه القانون الدولى .. لا فارق بين هذه السياسة وتدمير النازيين لبلدة (ليديس) الذى يدينه مستر درشوفتز .. هو فقط يقبل هذا عندما يتعلق الأمر باليهود ! » . لكنه على كل حال أكثر رقة من كاتب آخر اسمه (ناتان ليون) طالب بإعدام كل أقارب منفذ أية عملية استشهادية !

كتب درشوفتز يؤيد بشدة قتل إسرائيل للمدنيين اللبنانيين فى حرب 2006 ، وكالعادة راح يعبث بتعريف كلمة (مدنى) قائلاً إنها لفظة لا معنى لها مع الحروب الحديثة . نحتاج إلى لفظة جديدة تعرف المدنيين فى عصر يختلط فيه هؤلاء بالإرهابيين .

من المعروف فى الغرب أن درشوفتز يؤيد تعذيب الفلسطينيين بشدة ، وله نظرية خاصة اسمها (القنبلة التى تتكتك) لانتزاع الاعترافات . ويقولون إنه ليس ضد الإرهاب .. هو ضد الإرهاب الذى يمارس ضد اليهود واليهود فقط .. وبالذات فى إسرائيل .

كتب جيمى كارتر عام 2006 كتابه الشهير (فلسطين : سلام وليس تفرقة عنصرية) الذى أدان فيه إسرائيل بشدة وعبارات واضحة ، حتى أنهم اتهموه بأن كتابه منسوخ من المواقع الأصولية الإسلامية . قال كارتر إنه كتب كتابه ليوضح حقائق لا يفهمها الأمريكان ، حيث يتنافس طرفان على ذات الأرض لكن أحدهما يملك قوة عسكرية ساحقة . "ما من أحد فى أمريكا مستعد لسماع وجهة نظر أخرى .. لا يوجد جدل حول أى شىء قد يحرج إسرائيل ... »

طبعًا خرج درشوفتز يتحدى كارتر لمناظرة علنية ليخرسه ، لكن كارتر رفض فى إصرار لأنه غير مستعد للمناظرة مع شخص يجهل كل شىء عن الوضع فى الشرق الأوسط .

إن هذه الأصوات المعارضة موجودة ومنها القس جيسى جاكسون الذى قال إن الفلسطينيين صاروا زنوج الشرق الأوسط ، ومنهم تشومسكى العظيم ، لكن تظل هذه الأصوات خافتة جدًا عاجزة عن التأثير .. دعك من رأس الذئب الطائر المتمثل فى أمثال إرفنج الذى يستمتع الآن بالسجن ثلاث سنوات .. ترى كم من أساتذة العالم الغربى يقبلون أن يشاركوه أكل العيش والحلاوة النساوية فى لومان فينا ؟

العميل رقم واحد

هناك سيناريو لقصة ستريبس قمت بكتابتها منذ أربعة أعوام ولم أجد من يرسمها . القصة تصور أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى يجلسان أمام خلفية من جبال أفغانستان الوعرة ويلقيان بيانًا ناريًا من تلك البيانات .. بعد انتهاء التصوير تتراجع اللقطة لنجد أن الجبال صورة جدارية عملاقة وأن التصوير يتم فى هوليوود ، ونرى مخرجًا أمريكيًا يثنى على الأداء ، بينما مدير المخابرات المركزية يهنئ الرجلين باعتبارهما أكفأ ضابطى مخابرات لديه على الإطلاق !..

لم أر بعد ما ينفى هذه الصورة أو يضعفها فى ذهنى ، برغم أنها تثير غضب كثيرين وربما جنونهم والدليل أننى لم أجد رسامًا يقبل رسمها .

فى كل يوم تتأكد هذه الصورة عندى أكثر ، خاصة عندما رأيت فى الأسبوع الماضى صورة الزهرات الكوريات المذعورات يجلسن مرتجفات بينما يحاصرهن رجال طالبان بالبنادق الآلية .. هذا هو الإسلام لا كما قدمه المسلمون الأوائل ولكن كما يقدمه ابن لادن وتلاميذه . ترويع آمنين عذل ومهاجمة نساء .. اليوم هو الجمعة ، فلا أعرف إن كان يوم الثلاثاء القادم سيرى هؤلاء الفتيات وهن حيات ، وإن كان هناك جو عام من التفاؤل الحذر لأن كبار رجال القبائل تدخلوا فى الوساطة ، والقبلية هى أهم شىء فى عالمنا كما تعرف.

قال المتحدث باسم طالبان إن هؤلاء مبشرات مسيحيات .. مبشرات إيه بس ؟.. هؤلاء القوم أقرب لديانات البوذية والشنتو والشامانية ، والمسيحى

منهم يحتاج إلى مبشر يعلمه أصلاً .. ثم لماذا تقتل مبشرًا ؟.. لماذا لا تحاربه بسلاحه وتكون أقوى منه فكرًا ؟.. من المعروف أن من يطلق الرصاصة الأولى هو الطرف الأضعف منطقًا ، فهل أنت كذلك ؟..

مسافة طويلة قطعها المجاهدون الأفغان منذ كانوا يطردون الاحتلال السوفييتى من بلادهم حتى بلغوا مرحلة حصار الفتيات الباكيات بتهديد السلاح . صحيح أن طرد السوفييت تم بسلاح أمريكى وبتدريب كامل من المخابرات المركزية ، وعلى سبيل المقلب الذى أعده برجينسكى للسوفييت ، لكنه كان جهادًا بالمعنى الدقيق للجهاد ولا أحد ينكر هذا ..

والآن تخيل معى أنك مواطن بريطانى مسالم لا علاقة له بتونى بلير ولا محافظى الولايات المتحدة المجانين عشاق الدماء .. تصحو يومًا لتجد أن طائرتين دخلتا فى مركز التجارة العالمى بمن فيهما من ركاب أبرياء (كم من أم كانت ابنتها الطفلة تنام على حجرها فى ساعات الصباح الأولى تلك) وهذا تحت راية الإسلام ، وتفاجأ بأن العالم الإسلامى يهلل فرحًا وأن المظاهرات تملأ باكستان تشيد بابن لادن تحت شعار (هذا بطلنا) ، ثم تصحو ذات يوم لتجد رجلاً ضعيفًا مقيدًا يرتجف بينما يقف خلفه خمسة أكشاك ملثمة يتلو أحدهم بيانًا طويلاً ، ثم يصرخ : (الله أكبر) وينقض بسكين ليذبح الرجل فى مشهد طويل بطىء يحطم الأعصاب ، ويقطعون رقبته ليضعوها على صدره . تصحو يومًا على رجل ملتح حاول أن يفجر طائرة أمريكية مدنية بمتفجرات فى حذائه .. تصحو على انفجارات فى مترو أنفاق لندن .. على انفجارات فى منتجع أندونيسى .. كل هذا تحت شعار نصرة الإسلام بينما تدوى صيحة (الله أكبر) ..

الصيحة التى فتح بها المسلمون العالم فى الماضى صارت تُستعمل فى أمور غريبة بعض الشىء .. ثم تأتى الطامة الكبرى وأنت ترى الزهرات الكوريات يبكين أمام الكاميرا ، وقد لبسن مثل النساء الأفغانيات ، وهن يعرفن أن بعض زملائهن قد قتلوا فعلاً .

أنت تعرف أن حكومتك البريطانية ترتكب الفظائع .. ترى صور (أبو غريب) .. ترى الأطفال المحترقين فى فلسطين والعراق .. أنت تشارك فى مظاهرات عديدة تتهم فيها (بوش) بأنه مجرم حرب وتطالب بمحاكمته ، لكنك تتساءل كذلك عن ذنب الذين ماتوا فى مترو الأنفاق ، وهذا الذى ذُبح ببطء أمام الكاميرا ..

طيلة الوقت يتصايحون بأن هذا لنصرة الإسلام ، بينما لا يكف الإعلام العربى عن تكرار (هذا ليس من ديننا فى شىء) .. (الإسلام يمنع ترويع الآمنين) .. فمن تصدق ؟

هل من الغريب عليك كبريطانى أن تعتبر الإسلام خطرًا مروعًا وأن ترى أن نبوءة (أسبوزيتو) تتحقق ؟.. المجاملات موجودة فى كل مكان ، والحديث عن حوار الأديان جذاب ، لكنك عندما تدخل الإنترنت تكتشف كم الكراهية المروع الذى يضمره الغربيون للإسلام اليوم ، إلى حد أن نسبة 90٪ من رواد أحد المواقع الأمريكية يرون أنه من الواجب قصف كل البلاد الإسلامية بالسلاح النووى لتسويتها بالأرض ..

لكن هل ابن لادن هو من نفذ هجمات سبتمبر فعلاً ؟.. لن نعرف أبدًا ولكن يكفى أن مفكرًا فى حجم (هيكل) ما زال يرى أن هذا مستحيل حتى إنه شك فى أيد صربية . فى هذه الحالة يكون ابن لادن قد

اختطف الفاتورة بالاتفاق مع الأمريكان ، على طريقة فيلم فؤاد المهندس الذى كان يعترف فيه بجرائم لم يرتكبها ، فقط ليظهر شجاعًا فى عين زوجته . وبنفس المنطق صار ابن لادن بطل العالم الإسلامى ، وصارت رغباته أوامر . نحن نعرف هؤلاء القوم حين كانوا فى مصر ، ونعرف أنهم لم يقوموا بعمليات أكثر براعة من تفجير مقهى فى ميدان التحرير ، أو تفجير محطة أتوبيس فى شبرا لتموت طفلة بريئة اسمها شيماء كانت عائدة من المدرسة ، أو ذبح سياح ألمان عزل ، منهم أم احتضنت طفلتها لتحميها فذبحوا الاثنتين .. وقتها قالوا إن من فعل هذا أمن الدولة كى يستأصل الإسلاميين ، وظلت نظرية لا بأس بها إلى أن ظهر الأخ الظواهرى على شاشة الجزيرة ليؤكد أنهم من فعل هذا فعلاً (ثم توقفنا لأننا شعرنا بأن هذا قد قلب الشارع المصرى علينا) .. الطريف أن الشارع العربى ممزق بين قوله إن ابن لادن برئ ولا يستطيع تنفيذ عملية بهذا التعقيد ، وفخره بأن ابن لادن فعلها وانتقم !! أحيانًا تقرأ الرأيين فى المقال ذاته !

ما الذى يفعله الظواهرى حقًا ؟.. لا شىء على الإطلاق سوى إصدار البيانات التلفزيونية والتعليمات للمجاهدين الحقيقيين ، بينما هو لم يطلق طلقة واحدة على إسرائيل . لم أتمالك إلا أن أبتسم عندما كان حزب الله العظيم فى ذروة حربه مع إسرائيل ، عندما راح الظواهرى بوجهه الكئيب وعينيه الميتتين القاسيتين يخاطبهم مستعملاً مصطلحات شيعية الطابع مثل (التقية الاستضعاف) إلخ .. هو لا يطيقهم لكن (اللى تكسب به العب به) .. دعك من سخف ما يقول بينما المجاهدون غارقون فى الدماء والنيران فعلاً ولسان حالهم يقول : « نحن لسنا بحاجة لتعليماتك .. لو كنت تستطيع عمل شىء لمساعدتنا فافعله .. »

الأمر أخطر من هذا لأن كل ما يفعله ويقوله ابن لادن يصب فى النهاية فى مصلحة بوش ، ولن أنسى التوقيت العبقرى الذى اختاره ليلة الانتخابات الأمريكية عندما طالب الأمريكان بألا ينتخبوا بوش .. هكذا صار كيرى هو مرشح ابن لادن ، وصارت النتيجة محتومة ! . كلما شك الناس فى بوش أو عارضوه ظهر ابن لادن على الشاشات ليتهدد الأمريكان ويذكرهم بأنه موجود وخطير .. ولولا الحيطة لقال لهم : « والله لن يقدر علىَّ إلا بوش .. لو رحل لانفردت بكم وخربت بيوتكم .. »

هل كان من الممكن أن تحتل أمريكا العراق لولا أحداث سبتمبر ؟..
لا تقل لى إن الذرائع لن تنقصها من فضلك ، فنحن فى عالم يحب الشكليات والتظاهر بالتحضر ، ولو لم يقدم ابن لادن الذرائع لما استطاع بوش سوى أن يمدد الحصار . إذن مع من يعمل ابن لادن حقًا ؟..

لا نملك أجوبة .. الأجوبة سوف يعرفها ابنى بعون الله ، لكن لو فكرنا فى الأمور منطقيًا لوجدنا أن قصة الستريبس التى ذكرتها فى بداية المقال ليست بعيدة جدًا عن الحقيقة .

جونسون أم دنانة ؟

بقلم د . أحمد خالد توفيق
aktowfik@hotmail.com

يحكون هذه القصة عن (جونسون) الرئيس الأمريكى عندما كان يخوض الانتخابات ليصير حاكم تكساس ضد منافسه حسن السمعة (لى أو دانييل) . بما أن جونسون كان شخصية لا تتورع عن شىء فإنه استعمل أسلوب الحرب القذرة ضد منافسه .. طلب من سكرتيره أن ينشر فى الصحف خبرًا ينفى فيه عن منافسه أنه يضاجع الأبقار ، وأنه ضُبط وهو يمارس هذا العمل المشين ! . قال السكرتير فى ذهول :

ـ « لكن أحدًا لم يتهمه بشىء كهذا من قبل ! »

قال جونسون فى بساطة : "وهذا ما نفعله نحن !.. نحن لا نتهمه بل ننفى عنه التهمة !.. فقط أنشر التكذيب ودع الناس يتساءلون .. ودعه هو يؤكد النفى ! »

هذا ذكاء شرير لا شك فيه .. جونسون يعرف أن نفى التهمة لا يدحضها فعلاً ، وإنما سوف يتساءل الناس عن سبب ظهور هذه الإشاعة .. هل هناك ظل من الحقيقة فيها ؟.. لا دخان من دون نار .. هل يعرفون شيئًا لا نعرفه نحن ؟

هذه الطريقة يتبعها الكثيرون بالفطرة .. وهى تتم عبر مراحل ثابتة : عباس لم يختلس العهدة .. وهل هناك من اتهم (عباس) باختلاس العهدة ؟.. لم يقل أحد هذا لذا تنفيه !.. بعدها يثور الكثير من الغبار ويتساءل

الناس : يبدو والله أعلم أنهم يعرفون شيئًا عن كون (عباس) سرق العهدة .. بعد عام أو عامين تبقى ذكرى غامضة حول (عباس) الذى سرق العهدة لكنهم ينكرون ..

لهذا سررت كثيرًا لأن د. محمود جامع نفى صحة ما نشرته صحيفة شهيرة منسوبًا له من إساءات للرئيس الراحل أنور السادات وحرمه . قال فى صحيفة المصرى اليوم إن ما نشر كان دردشة عامة قبل الحوار الصحفى أساء ناشر الحوار استخدامها ، ومن بين ما كذبه ما قيل على لسانه عن استيلاء السيدة جيهان السادات على عقد ماسى قيمته ثلاثة ملايين جنيه .. وقال : « ما نشر يمثل إساءة إلىّ شخصيًا وإلى أسرة الرئيس الراحل أنور السادات » .

أنا لست مولعًا بعصر السادات على الإطلاق ، وأرى أن السادات بدأ كل شىء ما زلنا نعانى منه اليوم على نطاق أكبر ، حتى لأعتقد أن السادات ما زال يحكمنا فعلاً ، لكن هذا شىء والاتهام بالسرقة والكلام عن الأعراض وإدمان المخدرات والخمور والإقامة فى بيتين منفصلين شىء آخر .. بالفعل تمنيت أن ينكر د. جامع هذا الكلام وقد فعل لحسن الحظ مما أثلج صدرى .

دعك من أننا اعتدنا أن نعتبر الدكتور جامع أصدق أصدقاء السادات ، لذا لا نتحمل أن يصدر هذا الكلام عنه هو بالذات .. إن هذا يشرخ شيئًا عزيزًا فى نفوسنا . كلنا نختلف مع موسى صبرى لكن لا ننكر أن الرجل ظل مخلصًا للسادات حتى آخر لحظة من حياته .. حياة موسى صبرى . قد تختلف مع هيكل لكن تذكر أن الرجل ظل متوافقًا مع ماضيه ولم يتهم

عبد الناصر بالدكتاتورية أو التهور أو .. أو .. وبالطبع لم يتهمه فى ذمته المالية ، وأنت تعرف أن هيكل قادر على صياغة عباراته بذكاء واقتدار بحيث يخرج نفسه من أية مسئولية ، لكنه لم يفعل ..

كما تدين تُدان على كل حال ، فقد كنت طالبًا فى المدرسة الثانوية وبرغم هذا كانت أذناى تحمران خجلاً وغيظًا عندما أقرأ بريد القراء فى (أخبار اليوم) ، حيث يتبارى القراء فى اتهام (خالد محيى الدين) والمناضل (إبراهيم شكرى) بكل موبقة فى حياتهما الخاصة ، وكانت أسماء القراء على غرار (محمد أمين بنها) (سيد أحمد الجيزة) .. إلخ .. مما يستحيل التأكد منه . فإما أن القراء لم يعد لهم هدف فى الحياة إلا شتيمة هذين العظيمين العاجزين عن نشر الرد ، وإما أن هذه خطابات لفقها سكرتير التحرير . ثم ظهر النبوى إسماعيل أمام مجلس الشعب ليؤكد أنهم قبضوا على كتاب المعارضة وهم يتناولون البلابيع ويمارسون الشذوذ وأنزلوهم فى الشارع (بلابيص) !.. صفق المجلس كله ، وتساءلت أنا عن سبب تجمع كل هؤلاء المعارضين فى مكان واحد لممارسة الرذيلة .. هل هو عيد جنسى شبيه بـ (ماردى جرا) فى الولايات المتحدة ؟.. عيد جنسى خاص بكتاب المعارضة فقط ؟.. هذا كان يُقال ويُسمح به أيام السادات ، بل كان من وسائل التقرب من الرجل العظيم .. عندما تسمح بأن يُقال هذا عن أعدائك ، فعليك أن تتذكر أن مثل هذا سيقال عنك يومًا ..

أذكر أن رسائل بريدية إلكترونية وصلتنى منذ عامين ، تسخر سخرية بذيئة من مسئول كبير وأسرته .. تضايقت جدًا ورددت الخطاب لصاحبه مصحوبًا

بقدر لا بأس به من السباب .. قلت له : أنت بهذا تضعنى فى موقف عدائى لك على الفور ، وتقوى قضية الطـرف الآخـر .. اختلـف كمـا تشـاء مـع سياساته وقراراته وفكره لكن لا تقترب شعرة من بيته وأسرته من فضلك ..

فى نفس الفـترة القصيرة سـمعنا كلامًـا لا يختلـف كثـيرًا عـن إشـاعة جونسون إياها ، ومصدرهـا كـاتب صحفـى كبـير شـديد الذكـاء ورئيـس تحرير مؤسسة صحفية كبرى .. هذا الرجل كما قلت شديد الذكـاء وأنـا أعتبره ألمع واجهة للنظام حاليًا ، فهو يعرف ما يقول ويعـرف كيـف يبـدل الحقائق ببراعة ، وعندما تراه فى الفضائيات يبدو واثقًا هادئًا يختلف كثـيرًا عن أسماء نعرفها جيدًا تزيد الطين بلة . ها هـو ذا الرجل يطلـق كلمـات غامضة مريبة عن (جميلـة اسـماعيل) الإعلاميـة الشـجاعة الباسـلة ، التـى أوشكت أن تتحول فى أذهان المصريين إلى (إيزيس) .. حتى لو لـم تكـن (إيزيس) فأنت يا سيدى الفاضل جعلتها كذلك ، وكل من قرأ كلمـاتك تعـاطف معهـا بشـدة وكسبتُه إلى صفهـا . تصـدى لـه بشـجاعة الأسـتاذ (حمدى رزق) فى مقال ملتهب وأعتقد أن حربًا كلامية مروعـة ستنشـب فى الفترة القادمة .

طريقة التلميح البذيء ضد الإعلامية الشجاعة ذكرنى بـالوصف العبقرى لشخصية (دنانة) فى رواية د . علاء الأسوانى (شيكاغو) . (دنانة) من الشخصيات الساحرة فعلاً فى الأدب العربـى الحديـث ، وهـو فـى القصـة رئيس المبعوثين المصريين بالخارج ومخبر هاو وباحث نصاب ووغد . يصـف الأسوانى دنانة بأنه ذو طابع أنثوى لا تخطئـه العين مـن حيـث زم شـفتيه ، ووضع يده فى وسطه ، وولعه بالثرثرة والنميمة وإلقاء عبارات تحمل أكثر

من معنى . كل هذا جعله أقرب لامرأة متنمرة منـه لرجـل صـارم . هكـذا يتشاجر مع زوجته مثلاً فيقلب شفتيه كلما رآها ، أو يمر جوارهـا فيخبـط كفا بكف ، أو يترحم على أمـه التى كـانت زوجـة صالحـة . مثلاً يصـف حادثًا وقع لإحدى الخريجات فيقول : « الأخـت شيماء تعرضـت لحـادث وأخونا طارق جزاه الله خيرًا يقف الآن خلفها ليواسيها ! » . فهو يجد هذه العبارات ذات الطابع الكيدى الانثوى والتعبيرات الماكرة التـى تقبـل أكثر من تفسير .

بصراحة يا سيدى رئيس التحرير الكبير ، أعتقد أن ذكاءك تخلى عنـك هذه المرة .. ولئن كنت أنت تتبع طريقة جونسـون فـى نفـى إشاعات لـم توجد أصلاً ، أو طريقة دنانة فى الكـلام ذى المعنيـين ، فـإن القـارئ ذكـى جدًا ويفهم الطريقتين . أما أنا فأكتفى بأن أؤكد أن مقالك هذا لـم يُكتب محاباة لأعداء أيمن نور ولا تقربًا للسلطة .. من قال هذا الكلام الفارغ ؟



الصينيون ليسوا قادمين

عم شحاتة سائس السيارات رجل مكافح .. يبدأ يومه بالعناية بسيارات البهوات الواقفة فى الخرابة وتنظيفها واقفًا مشمر الساقين ممسكًا بالدلو والفوطة فى صقيع الصباح ، ثم يرحل آخر البهوات فيصير الصباح كله له كى يعمل فى بناية قريبة تحت الإنشاء ، فيقوم بحمل الطوب إلى الطابق الرابع . أحيانًا يتسلى بتنجيد بعض قطع الأثاث القديمة لزوم جهاز البنت ، وأحيانًا يعمل كبواب يلبى حاجات ربات البيوت العجائز اللاتى يخاطبنه من الشرفات . دعك من أنه فى قريته يربى بعض المواشى لأحدهم .

يقيم عم شحاتة فى عشة صنعها لنفسه من بقايا الورق المقوى والمشمع وأية قطعة خشب وجدها ، وبداخلها تجد فراشًا صغيرًا وجهاز مذياع يخص ماركونى شخصيًا ، وهناك ثلاثة قوالب طوب اتخذها موقدًا يضع عليه عدة الشاى .. نسيت أن أقول إنه يبيع الشاى أحيانًا لكل الحرفيين والمتاجر المحيطة بالخرابة التى تقف فيها سياراته .

فى كل يوم عند العصر يصل (وانج ـ هاو) مندوب المبيعات الصينى حاملاً حقيبته الثقيلة التى ينوء بها كتفاه . ابتسامة قاسية على وجهه الأصفر المجعد المرهق ، ثم يرتمى ليجلس على كومة من قوالب الطوب ، وقد اندهشت للغاية لتلك الصداقة التى تجمع بين رجلين لا يتكلمان أية لغة مشتركة .. لا عربية ولا إنجليزية ولا صينية ، وبرغم هذا هما صديقان حميمان والتفاهم بينهما ممتاز .. يجلس (وانج ـ هاو) بانتظار عم شحاتة كى يعد له كوب الشاى الساخن المجانى غالبًا ، فيرشف منه فى انتشاء .. يبدو أنه لم يبع شيئًا بعد يوم كامل من المشى فى شوارع طنطا المزدحمة الوعرة ..

أين يقيم ؟.. ما الجهة التى يعمل معها ؟.. هو لا يجيب وعم شحاتة لا يعرف . برغم هذا فالرجلان صديقان حميمان . تشعر عندما تراهما من بعيد أنهما يتبادلان حديثًا مهمًا ثم تقترب فتدرك أنهما صامتان يتبادلان الأفكار .

عندما تأملت فى الأمر بدا لى غريبًا جدًا .. هذا الرجل الصينى جاء من الجهة الأخرى من العالم ليعمل مندوب مبيعات فى مدينة صغيرة فى مصر ، ويجلس فى خرابة ليشرب الشاى من كنكة سوداء متسخة أعده له سائس سيارات ..

ما هذا المصير؟.. . وما الذى قاده له ؟.. أما عن العلاقة الحميمة بينه وعم شحاتة فسببها مفهوم .. إن بين الرجلين لغة واحدة بليغة هى لغة الشقاء .. يفهمان بعضهما بلا كلمات ..

كان من المفترض أن أشعر بالإعجاب والانبهار بهذا النشاط .. خلية النحل الصينية التى لا تكف عن العمل .. إن الصينيين فى كل مكان من مصر اليوم . لم يعد الأمر يقتصر على تصدير المنتجات بل إن العمالة الصينية تملأ مصر ، ولا أعرف المسئول عن هذا فى بلد يعانى شبابه البطالة أصلاً . بل إن هناك إشاعات عن عرسان صينيين جاءوا ليقضوا على أزمة الزواج عندنا !.. وإن هناك نحو 50 صينيًا تزوجوا مصريات خلال عام 2006 . لو صح هذا لكان الجنون بعينه .. يتقدم الشاب المصرى لفتاة فتطلب كذا وكذا (لأنها مش أقل من عزة بنت خالتها) ثم يتحدثن عن مشكلة العنوسة ويتزوجن وانج هاو !

هناك غزو من آلاف الصينيات على عزبة ام بيومى شمال شبرا الخيمة ..

خمسة آلاف فتاة صينية تفد على قرية أم بدوى يوميًا ، حتى أن أهالى القرية صاروا يجيدون الصينية تقريبًا .. هناك زحف صينى على الشقق الرخيصة فى امبابة والمنيب .

البائعة الصينية تدق الباب وتغض بصرها قائلة : « السلام عليكم ورحمة الله » ثم تطلب مقابلة ربة البيت وترفض الدخول من دون وجودها ..

كلنا يعرف أن الاقتصاد الصينى ينمو بسرعة غير مسبوقة .. فى إحدى قصص مايكل كرايتون يقول المهندس الأمريكى : « ضيقو الأعين قادمون .. كانوا اليابانيين ثم صاروا الصينيين .. كلهم ضيقو الأعين لا يأخذون إجازة يوم الأحد ولا يهتمون بكرة القدم ! » . مجلة الايكونوميست قالت إن الصين التى يبلغ سكانها ربع سكان العالم ستصل الى الدولة الأولى فى النمو الاقتصادى عام 2020 وسيبلغ حجم ناتجها المحلى 29.6 تريليون دولار ، وهى اليوم تشغل الموقع الثالث بعد اليابان . الصين تنتج ثلثى إنتاج العالم من ماكينات تصوير المستندات وأفران الميكروويف والدى فى دى والأحذية ، ونصف إنتاج العالم من الملابس وآلات التصوير وخمسى إنتاج العالم من الكمبيوتر المحمول . إن الصين قد فاقت الولايات المتحدة فى تصدير معظم سلع التكنولوجيا حول العالم عام 2004 . لهذا كانت هناك حرب اقتصادية واضحة من الولايات المتحدة ضد هذا العملاق المصر على أن ينمو أكثر .. صحيح أنه ما زال بعيدًا جدًا عن الاقتصاد الأمريكى ، لكن لابد من توجيه ضربات له .. بل إن العديد من المراقبين السياسيين ينظرون إلى الضربة العسكرية على أنها (خيار أخير) لمنع قيام قوة عظمى صينية فى العالم ، وهم يراهنون على

(الشرك التايوانى) الذى قد يؤدى بالصين لضرب تايوان من ثم تضربها الولايات المتحدة وتستريح . هكذا راحت الضربات الاقتصادية تتوالى : موضوع المنتجات الصينية التى تشكل خطورة على الأطفال .. هذه الفضيحة التى أدت لسحب 19 مليون لعبة من الأسواق مؤخراً فيما يعرف بالاسترجاع Recall ، لأنها مطلية بمادة سامة تحتوى الرصاص . تذكر أن الصين تورد 80 بالمائة من لعب الأطفال فى العالم اليوم .. ثم جاءت قصة معجون الأسنان الملوث والدهانات السامة والمأكولات البحرية التى أضيفت لها مضادات حيوية . وكانت المنتجات الصينية فى عام 2006 تمثل نصف المنتجات المعيبة التى كشف عنها نظام حماية المستهلكين الأوروبى .

نتيجة لهذا أعدمت بكين رئيس هيئة متابعة سلامة الاغذية والعقاقير للتقصير فى عمله . يجب أن يحمد المسئولون هنا الله على أنهم ليسوا فى الصين .

تصر الصين على توجيه ضربات مضادة من مبدأ المعاملة بالمثل : « الصين ستقوم هى الأخرى بفرض معايير أكثر صرامة بشأن الواردات الغذائية من الولايات المتحدة ". لقد أعادت إرسال شحنة من المشروبات قادمة من الولايات المتحدة بعد ان أظهرت اختبارات أجريت فى شنجهاى وجود نسبة كبيرة بها من الصبغة الحمراء . قررت سلطات الحجر الصحى فى بكين حظر استيراد اللحوم من سبع شركات أمريكية كبرى ، مشيرة إلى أن نتائج الفحوص المعملية على عينات من تلك اللحوم أظهرت أنها « ملوثة » ، مما يشكل خطراً على صحة المستهلكين . فى يوليو 2007

أعلنت سلطات مراقبة الجودة الصينية أنها وجدت بودرة بروتين مستوردة من شركة أمريكية تحتوى على كميات زائدة بشكل كبير من عنصر السيلينيوم .

برغم هذا والكلام للايكونوميست ازدادت الفجوة بين الأغنياء والفقراء . لقد بلغ عدد بليونيرات الصين 106 بليونير ، ويمكن القول أن النمو الاقتصادى لم يحدث فارقًا فى حياة الناس ، فما زالت الصين تشغل المركز 100 فى معدل نصيب الفرد من إجمالى الناتج والمركز 81 على صعيد التنمية البشرية وهى بالتالى دولة نامية على هذا الصعيد . حجم الاقتصاد الصينى ما زال أقل بكثير من نصف حجم الاقتصاد اليابانى (نحو 9 تريليون دولار) ، ناهيك عن الاقتصاد الأمريكى الذى يزيد على 50 تريليون دولار .

الاستنتاج الرئيسى هو أن الصين دولة متقدمة جدًا فى مؤشرات النمو الاقتصادى ، لكنها دولة نامية فى مؤشرات التنمية الاقتصادية والاجتماعية . مشكلة الصين هى أن سياسييها يخلطون بين النمو والتنمية ، وهذا متوقع فى دولة دكتاتورية ..

أنا لا أفهم الاقتصاد جيدًا ، لكننى أفهم منظر (وانج هاو) البائس الجالس يشرب الشاى من يد عم شحاتة .. أقسم بالله أن هذا رجل لا ينتمى لقوة اقتصادية كاسحة ، وبهدلة الأرامل التى تعيشها الزهرات الصينية لا تمت بصلة لرفاهية الفرد .. إن وانج هاو صورة أخرى لعم شحاتة . كلاهما غلبان يجرى على أكل عيشه فى ظروف أقوى منه .. ولهذا لا أرى الصينيين قادمين على المدى البعيد .

هوامش عن الحرب السادسة

ـ 1 ـ

فى اليوم التالى مباشرة لسقوط بغداد ، وجدت عند بائع الصحف جريدة أسبوعية تتصدر صفحتها الأولى صورة عملاقة لوزير الإعلام العراقى (الصحاف) ، وقد كتب تحتها : "الصحاف : رمز الصدق الإعلامي .. » هذه الجريدة لم تعرف بما حدث أمس ولم تجد الوقت لتبدل عناوينها ، ففى الأسابيع التالية تحول الصحاف إلى رمز الكذب والجعجعة الخطابية الفارغة وانضم اسمه إلى اسم (أحمد سعيد) فى مصر ، وصار فقرة للإضحاك فى الكوميديات الفضائية ..

برغم كل شيء فإن ذكرياتى عن الصحاف كانت إيجابية جدًا ، ورأيى أنه أدى عمله كأفضل ما يكون .. يسقط الصاروخ الأمريكى فى مكان من بغداد فيكون هناك خلال ربع ساعة غير خائف على حياته من قنبلة لم تنفجر بعد أو غارة تابعة ، ويقدم الحقائق للصحفيين فى ثبات وثقة مع الكثير من المرح .. وكم من مرة وجه ضربات محكمة لأكاذيب آلة الدعاية الأمريكية التى تقودها (فوكس نيوز) و(سى إن إن) .. لقد كان بارعًا بحق حتى اللحظة الأخيرة ، لكن الجيش خذله ..

نفس الشيء ينطبق على صمود العراقيين أمام القوة العظمى فى الكون .. هل نسينا الأسابيع الثلاثة الأولى من الحرب والوقت العصيب الذى منحه العراقيون للأمريكيين ؟.. هل نسينا القتال لمدة عشرة أيام فى ميناء (أم القصر) والهجمات على قوافل المؤن ، وسقوط الأباتشى ، والمدفعية الأرضية التى تصدت لكل صورايخ (كروز) ؟.. هل نسينا المشاجرات

فى البنتاجون ؟.. والاستجوابات التى خاضها رامسفيلد حول (هل وضعتنا فى فيتنام جديدة ؟.. كيف دخلت هذه الحرب من دون قوات برية كافية ؟) .. ملحمة رائعة ساعد فيها أن خطة الدفاع عن العراق وضعها عسكريون محترفون ، بينما سقطت بغداد ذاتها خلال ساعات لأن خطة الدفاع عنها وضعها المحامى (قصى صدام حسين) ، وبما أنه ابن رئيس الجمهورية فقد افترض أن هذا كاف لجعله يجيد الاستراتيجية والسباكة والفن التشكيلى وميكانيكا الكم ..

سقطت بغداد .. وعلى الفور نسى الناس كل شىء وتبخرت كل هذه المقاومة الأسطورية ، فلم يعد أحد يذكر إلا مشاهد الاقتحام والنهب .. ونسى الأمريكان كل اتهاماتهم لرامسفيلد فلم يعد إلا القائد المنتصر ..

قلبى معك يا شيخ (حسن نصر الله) .. فلو أن إرادتك انتصرت واستطعت أن ترهق إسرائيل إلى حد وقف إطلاق النار وتبادل الأسرى ، فلسوف تصير بطل الأمة وتخرس كل منتقديك .. الرجل الذى استطاع أن يقهر إسرائيل بمجموعة من الميليشيات ..

أما لو حطموك ـ لا سمح الله ـ فلسوف يلعنك هؤلاء الذين بحت حناجرهم هتافًا لك اليوم .. وسيذكر لك الناس إنك الرجل الذى تسبب فى دمار لبنان ، وبدد بحماقة النصر الجميل الذى صنعه من قبل .. وسيُقال إنك عميل إيران الذى أنسته الطاعة واجب الحذر .. ووقتها لن يتذكر أحد حرفًا عن قصف حيفا والذعر الإسرائيلى وبطولات قرى الجنوب وقصف البارجة .. بل الأدهى سوف يقال إنك عميل لدى الموساد كلف بمهمة تبرير دخول إسرائيل إلى لبنان ...

-2-

منذ سمعت اسم (حسن نصر الله) للمرة الأولى وقعت فى حبائله ككل من عرفه .. إنه كاريزما تمشى على قدمين ، وعقل متزن ومنطق قوى لا تشوبه شائبة .. فى الوقت نفسه هناك لمحة معينة من المكر اللطيف فى عينيه ، وهى لمحة تشى بأنه لم يتخل بعد عن براءة الطفل بداخله .. هذه البراءة بالذات هى التى تجعله يرفض أنصاف الحلول ، ويحتفظ بدهشته تجاه ألعاب السياسة السخيفة .. الحق واضح لا شك فيه ، والباطل واضح لا شك فيه ، فلم الخلط إذن ؟.. إنه يتصرف بالضبط بالطريقة التى تتصور أنك كنت ستتصرف بها لو كنت تملك القوة ، ولهذا يشعر الإسرائيليون بأن لهجة خطابه مختلفة عن لهجة باقى العرب الذين يتكلمون عن السيف والخيل ولا يستعملونهم ..

هذا الرجل لا يملك أوهامًا ، ولا يشعر بحاجة لتفسير نفسه أو تقديم شهادة حسن سير وسلوك للغرب .. لقد كرر مرارًا إن المجتمع الدولى لا وجود له ، وهو ما يؤمن به كل مواطن عربى ، حتى إن أحدهم سألنى : ما الذى نجنيه من مجلس الأمن والأمم المتحدة ولا عمل لهما إلا إدانتنا وحماية إسرائيل ؟.. لماذا لا تعلن الدول العربية جميعًا انسحابها من هاتين الجمعيتين التمثيليتين ؟.. حسن نصر الله يؤمن بالشىء ذاته ، ويعمل بالضبط وفق بيت أبى القاسم الشابى :

لا عدل إلا أن تعادلت القوى .. . وتصادم الإرهاب بالإرهاب

أذكر منذ عدة سنوات أن لبنان قام باستغلال حق مشروع له فى مياه نهر الليطانى ، لكن شارون هدد بأنه سيدمر أية مشاريع مائية تقام على

هذا النهر لأنها تتعدى على حصة إسرائيل من المياه .. رأيت حسن نصر الله في قناة الجزيرة يقول بعبارات واضحة باردة : أية محاولة إسرائيلية ستقابل برد قاس ، ولن يتأخر هذا الرد أكثر من الوقت الذى تستغرقه مكالمة أجريها على الهاتف المحمول !.. هل تعرف ما حدث ؟.. أعلن (شارون) أن إسرائيل تحتفظ لنفسها بحق الرد فى الزمان والمكان المناسبين !!! وكنت أحسب هذه العبارة مقصورة على العرب فقط ..

الإسرائيليون أذكياء ويعرفون جيدًا أن هذا الرجل لا يطلق التهديدات جزافًا .. ليس صدام حسين الذى وعد بأن ينتحر مغول العصر على أسوار بغداد ، ثم سقطت بغداد نفسها من دون رصاصة واحدة .. ليس الظواهرى الذى فجر قنابل فى مقهى أو فى محطة أتوبيس فى شبرا ليقتل طفلة عائدة من مدرستها ، وذبح بعض السياح الألمان العزل ، ولا يكف عن الكلام عن الكفاح برغم أنه لم يطلق طلقة واحدة على إسرائيل .. وفى العراق يتلخص كفاح القاعدة فى تفجير مزارات الشيعة وذبح الجنود العراقيين .. قد يقول قائل إن الأمريكان هم من يفعل هذا .. إذن لماذا لم تنكر القاعدة ذلك فى بيان واضح يا أخى ؟

الطريف فى الموضوع هو أن الظواهرى قرر أن يدلى بدلوه فى الموضوع .. لا يمكن أن يسمح بكل هذه الشعبية لنصر الله الذى يوشك على التحول إلى بطل العروبة .. لابد من بيان لا معنى له كالعادة ، وعلى الأرجح سوف يفجر محطة مترو فى دولة أوروبية تساند العرب وترفض الحرب .. وسوف يتظاهر بالتحالف مع الشيعة مؤقتا برغم أنه يراهم ألعن من الصهاينة ..

-3-

تذكرنى ملامح (كوندوليزا رايس) بكومبارس مصرية شهيرة جدًا تلعب دائمًا دور فتوة المدبح أو كودية الزار فى الأفلام ، وهذا مع احترامى الشديد للكومبارس لأنها لم تستمتع بقتل المدنيين ، ولم تصف تمزيق الأطفال بأنه (مخاض من أجل شرق أوسط جديد) .. فقط أتساءل ماذا كانت كودية الزار (رايس) ستقول لو كان هؤلاء الأطفال الممزقون فى الصور إسرائيليين .. مش كله مخاض يا وليه ؟ (سامحونى على هذه اللغة السوقية)..

(بولتون) مندوب أمريكا فى مجلس الأمن بشاربه الأبيض المضحك يقول إن ما فعله حزب الله بإسرائيل لا يمكن مقارنته بما فعلته إسرائيل فى لبنان .. لقد خطف حزب الله جنديين كاملى التسليح وأزعج الإسرائيليين وجلب لهم (الخضة) .. هذه جريمة شنعاء كما ترى لا تتساوى مع تمزيق بعض الأطفال العرب الذين لا قيمة لحياتهم .. والأرقام على كل حال تدل على تقييمهم للأمر .. خمسون إسرائيليًا مقابل أربعمائة عربى .. الإسرائيلى الواحد يساوى ثمانية من العرب وكانوا يودون لو ساوى عشرة ..

رأيت (بوش) بعينيه الضيقتين الغبيتين يقضم قطعة خبز بالكافيار ، وبفم ملىء يقول لبلير : « سيكون علينا الاتصال بسوريا لإنهاء هذا الـ Shit .. » ونسى الأحمق أن الميكروفون مفتوح . دعك من بلير الذى يقف مصغيًا لكلمات سيده الحكيمة ، وقد رسم على وجهه تعبيرًا هو خليط من الاهتمام والفروسية والإخلاص من أعماق قلبه . وهو تعبير عبد عتيق دائمًا .

سبحان الله !.. شاهت الوجوه فعلاً .. من النادر أن يجتمع قبح القلوب وقبح الوجوه بهذا الشكل .. كلامك عن (الديموكراسى) يا مستر بوش لم يعد يخدع طفلاً عربيًا ..

لقد انتهت اللعبة ولم تعد هناك أية أوهام .. زال القناع عن وجه الأمريكى القبيح ، وقد حرقت الولايات المتحدة أية جذور مستقبلية لها فى العالم العربى .. حرقت أية مصداقية .. وكما قال أحد الإسرائيليين فى جريدة (ها آرتز) : « لقد قضينا على آخر أمل لنا فى الذوبان فى المنطقة .. صرنا مجرد بلطجى شرس أحمق .. »

قوة الرد الإسرائيلى رفعت الكثير من اللوم عما قام به حسن نصر الله وأعطته شرعية لا بأس بها .. عندما يقذفك طفل بحجر فتقوم بحرقه بالكيروسين ، عندها لن يلوم أحد الطفل على قذفه الحجر .. سوف ينهال اللوم عليك أنت .. وأعتقد أن التراجع النسبى فى موقف مصر والسعودية والأردن سببه بشاعة ما يحدث فى لبنان ، حيث صار لوم الضحية مخاطرة غير محمودة العواقب ..

-4-

قلبى معك يا شيخ (حسن نصر الله) .. أعيش ذلك الكابوس الذى صار متكررًا .. أن ينتهى كل شىء فى ساعات وبلا سابق إنذار ، وأن يذوب حزب الله ونرى الإسرائيليين يملئون الجنوب اللبنانى ، بينما يبحثون عنك ويرجحون أنك فررت إلى سوريا .. رأيت هذا المشهد فى كابول وبغداد ، فليس من حقنا نحن العرب أن نشعر بنشوة النصر أو نتشفى فى أقوى جيش فى المنطقة وهو مرتبك ممزق .. وكما قال د. (جلال أمين) تتعمد الولايات المتحدة فى تكتيكاتها أن تظهر بمظهر المتعثر الذى يلاقى مصاعب فى البداية .. هذا يرفع توقعات الجماهير لدرجة عالية ، من ثم تكون السقطة مضاعفة لهذه التوقعات ، ويكون الإحباط هائلاً .. المطلوب أن يؤمن المواطن العربى أنه لا جدوى ، وأنه لا سبيل لهزيمة هؤلاء .. واحد فقط احتفظ بتفاؤله واحتفظ بيقينه الهادئ .. هذا الواحد ليس مغرورًا واهمًا مثل صدام حسين ، وليس بائع كلام مثل الظواهرى ..

أدعو الله أن تكون مدركًا لما تفعله حقًا يا شيخ حسن ، وأن تكون على قدر الحكمة وبعد النظر الذى توحى به كلماتك وقسماتك .. لقد احتل حزب الله مكانًا عزيزًا فى وجداننا ومن العسير أن يصير هذا المكان خاويًا لا سمح الله .



أسعد أيام هدى

عظيمة هى قناة الجزيرة .. قد نختلف معها ، وقد نراها منحازة لجهات بعينها ومتجاهلة لأمور بعينها ، وقد يتهمها البعض بالعمالة وهى التهمة الجاهزة لوصم كل من نختلف معه .. إن من يختلف معك فكريًا فى العالم العربى هو على الأرجح ملحد أو عميل أو شاذ جنسيًا ، وبما إنه من الصعب اتهام قناة كاملة بالشذوذ الجنسى تبقى تهمة العمالة .. (لم أصدق حتى سمعت بأذنى أن هناك من اتهم منظمة حماس وحزب الله بالعمالة لإسرائيل ، ولا أعرف المنطق اللوذعى الذى قاد لهذه الاستنتاجات العبقرية) ..

أقول إن قناة الجزيرة فتحت نافذة وسط ستار التعتيم الإعلامى الكثيف ، ولولاها لما عرفنا عن الانتفاضة إلا أنها (اضطرابات فى الأرض المحتلة) كما كانت وسائل إعلامنا ستصفها .. وعن طريق قناة الجزيرة رأينا أبا (محمد الدرة) يصرخ متوسلاً للإسرائيليين كى يوقفوا الرصاص ، ورأينا ظهر جثة الرضيعة (إيمان حجو) الذى تحول إلى فجوة دامية كبيرة ، بينما حرصت (سى إن إن) وإعلامنا على إظهار الوجه فقط لأنه لا يعبر إلا عن سلام عميق لرضيعة نائمة ، كأن ما فعله الإسرائيليون هو أن ساعدوا الصغيرة كى تنام فى سلام ..

هذا التفوق الذى حققته الجزيرة فى فلسطين جاء بفضل كتيبة العظماء وليد العمرى وجيفارا البديرى وشيرين أبو عقلة ومن معهم من مخرجين ومصورين وفنيين ..

حظى الأسود جعلنى أفتح قناة الجزيرة يوم الجمعة 9 يونيو لأرى هذا المشهد الرهيب .. الطفلة (هدى) تجرى على رمال الشاطئ وتتعثر وتنهض ، وتصرخ فى جنون وهستريا : أبويا !

أبوها جثة مفتوحة العينين فوق الرمال ، بينما الفتاة تحتضنه .. لا تعرف السبب الذى جعله فجأة يرفض النطق وتلبية ندائها ربما للمرة الأولى .. ثم تجول الكاميرا لترينا ما تبقى من حياة هادئة لأسرة أرادت قضاء يوم على شط البحر فى غزة .. العوامة .. دلو الماء .. الجاروف .. ثم أسرة الفتاة التى تحولت إلى عجين من اللحم المتفحم والدم .. العوامة والجاروف أشياء مدنية جدًا مسالمة جدًا يصعب أن تتلطخ بالدماء إلا فى فيلم (الفك المفترس) لكن إسرائيل فعلتها ..

ما حدث هو أن سفينة حربية إسرائيلية فى عرض البحر قررت أن تمازح هذه الأسرة البريئة بطريقتها .. وكان المذيع يجرى التحقيقات ويصور بينما السفينة ما زالت هناك تراقب الموقف فى استمتاع واضح ..

إن مشاهد الموت فى فلسطين صارت يومية منذ زمن بعيد ، لكن عندما يتعلق الأمر برجال المقاومة وقياداتها فهؤلاء أبطال اختاروا وتحملوا مسئولية قرارهم ، وكل واحد منهم يتوقع اليوم الذى سيتحول فيه إلى أشلاء متفحمة يخرجونها من سيارة انصهر معدنها .. أما تلك الأسرة على الشاطئ فلم تختر شيئًا على الإطلاق .. كل ما أرادوه هو يوم من المرح بين الموج والرمال ، فلابد أن (هدى) الصغيرة صحت صباحًا منتظرة أسعد يوم فى حياتها .. ذات المشهد يذكرنى بمشهد رأيته منذ ثلاث سنوات لذلك الصغير الفلسطينى الذى جلس وحده جوار النافذة فى غرفة نومه يعد ألعابه لعيد الأضحى غدًا ، فكان نصيبه طلقة فى رأسه من قناص إسرائيلى يهوى المزاح بدوره .. ظرفاء وأولاد حظ هؤلاء الإسرائيليون حقًا ..

أسوأ ما فى الأم أن هذه الحوادث صارت كثيرة إلى درجة أنها أذابت

بعضها ونسيت .. عندما تملأ جوالاً بالبيض الهش فإنه يحطم بعضه فلا يبقى شيء ، وإسرائيل تهوى تكديس البيض بحق ..

من أعطى قائد السفينة الحربية هذا الحق ؟.. إنه ليس ربًا ليقتلنى بمشيئته كما يقول العظيم (أمل دنقل) .. من أعطاه الحق فى أن يحيل حياة هذه الطفلة إلى كوابيس ؟.. من أعطاه الحق فى أن يملأ حياتى أنا بالكوابيس ؟

ويخرج بيان الحكومة الأمريكية كما هى العادة .. هم فقط يتفننون فى العبارات التى تثير غيظك : "وقال الناطق باسم الخارجية شون ماكورماك إن بلاده تشجع إسرائيل على التفكير فى نتائج هذه الأعمال .. »

يا سلام على التعبيرات العبقرية !.. "هذه أعمال أدبية وليست تصريحات سياسية .. لو أحضرت تشيكوف وكافكا وموم وماركيز وشكسبير لصياغة جملة سخيفة تتحسس دربها ولا تجرؤ على أن تقول أى شيء مثل (تشجع إسرائيل على التفكير فى نتائج هذه الأعمال) لاعترفوا بأنهم معدومو الموهبة .. من قبل رأى (بوش) أن قصف غزة بطائرات إف 16 (غير مفيد) .. دعك من التعبير العبقرى الآخر : "نحن نشعر بقلق .. » طيلة الوقت هم قلقون .. ما كل هذا الحلم وهذا التهذيب ؟.. أتمنى للأخ بوش مصيبة تطيح به كى يشفى من عادة القلق نهائيًا ..

رجالنا لا ثمن لدمهم .. نساؤنا لا ثمن لدمهم .. أطفالنا لا ثمن لدمهم ، بينما يبكى هؤلاء الغربيون تأثرًا ويرفعون الأنخاب وتعصر الأخت (أوبرا وينفرى) عينيها تأثرًا بعملية إنقاذ درفيل جنح على ساحل فلوريدا ، مع الكثير من الـ (واو) والـ (ياى) والـ (أوه) .. أى نفاق هذا ؟

السؤال الأهم هو ماذا يعتقد (عباس) أنه يفعله ؟.. يخرج ليتهم أعمال المقاومة بأنها حقيرة ، ويشجب قصف المدنيين الفلسطينيين بلغة عقلانية هادئة .. ما هو دوره بالضبط وهو عاجز عن حماية شعبه ، وعاجز عن الاحتجاج على ما يحدث لشعبه ؟

لابد من أن يدفع هؤلاء الثمن .. أما من يتكلم عن الواقعية والتحضر ويطالب الفلسطينيين بأن يموتوا فى أدب ورقى ، فليخرس من فضله .. لا ثمن لهذا الدم إلا الدم .. لا .. ليس الدم كافيًا .. لو مات ألف إسرائيلى فلن يعوضوا (هدى) الصغيرة عن أبيها ، ولن يعوضوا أم (إيمان حجو) عن رضيعتها ..لكنه أقل شيء ممكن لو كانت هناك عدالة حقًا فى هذا العالم .

دماغى كـده

فى أحوالنا الجارية

عن أدب الرعب فى بلد مرعوب

ليرحمه الله لأنه قد توفاه قطعًا .. عم (أبو اليزيد) البواب النوبى العجوز طيب القلب ، وغرفته الضيقة العامرة بالبراغيث تحت سلم حضانة (حماية الأسرة) بطنطا ، وغذاؤه الذى لا يتغير .. رغيف الخبز الأسمر والباذنجان الأسود المخلل الذى كنت أشعر دومًا بأنه جزء من بشرته هو نفسه .. أذكر بجلاء كيف أنقذ عم (أبو اليزيد) حياتى وحياة خمسة من زملاء الحضانة عندما أخفانا فى غرفته فى ذلك اليوم من صيف 1967 عندما جن جنون (عبد الناصر) فأرسل رجاله يسحبون الدم من بطون الأطفال . يومها جرنا عم (أبو اليزيد) إلى غرفته ونظر حوله بحذر ثم قال لنا هامسًا بلهجته النوبية الساحرة وبياض عينيه الأصفر يلتمع :

– « إنتى تقعدى ساكتة لاهسن عبد الناصر ياخد دم من بطنك .. »

وهكذا جلسنا صامتين فى غرفته ونحن نتخيل ما يحدث للتعساء الذين يصرخون فى الخارج ، بينما رجال عبد الناصر يقيدونهم ويدسون الخراطيم ماصة الدماء فى أحشائهم .. وأكلنا الكثير من الباذنجان الأسود على سبيل تزجية الوقت ، وبعد ساعة رأيت أمى تركض إلى الحضانة .. لم أرها قط بهذا المنظر المبعثر المذعور المنهك .. نقدت الرجل الطيب بعض المال ثم أخذتنى وراحت تجتاز الشوارع الخلفية حتى لا تقابل مصاصى الدماء الحكوميين . وفى الطريق إلى الدار رأيت النسوة يركضن فى كل صوب صارخات وعلى وجوههن ذات التعبير الذى رأيته على وجه أمى .. شرحت لى أمى كيف أن هناك أزمة فى الدماء بعد هزيمة جيشنا فى سيناء ، وكيف أن عبد الناصر أصدر أوامره لرجاله ان يمروا على المدارس ليسحبوا الدماء من بطون الأطفال ..

فيما بعد عرفت أننا كنا فى ذروة انعدام الوزن بعد ما فقدنا ثقتنا فى النسر الأسطورى الجميل الذى جاء من أعماق التاريخ ليهزم الاستعمار ويوحد العرب .. وكنا على استعداد لتصديق أى شىء مهما كان سخيفًا .. إن هذه الإشاعة لا تصمد لأى تحليل متأن .. فليس الأطفال بالمصدر الأفضل للدماء ، ولو كان هذا صحيحًا فالدماء لا تؤخذ من البطون .. لكنها إشاعة صممت ببراعة لتجمع بين البشاعة (دم يؤخذ من البطن) وإلهاب المشاعر (لا أحد يطيق إيذاء الأطفال) .. إشاعة صممت كى تحدث هياجًا شعبيًا تصعب السيطرة عليه ..

كان هذا أول عهدى بالإشاعات .. وفيما بعد قرأت كتاب صلاح نصر عن الحرب النفسية وسيكولوجية الإشاعة ، فوجدت أن هذه الإشاعة من أبرع ما تم تصميمه لبلد يهوى تصديق كل شىء ..

كتاب صلاح نصر نفسه كان مصدر رعب لا يوصف لنا لأن السلطة غضبت على الرجل ، وصار من يقتنى كتابه عميلاً أو على أقل تقدير وغدًا .. أبى لم يرد التخلص من هذا الكتاب الثمين لهذا أخفاه تحت الفراش .. وعشنا أعوامًا نتوقع أن يقتحم رجال المباحث البيت ليخرجوا الكتاب من مكانه ، ثم يوقفونا صفًا إلى الحائط ويفرغوا فينا الرصاص ..

أعتقد أنك قد فهمت الآن موضوع المقال باختصار شديد .. طالما سألونى عن مستقبل أدب الرعب فى مصر ، فكنت أقول بثقة : لا مستقبل له .. ليس الآن .. نحتاج إلى مائة عام على الأقل ودرجة معينة من الترف الفكرى والاجتماعى والحضارى حتى نقرر أن نرعب أنفسنا بأنفسنا .. ليس هذا كلامى بل كلام عميد كتاب الرعب فى القرن

العشرين هـ .ب . لافكرافت .. يقول الرجل فى مقال شهير جدًا كتبه عام 1926 ويحمل اسم (الرعب الخوارقى فى الأدب) : « يحتاج تذوق أدب الرعب إلى قدرة تخيلية عالية عند القارئ .. بالإضافة إلى قدرته على التجرد مما يحيط به من مؤثرات » . كانت أمريكا مشغولة ببناء نفسها عندما كتب لافكرافت ، لهذا عاش الرجل حياة ضنكًا ومات فقيرًا . نفس الشىء ينطبق على إدجار آلان بو مواطنه الذى كان يغرى القط بالنوم على قدمى زوجته المريضة لتدفئتها .. إن محاولة قراءة لافكرافت وقت الظهيرة وسط زحام المواصلات تجعلك تعتقد أن هذا الرجل مخبول أو (رايق) لدرجة تثير الغيظ ..

الناس تعشق أدب الرعب لتتطهر من مخاوفها الخاصة .. أن تعيش أفظع التجارب بشكل مقنن لتزداد ثقة فى بقدرتها على البقاء .. باختصار أدب الرعب هو بروفة موت دائمة...

لماذا يبحث المرء عن بروفة موت وهمية إذا كان فعلاً فى بروفة موت واقعية دائمة ؟.. ماذا عن محاولة عبور الشارع وسط الميكروباصات المجنونة بسائقيها (المسجلين خطر) التى تحاول أن تدهم أكبر عدد من المارة ؟.. ماذا عن الوثب من الأتوبيس ؟.. ولو كنت تملك سيارة فماذا عن لجنة المرور ومحاولتك ألا تنظر أكثر من اللازم إلى الباشا كى لا يأمرك : إركن .. ماذا عن شهادة المخالفات لو وجدت أن عليك ثلاثة آلاف جنيه بسبب استعمال آلة التنبيه ؟.. هل يمكن القيادة فى مصر من دون آلة تنبيه ؟.. كيف سمعوا آلة تنبهك أنت بالذات وسط هذه الضوضاء ؟

ماذا عن فاتورة الكهرباء القادمة ؟.. وماذا عن فاتورة الهاتف القادمة ؟.. ماذا تفعله لو وجدت أنهم يطالبونك بخمسين ألفًا من الجنيهات لاستخدامك خدمة زيرو تسعمائة أو مكالمات موبايل لم تجرها ؟.. هل تتركهم (يشيلوا العدة) ؟.. وماذا عن إخطار جلسة المحكمة الذى لم تتسلمه وقد يـؤدى بك لدخول السجن دون أن تعرف السبب ؟

ثم ماذا عن أساسات العمارة التى دفعت دم قلبك للحصول على شقة فيها ؟.. هل كان المقاول نصابًا ؟.. هـل تتحمـل الزلـزال القادم ؟.. هـل تسقط فجأة مـن دون زلـزال لتجـد نفسـك فـى الشـارع تتسـول أو تجد نفسك تحت الأنقاض وتطلع فى نشرة التاسعة ؟

وماذا عن مدخراتك لـو كنـت تملـك شيئًا ؟.. مـا هـو القـرار الجديـد لمجموعة الاقتصاديين الهواة الذين يجتمعون كل صباح باحثين عن وسيلة جديدة لخراب بيتك ؟.. لقد صار كل جنيه فى جيبك أربعين قرشًا خـلال عـامين فهل تتحول الأربعون قرشًا إلى نكلة ؟.. ماذا عـن راتبـك ؟.. هـل ستظل تتقاضاه أم يقول لك عم جابر الصـراف : (اتكـل علـى اللـه) يومًـا مـا ؟ واللحم ؟ كيف يمكن أن تشترى اللحم يـوم يصير ثمنه ستين جنيهًـا ؟ وهذا سيحدث بإذن واحد أحد لأنه ما من أحد يبالى بمصائبك سواك ...

ماذا عن كوب الماء الذى تشربه والهواء الملوث الـذى تتنفسـه ؟ مـاذا عن الفراخ المحشوة بالهرمـونات ؟ هـل لعبـة الجينـات تـدور الآن فـى كبـدك لتتكون تلك الخلية المحندقة الشـقية التى تصر علـى ألا تموت ؟ هكـذا يولـد السرطان ببطء لكن بثقـة .. كل معارفك وجدوا ذلك الورم فى أكبادهم ويبدو أن من لا يجد سرطانًا فى كبده اليوم إنسان محظوظ فعلاً ..

مـاذا عـن زوار الفجـر ؟ ومـاذا عـن صـوت البوكـس لـو وقـف تحت شرفتك فـى الرابعـة صباحًـا وجـاء (عـادل بيـه) يقـول لزوجتـك إنهـم يريدونك لمدة نصف ساعة لا أكثر .. « مجـرد إجـراءات روتينيـة .. » ثـم تذهب فلا يعرف لك الذباب الأزرق طريقًـا ؟ تـرى هـل تتحمـل التعليق على عروسة والنفخ ؟ يمكنك أن ترحم نفسك وتعترف ولكـن بـأى شـىء بالضبط ؟

ماذا عن ابنتك العائدة من الكليـة وقـد بـدأ الظـلام يحل ؟ مـاذا عـن ابنك وتلك الشلة المريبة تحيط به ؟ كم من الوقت يـلزم قبـل أن يقـدم لـه أحدهم أول جرعة من البرشام ؟.. وامتحان الثانوية العامة .. هل هـو من المنهج أم خارجـه ؟.. الامتحـان مـن المنهـج يبشـر بتحويلـه إلى حمـار ، والامتحان خارج المنهج يهدد بألا يجد كليـة تقبلـه إلا (معهـد الدراسات المحلية التناظرية التعاونية) . وماذا عن جلوسه فى البيـت بـلا عمـل بعـد التخـرج ؟ ينظـر لـك بعينين متهمتين يطالبـك بعمـل شـىء .. مـش خلفتونا ؟ يبقى تتصرفوا ...

ماذا عن أزمة المياه واتفاقيـات حـوض النيـل ؟ مـاذا عـن قنـاة سويس إسرائيل البديلة ؟ ماذا عن ثقب الأوزون والتسخين الحرارى ؟

الحقيقة أن الناس فى مصر محظوظون .. فهم ليسـوا بحاجـة إلى قـراءة أدب الرعب لممارسة بروفة الموت .. إن الرعب ضيف دائم معهم خاصـة أسـوأ أنواعه : الخوف من الغد .. وكلما أمعنت النظر فى المسألة ازداد اقتنـاعى بأن ستيفن كنج (واحد فاضى) .. وأن لافكرافت راح (مـوش تمـام) . ليرحمنا الله جميعًا .

المزيد من سيد حبارة

إنه (سيد حبارة) .. الاسم وهمى طبعًا لكنك سوف تعرفه بالتأكيد .. تراه فى كل مكان .. تعرفه من شاربه والنظرة الخبيثة على وجهه ، والطاقية البيضاء التى لا ينزعها عن رأسه أبدًا لأنها (من الحجاز) .. تعرفه من الدراجة التى يصر على أن يركبها عكس اتجاه المرور .. ينظر راكب السيارة لليسار ، متحينًا بكل حواسه فرصة يخطفها كالقط وسط سيل السيارات المنهمر .. عندما تحين الفرصة يثب بالسيارة ، ليفاجأ بسيد حبارة مندفعًا كالسهم على دراجته قادمًا من اليمين .. فليجرب أحد راكبى السيارات أن يلمس حبارة فى هذه اللحظة ، ولسوف تنهمر عليه قائمة فريدة من الشتائم تتعلق بنشاطات أمه الجنسية . إن حبارة يحمل حقدًا هائلاً نحو راكبى السيارات ، وفى أول ثورة أو انتفاضة أو شغب سوف يحرق سيارتين أو ثلاثًا قبل أن يعرف سبب الشغب ..

سوف تعرف حبارة وهو يركب دراجته فى الأيام المطيرة وقد أدخل سروال البذلة فى الجورب حتى لا يتسخ ، وهو يطلق على هذا لفظ (التقفيز) وقد تعلمه من أيام الجيش ، ويحمل فى يده عصا (غلية) لا تعرف الغرض منها لكنه مصر على حملها .. يلبس كل ثيابه ويلف حول عنقه كوفية صوفية كأنه فى سيبيريا لأنه يؤمن أن البرد هو منبع كل الأمراض .. ولسبب ما يصر على أن يلبس بدلة كاملة فى أيام المطر هذه .. سوف يتطاير عليه بعض الوحل من سيارة تمر بجواره ، فيتوقف على الفور ويطلق سبة بذيئة ويلتقط قالب طوب من على الأرض ليقذفه فى الزجاج الخلفى للسيارة .. من أهم مزايا (سيد حبارة) أنه لا يملك نفسه ساعة الغضب ، ولا تهمه العواقب ما دام سيفش غله لحظيًا ..

(حبارة) عامل فى مصنع أو موظف فى إدارة حكومية ما ، وهو لا يمارس أى عمل تقريبًا سوى نقل القيل والقال وكيف أن (الملاحظ / المفتش / رئيس القلم) رجل مسخرة ديوث تلعب به زوجته كما تشاء .. يتبادل الدعابات الجنسية مع زملائه خاصة ما يتعلق منها بليلة الخميس والكوارع وضعف الرُكب والجمبرى .. يرى جريدة مع واحد من رفاقه فينظر لها نظرة زائغة لا ترى ويقول : « بلد بايظة .. » هكذا بلا أية تفسيرات ، هنا يطلب منهم رئيسهم مهمة ما فيثور ويختلق مشكلة ويقف لساعات صائحًا : مش منفذ .. لو الوزير نفسه جه دلوقتى مش منفذ ..

تنتهى هذه الضوضاء عند أول شخطة حقيقية من (الملاحظ / المفتش / رئيس القلم) ، فينفذ لكن حقده يتزايد ، ومعه يؤلف المزيد من الحكايات البذيئة عن المفتش ذى الميول الشاذة جنسيًا أو الملحد ..

إنه مظلوم دائمًا فى نظر نفسه .. غير قادر على الحياة لكنه غير قادر كذلك على الاحتجاج ..

(سيد حبارة) قد أيد كل العصور فى مصر لكنه يكره الحكام كراهية عمياء .. لا يوجد تناقض هنا .. إنه يكره عبد الناصر بشدة لسبب لا يذكره ، لكنه يرى صورته فى فيلم أو مسلسل فيصفق له بحماس .. كان يكره السادات ثم مر موكب السادات أمامه فوجد نفسه يصرخ هاتفًا : بالروح .. بالدم . نفديك يا سادات ..

منذ أعوام طويلة جاءت مذيعة تلفزيون تسأله عن الشىء الذى لا يروق له فى برامج التلفزيون ، فقال العبارة التى أعدها وحفظها وسمعها لنفسه عدة مرات : التلفزيون مش بيقدم وعى اشتراكى للناس .. عبارة لا يفهمها لكنه يحفظها ويشعر بأنها عميقة

بعد أعوام قابلته مذيعة أخرى وسألته عما لا يروق له فقال فى حماس واللعاب يتطاير من فمه : التلفزيون ما قدمش حاجة تناسب 6 أكتوبر ..

منذ عام جاءت مذيعة أخرى تسأله عن رأيـه فقال : التلفزيـون بيقدم مناظر عريانة ..

برغم هذا هو لا يفوت منظرًا واحدًا من تلك المناظر علـى الفضائيات التى تأتيه بـ (الوصلة) .. يتابع المنظر بعين جاحظة حمراء توشك على الخروج من محجرها .. وهذه الشهوة تتحول إلى حقد والحقد يتخـذ طابع الورع المشمئز الغاضب .. هو يشتهى الفنانـات جدًا إلى درجة المقت .. وهو يتمنى بالفعل أن يراهن يغتصبن ويمزقن .. وأسعد لحظة فى حياته هـى عندما يسمع عن القبض على واحدة منهـن فـى قضيـة آداب .. « هـؤلاء القوم يملكون الثروة والجمال والنفوذ لكنهم يفتقرون إلى الدين والأخلاق ويعيشون كالخنازير ، ورجالهم يفتقرون إلى الدم الحامى والنخوة ، لهـذا نحن أفضل منهم .. »

من الناحية الدينية (سـيد حبارة) لا يمارس الشعائر بأنواعهـا ، لكنـه مستعد لأن يتحول إلى أسـد مفتـرس ويمزق أى واحـد لـو سـمع مثلاً أن أقراص لعبة (بوكيمون) تكتب عند حرقها عبارة (سـيد لا .. كعبـة لا) أو أن عبارة (كوكا كولا) لو رأيتها فى المـرآة تكتب شيئًا مماثلاً .. إنـه متعصب بلا حدود باعتبار التعصب مـن شـروط التديـن الصحيـح ، وهـو غير مستعد البتـة لقبـول الآخـر .. مستعد لتصديق أى شـىء يسـمعه .. رسام الكاريكاتور الدانمركى الذى أهان الإسلام وجدوه ميتـًا بصاعقـة .. السبراى الذى يرسم شكل الصليب على ثياب المنقبات .. إلخ .. تعصب

بلا حدود من دون أن يفعل شيئًا واحدًا يثبت به أنه مسلم فعلاً كمـا أراد له الرسول (ﷺ) .. لهذا من السهل جدًا أن تحشد سيد حبارة فى أية مظاهرة بشرط أن يكون لها سبب دينى ..

كنت أكلم صديقى عن مستقبل المفاعلات النووية فى مصر ، ثم توقفنا وقـد أفزعتنا فكرة أن المفاعل سوف ينشئه المهندس الصينى (وانج هاو تشـين) أو الألمانى (فرانتس هوفمان) أو الروسى (ميخائيل سـولوفيتش) ، لكـن إجراءات السلامة فى النهاية سـوف تقـع علـى عـاتق (سيد حبـارة) !.. يمكنك تخيل منظر المفاعل الموشك علـى الانفجـار ، بينمـا (سـيد حبـارة) يؤكد أنه سلم العهدة وأن دفتر 118 ليس معه ، وأن المفتاح مـع النوبتجى المناوب ، وأن الملاحظ خصم له ثلاثة أيام دون وجه حق .. إلخ .

فى كل الاستفتاءات والانتخابات يعتبر سيد حبارة مخزونـًا استراتيجيًا للحكومة ..حتى من دون تزوير أو تلاعب فـى أوراق التصويت ، يصـدر (الملاحظ / المفتش / رئيـس القلـم) أمـرًا للعـاملين بالتوجه إلى اللجـان ، ويتم شحن (حبارة) هو ورفاقه من (السيدات حبارة) فى أتوبيسات إلى لجان الانتخاب وهم يهتفـون مؤيديـن شـيئًا مـا .. ثـم ينـزلون إلى اللجـان ليصوتوا بـ (نعم) ويرفعون عريضة مكتوبة بالدم دم ـ الدجاج غالبًا ـ نؤيد أى شىء حتى لو كان قانونًا لمنع التنفس أو منع دخول دورة المياه .. عنـد الظهيرة يطير فرحًا بذلـك الكيس الورقـى الـذى يحـوى علبـة عصيـر و(شاندوتش) .. سيد حبارة لعب دورًا مهمًا فى التصويت على التعديـل الدستورى الأخير ، ونحن نعرف ما سيحدث بالضبط يوم التصويـت علـى التوريث القادم .. سوف تخرج عشرات الأتوبيسات تحمل لافتات التأييد

والمبايعة والموافقة .. الكثير من الهتاف .. عريضة بالدم تبايع الابن على طريق الأب .. وهكذا تفيق لتجد أن أسوأ كوابيسك قد تحقق وأن هناك إجماعًا ساحقًا لدى الشعب المصرى على التوريث ..لا يوجد تزوير هنا .. سيد حبارة هو من قال نعم..

هذا ما يقدر على عمله (سيد حبارة) .. إنه بالتأكيد أكثر تأثيرًا وأعلى صوتًا مما يقدر على عمله عشرون أفنديًا بالنظارات يقفون هاتفين على سلالم نقابة الصحفيين ، بينما تحيط بهم ثلاثون عربة بوكس خضراء..

الآن أنت تعرف من هو (سيد حبارة) .. (سيد حبارة) هو المصرى العادى الذى يملأ الشوارع .. من قال إن الإنسان المصرى ما زال كما كان ؟.. لقد تغير كثيرًا جدًا .. إنه نتيجة بائسة لسنوات من القهر والجهل والتخلف ، لكنه برغم هذا قوى جدًا بحكم العدد ويمكنه بالتأكيد أن يحدد مصير هذا البلد لأعوام قادمة .. لقد صنعته حكومات متعاقبة وظروف اقتصادية وسياسية تفوق الوصف ، لكن (سيد حبارة) هو من يفرز الحكومات لأن الشعب يستحق الحكومة التى تحكمه .. وهكذا .. دائرة شيطانية لا تنتهى .. المزيد من سيد حبارة .. المزيد من التأييد .. المزيد من الحكومات الفاسدة .. المزيد من سيد حبارة .. وهكذا ...

من يقدر على كسر هذه الدائرة ؟.. ليس أنا بالتأكيد .. لا تنس أننى مواطن مصرى وبالتأكيد أحمل الكثير من (سيد حبارة) فى أعماقى ، إن لم أكن أنا هو فعلاً ، حتى لو كنت لا أركب الدراجة ولا أضع طاقية بيضاء على رأسى !

شباب عاوز الحرق !

ثمة إجماع فى وسائل الإعلام والأعمدة الصحفية على أننا رزقنا من دون الأمم بألعن جيل من الشباب الرقيع المنحل الشهوانى التافه .. (شباب عاوز الحرق) باختصار شديد .. نحن وكل جيلى سلبنا الشباب أحلامه ، واحتللنا المناصب التى يمكن أن يطمح إليها ، وحرمناه أبسط الحقوق التى يمارسها أى قط فى زقاق : الملجأ والزواج ، وأعطيناه سفينة غارقة نخرة امتلأت بالثقوب نُهب كل لوح خشب وكل مسمار فيها ، وقلنا له إن عليه أن يتولى الإبحار بها بعدنا .. وينظر الشاب إلى البحر الذى يعج بالأساطيل وحاملات الطائرات التى صنعها الآخرون ، فيتساءل : ماذا كنتم تفعلون طيلة هذا الوقت حينما كانت السفينة لكم ؟.. فنقول له : أنت شاب شهوانى قليل الأدب .. وربما سافل كذلك .. مشكلتك هى أنك كسول تريد كل شىء بلا تعب ..

نعم .. وسائل الإعلام تنظر بريبة واضحة إلى هؤلاء الأوغاد بشواربهم نصف النامية والحبوب فى وجوههم وأصواتهم الخشنة .. وهى تتظاهر بحبهم وتقدم لهم الكثير من (نانسى عجرم) و(أليسا) ، لأنهم ما زالوا الوسط الاستهلاكى الأفضل ، لكنها تعتقد فى قرارة نفسها أنهم خطر أمنى داهم ، وأنهم يدارون ذيولهم فى سراويلهم ..

المشكلة فعلاً أن الشباب لم يعد على ما يرام .. هذه الطاقة الكاسحة المعطلة التى حرمت الأمل والمشروع القومى المشترك تزداد خطرًا يومًا بعد يوم ، والفراغ يهدد كل شىء وكل بيت .. لاحظ انتشار الكافتيريات وملاعب البلياردو ومقاهى السايبر .. باختصار : ثقافة البطالة . لاحظ نمو

التطرف الدينى الذى تزامن مع غياب المشروع القومى والأمل فى الغد . ولغة (الروشنة) التى يستعملها الشباب تحوى فى 90٪ من كلماتها معانى الاستهتار والتحدى .. دعك من الوقاحة التى يشكو منها كل مدرس .. يحكى الدكتور (جلال أمين) العالم الوقور عظيم الشأن عن شاب من هؤلاء دنا من سيارته وهو جالس فيها ينتظر زوجته ، فاستند على النافذة بجواره ، وراح يثنى مرآة سيارته ويفتحها بلا توقف وبلا هدف واضح وعلى سبيل التحدى فقط ، بينما ظل الأستاذ الكبير جالسًا فى السيارة صامتًا يرقب هذا السلوك غير المفهوم..

لكننا نحن المسئولون بالكامل عن خلق هذا الوحش .. وكما يقول الشاعر العربى :

إنا بأيدينا جرحنا قلبنا .. وبنا إلينا جاءت الآلام

قرأت لأحد الصحفيين الكبار (الفلاسفة) ولن أذكر أسماء ؛ لأن بلاط السجن سيكون باردًا جدًّا فى هذه الفترة من السنة أنه كان فى رحلة مع مجموعة من الشباب حينما سمعهم يغنون : الأقصر بلدنا بلد سواح .. فيها الأجانب تتسوح .. وكل عام وقت المرواح بتبقى مشتاقة تروح .. وتسيب بلدنا !

يتساءل الأستاذ العبقرى : أين ذهب الانتماء لدى جيل الشباب ؟.. ذهب يا سيدى الفاضل بسببك وسبب أمثالك ، الذين أيدتم كل نظام حكم وكل سياسة ، وعملتم جاهدين من أجل الوصول إلى الثراء والنفوذ صاعدين سلمًا من أجساد الشباب المطحون .. فى عصر كانت الصحف المصرية ترسم فيه الزعماء العرب جالسين على (قصرية) أطفال ، وفى

عصر كان يعلن فيه فى الصحف عن زيادة الأسعار فتكتب مقالاً كاملاً تؤيد فيه هذه الخطوة المباركة التى تأخرت كثيرًا ، وحينما يضع السادات كل قوى مصر السياسية فى السجن تكتب مباركًا (ثورة سبتمبر) هذه ..

يؤمن الشباب بعبد الناصر فيخرج ألف كتاب يلعن عبد الناصر .. يحن الشباب إلى سعد زغلول فتمزقون سعد زغلول .. كل إنجازات يوليو تحولونها إلى كوارث يوليو .. تهللون للاشتراكية فى عهد عبد الناصر ثم تلعنون أباها فى عهد السادات .. وتلعنون أمريكا فى عهد عبد الناصر وتكتشفون أنها الشريك الكامل الأمين فى عهد السادات . ولولا بعض الحياء والخشية من النظام الحالى الذى يستمد شرعيته من أكتوبر لشككتم فى حرب أكتوبر نفسها : « المصريون لم يعبروا القناة فى أكتوبر .. القناة هى التى تحركت إلى الغرب بضعة كيلومترات » .

فى إحدى فترات الخلاف العابرة مع أمريكا قرأت مؤخرًا لصحفى كبير جدًّا يقول : "علينا أن نشفى من خرافة أن 99٪ من أوراق الحل فى يد أمريكا!" . والحقيقة أنك يا سيدى كتبت هذه الخرافة مرارًا من قبل خاصة فى عهد السادات .. من حسن حظ الشباب أنه لم يقرأ مقالاتك القديمة تلك وإلا جن بالتأكيد ..

تخرج وسائل الإعلام للقاء الشباب ومعها المذيعة التى سكبت زجاجة أكسجين كاملة على شعرها ووضعت طنًا من المساحيق كأنها إحدى بطلات مسرح الكابوكى اليابانى .. تسأل الشاب عن اسم وزير (التوابع المضادة) أو وزير (التعاون الإعلامى التخطيطى) فلا يمن الله عليه بكلمة .. من ثم تخرج الصحف صارخة : الشباب تافه شهوانى رقيع .. ليت الشباب يهتم بعقله كما يهتم بالدهان الذى يسكبه على شعره ..

الحقيقة أن الإجابة عن هذا تكمن فى كلمات (أورويل) فى روايته الرائعة 1984 عندما دبت مشادة بين البطل وحبيبته حول (هل كان الحزب فى حرب مع أيستاسيا أولاً أم كان فى حرب مع إيوراسيا ؟) .. يقول (أورويل) إن الفتاة لم تكترث بهذا على الإطلاق لأنها لا ترى فارقًا بين هراء وهراء آخر ..

الشاب لم يختر وزير (التعاون الإعلامى التخطيطى) ولم يسمع عنه من قبل ، ويوم يرحل هذا الوزير فلن يعرف أحد السبب .. إذن ما جدوى معرفة اسمه ؟.. لا فارق بين (هراء وهراء آخر) .. اسمحوا للشاب أن يختار وزير (التعاون الإعلامى التخطيطى) ثم طالبوه بأن يعرف اسمه ، وانصبوا له المشانق لو لم يعرفه ..

نفس الشيء ينطبق على الأسئلة من طراز (متى مات بيلاطس البنطى ؟) .. (ما طول نهر المسيسبى ؟) .. (من مؤلف كتاب تثقيف الشعوب فى تقنية الحاسوب ؟) .. السيدة المذيعة لو انتزعوا منها البطاقة الأنيقة لن تعرف الإجابة ، والسيد المعد لا يعرف الإجابة ، وأنا لا أعرف الإجابة ، وليس مما يفيد الإنسان المعاصر أن يعرف طول نهر المسيسبى ما دامت هذه المعلومات موجودة فى أية دائرة معارف .. إنها ثقافة (الكلمات المتقاطعة) التى يصرون على أنها هى الثقافة ولا شيء سواها ، بينما الثقافة هى أن تستخدم ما تعرف فى تكوين مفهوم متكامل للعالم من حولك وكيفية التفاعل معه ..

لكن وسائل الإعلام لا ترضى بهذا .. هى لا تريد إلا أن ترى الدماء تسيل وتلطخ كل شيء .. لهذا تطالب برأس الشاب التافه .. بينما اسم

آخر أغنية لراغب علامة أو عيد ميلاد روبى هى بالفعل معلومات تبدو مهمة للشاب .. على الأقل هو لا يُرغم على معرفتها ، وتمس حياته ورغباته بشكل واضح .. ولا تتعالى عليه أو تعده بما لا يمكن تحقيقه .. ولا تهدم ما آمن به من قبل بلا مبرر .. والأهم أنها لا تسد عليه طريق الترقى والنمو فى الحياة .. باختصار : (روبى) تبدو هى الشيء الوحيد الحقيقى وسط كل هذه الأوهام وكل هذا الكذب ..

الشباب ليس مجموعة من الملائكة ، لكنهم ليسوا شياطين .. سوف يصيرون كذلك لو لم نفق من غيبوبتنا ، ونحن لسنا ملائكة ولا شياطين .. نحن ملاحون خائبون غرقت سفينتهم أو كادت .. وعلينا أن نترك قطعة خشب واحدة طافية ليتمسك بها من يأتون بعدنا .



البرتقالة الميكانيكية فى مصر

من أين جاءوا ؟.. إلى أين يذهبون ؟.. ومتى ؟

فى العام 1962 كتب أنطونى بيرجس روايته الشهيرة (البرتقالة الميكانيكية) أو (برتقالة بقلب ساعة) التى تحولت فيما بعد إلى فيلم رائع رهيب لستانلى كوبريك ، ظل ممنوعًا من العرض أعوامًا طويلة فى عدة بلدان غربية (حتى الحرية هناك لها سقف مهما زعم الزاعمون) .

تتحدث القصة عن مستقبل كابوسى آت حتمًا تحكم البلاد فيه سلطة شمولية لا تهتم كثيرًا بأمن الشوارع قدر ما تهتم بالأمن السياسى ، من ثم تصير الشوارع مملكة عصابات الشباب التى تجوبها بحرية كاملة تضرب المسنين وتغتصب النساء وتسرق المتاجر ، بينما يغلق الكبار أبوابهم على أنفسهم خائفين ويتظاهرون بأن كل شىء على ما يرام .

للشباب لغة خاصة ذات جذور عدة من الكوكنى ولغة الغجر واللغة الروسية ، وتسمى باسم (النادسات) . مثلاً الاغتصاب اسمه عندهم هو (جوه بره جوه بره) . أليكس بطل القصة شاب من هذه العصابات مهمته فى كل ليلة أن يجوب الشوارع مع عصابته ويقوم بسباقات ليلية بالسيارة ، ويغتصب أية فتاة يقابلها .

يتورط أليكس فى عملية هجوم على بيت مؤلف ، ويقوم مع رفاقه بالتناوب على اغتصاب زوجة الرجل أمام عينيه (من أجل بعض المرح) ، ثم يتورط فى جريمة قتل لامرأة تعيش وحدها .. هذا يدفع به إلى السجن ، وهناك يقضى الوقت فى قراءة قصص المذابح والاغتصاب فى التوراة شاعرًا بأنها كانت أيامًا مجيدة . كان عليه أن يوجد فى تلك العصور !

لكن الحكومة لأغراض سياسية تتبنى علاجًا خاصًا لحالات العنف لدى الشباب تطبق فيه نظام التغذية الرجعية السلبية . يهدف هذا العلاج إلى إحداث ارتباط شرطى بين العنف والقىء . هكذا يختارون أليكس باعتباره نموذجًا فريدًا لفقدان التحكم فى شهوتى الجنس والعنف . يرغمونه لعدة أيام على مشاهدة أفلام عنف وأفلامًا جنسية (جوه بره جوه بره) بلا انقطاع وهو مقيد فى مقعده ، مع تثبيت جفنى عينيه حتى لا يغمضهما ، مع حقن تسبب له الغثيان والدوار . النتيجة هى أن أليكس يتحول إلى كتكوت وديع لا يتحمل أى نوع من العنف ، ولدرجة لعق حذاء من يهينه أو يضربه . يخرج للعالم الخارجى على أساس أن الحكومة نجحت فى شفائه ، لكنه يكتشف أنه لا مكان له فى هذا العالم على الإطلاق..حتى الكاتب الذى اغتصبت زوجته وجده وكاد يفتك به . إنه برتقالة ميكانيكية تبدو طبيعية من الخارج لكنها مكبلة بنظام تروس صارم من الداخل .. ولا جدوى منها على الإطلاق ..

هذه هى رسالة الرواية الخبيثة التى يمكن أن نلخصها كما يلى :
لا تحاول أن تهذب الإنسان أكثر من اللازم فهذا يفقده آدميته . ربما كان الإنسان فى صورته الشريرة أفضل ..

أكتب هذا بينما شوارع مدينتى الصغيرة مزدحمة عند كل ركن بمجموعات من الشباب لا يقل عدد كل منها عن عشرة . أصوات صاخبة وملامح بلطجية ونية حقيقية لقطع الطريق على أية أنثى حسنة الوجه أو القوام ، مع صدامات لا تنتهى مع أى واحد محترم يحتك بهم . يمكنك بسهولة أن تعرف أن أبا واحد من هؤلاء الشباب مسافر أبدى للخليج ، وقد تضاءل مفهوم الأبوة عنده إلى مفهوم (جالب المال) ، وهو يفعل هذا

بكثرة وإخلاص حتى يعوض الابن عن عدم وجوده : بدلاً من الحب أعطه مالاً .. بدلاً من التربية الصارمة أعطه مالاً .. بدلاً من التدين أعطه مالاً . النوع الثانى من الآباء هم (مراد بيه) وأمثاله .. مراد بيه الذى يشغل منصبًا مهمًا ، وقد علم ابنه أن احترام الآخرين ضعف ، وأن قلة الأدب هى الطريقة الوحيدة للحصول على الاحترام الاجتماعى . القبلية هى كل شىء فنحن سادة بنى مخزوم ونشرب إن وردنا الماء صفوًا ويشرب غيرنا كدرًا وطينا . هناك نمط ثالث من هؤلاء الشباب هو اليائس الذى فقد الأمل فى الغد وقرر أن يطلق لشهواته العِنان .

حتى صوت الشباب تغير فصاروا يتكلمون بطريقة التطجين البلطجية الشهيرة ، ومزاحهم عبارة عن دعابة واحدة تتكرر بلا توقف هى اتهام أم الآخر بالعهر .. يبدو أن هذا ظريف جدًا لأنهم يقهقهون مع كل سبة ، مع ذلك الصوت السكندرى الحلقى الدال على الاحتجاج . باختصار وجودهم صفعة على وجهك وإهانة للحضارة البشرية حتى لو لم يفعلوا شيئًا . مجرد مشيك فى الشارع مع زوجتك أو ابنتك صار نوعًا من البهدلة .

فى مراهقتى كان هذا النشاط غير مستحب ويعرضك للخطر ، لأن شرطة الآداب كانت موجودة فعلاً ، ومن الممكن فى أية لحظة أن يمسك بك رجلان ضخما الجثة يدفعانك إلى البوكس . وفى يوم السبت كان بعض زملائنا فى المدرسة الثانوية يجيئون للمدرسة وشعورهم حليقة (زيرو) فنعرف على الفور أنهم كانوا يعاكسون البنات ليلة الخميس ، فأمضوا باقى الليلة فى التخشيبة . أين ذهبت شرطة الآداب فى الشوارع ؟ إما

أن الآداب تحسنت فلم يعد لهذا الجهاز لزوم ، أو أن بيوت الدعارة تكاثرت حتى لم يعد لدى رجال الشرطة وقت لحملات الشارع .

إن أية محاولة قام بها أب غيور أو أخ غاضب أو زوج ثائر لإبلاغ الشرطة باءت بالفشل ، لأن الشرطة لم يعد لديها وقت لهذا الكلام الفارغ ، ولأن واحدًا من أقارب الفتية هو (مراد بيه) الذى ينهى القضية فى ثوان . أحد رفاقى اتصل بالشرطة بلا جدوى عدة مرات من أجل تجمع شبابى يقف تحت نافذة بناته المراهقات ، بحيث تتسلل شتائم الأم والأب إلى غرفة نوم البنات مباشرة . نصحه ذوو الخبرة أن يتصل بالشرطة ليبلغهم أن مجموعة من الشباب الملتحى تقف تحت نافذته منادية « إسلامية إسلامية » . لو فعلها لامتلأ الشارع بعربات ومدرعات الأمن المركزى خلال دقائق ، وحلقت طائرات الهليوكوبتر ، ولما رأى أحدًا من هؤلاء الشباب النور ثانية ، لكنه لم يجرؤ على عمل ذلك طبعًا .

عندما تقرأ هذا المقال سيكون عام قد مر على (مظاهرات الشبق) إياها التى اجتاحت شارع (طلعت حرب) فى العيد ، والتى تضاربت بصددها الأقوال ، لكنك على الأقل تعرف أن مجموعات من الشباب إياها راحت تلاحق أية فتاة على مرمى البصر وتمزق ثيابها . هل هذا طبيعى ؟ هل هذا سلوك معتاد ؟

الحقيقة أن أجراسًا كثيرة تدق بلا انقطاع ، تنذرنا بأن اليوم قادم .. اليوم الذى تنبأت به رواية (البرتقالة الميكانيكية) حينما تفلت الشوارع نهائيًا من سيطرة الدولة ، ويصير على كل مواطن أن يحمى نفسه بنفسه . منظومة البطالة .. منظومة انعدام القيم ، منظومة التدين الظاهرى الزائف ،

منظومة اليأس من الغد ومن التغيير ، منظومة التوتر ، منظومة ارتفاع سن الزواج أو استحالته..منظومة عدم الثقة فى الكبار بعد كل ما قالوه وكل ما كذبوا فيه .. منظومة الزحام وضياع الفرص لأن الآخرين سبقوك .. كلها تجتمع لتفرز لنا هذه الصورة المرعبة .

والحلول ؟ هناك حل سهل هو فرق الإعدام التى تجوب الشوارع لتطلق الرصاص عشوائيًا على أى تجمع شبابى .. البرازيل فعلتها مع أطفال الشوارع الضالين ، لكننا سنفعلها مع الشباب الصايع . إلا أنه حل غير عملى ، ولن يروق للآباء .. الإخصاء الجبرى كذلك ليس حلاً لأن الجنس ليس هو سبب المشكلة الوحيد ، دعك من أن الهرمونات ستظل تؤدى عملها . إذن يظل الحل الوحيد الممكن هو أن تفعل الدولة ما يجب على الدول أن تفعله : تحارب البطالة ، تضمن لهؤلاء الغد ، تحترم القانون وتنفذه مع الجميع ودون استثناء ابن مراد بيه . هناك الحل الذى اقترحته رواية (البرتقالة الميكانيكية) ، لكن لا اعتقد أن أحدًا سيرحب بأن يتحول شبابنا إلى برتقال ميكانيكى يلعق أحذية من يضربونه . ربما يروق هذا للبعض فى الحكومة لكن تبقى حقيقة أنه حل مكلف جدًا . إن أليكس والنادسات قادمون يا سادة فهلا فعلنا شيئًا لنمنع ذلك ؟

تدين وروشنة وسيارات مرسيدس !.. أحمدك يا رب !!

التغيرات الاجتماعية التى تراها مصر فى الآونة الأخيرة عاصفة وعاتية ومن المحتم أن تلد شيئًا ما .. هناك أشياء لم يكن أحد يجسر على التفكير فيها بها منذ خمسة أو ستة أعوام ، واليوم صار الكلام عنها مملاً .. الأمثلة كثيرة ويصعب حصرها ، لكن العقل يستحضر من على السطح البرنامج التلفزيونى المذاع على الهواء الذى يتشاجر فيه أبو الفتاة الحامل مع أبى الفتى الذى غرر بها ، ولا هدف للبرنامج إلا تقديم نوع مسل من مصارعة الديوك للمشاهدين أثناء تناول العشاء .. المعارك الطائفية تبرز للسطح بوضوح تام ، ويتم تداولها بلا همس ، ويقول أتباع كل دين عن الآخر ما لم تتصوره إلا فى كوابيسك .. النقد الصريح جدًا الموجه للحاكم وابنه دون أن يدل هذا على مكسب حقيقى فى الحريات .. بل إن الحكومة استغلت هذه الجرأة كالعادة لصالحها ، ووضعت المعارضة فى خانة معدة لها سلفًا هى خانة (أيها العالم ..كيف لا أكون ديمقراطية وهم يشتموننى بهذه الجرأة دون أن أسحلهم فى الشوارع ؟) .. والمعارضة متحمسة لا تعرف أنها تلعب دورًا رسم لها من قبل ألا وهو تجميل النظام .. والحقيقة كما يقول د . جلال أمين : إن هذا التسامح يمكن أن ينقلب على الفور لو عبثت بواحد من مقدسات الحكومة الحقيقية مثل (الكويز) وتصدير الغاز لإسرائيل ، أو دعوت إلى عصيان مدنى وهو الحل الوحيد الممكن لإسقاط النظام .. عندها سترى أنياب الدولة الحقيقية ..

واحدًا تلو الآخر يتهاوى أحد التابوهات السابقة . يقول الزميل مؤمن المحمدى فى مقال له بالدستور : « عندما يغنى اللمبى (وقف الخلق

وهو ثمل فإنه يخرق اثنين من المقدسات : الأغاني الوطنية وأم كلثوم التى اعتدنا أن نعتبرها مصر بشكل ما .. »

لكن التغيير الذى وجدته فاحشًا ويهدم الكثير من المسلمات عندى هو هذا (الفُجر) بضم الفاء الذى تتعامل بـه الإعلانات التلفزيونية هذا العام ..

فى دراسة ممتعة فى (الإيكونوميست) قرأت عن تجربة قام بها أحد أساتذة سيكولوجية الإعلان الذى قال إن هناك طريقتين للإقناع .. الطريقة ألفا التى تقوم على ترغيبك فى السلعة ، والطريقة جاما التى تقوم على إزالة مقاومتك .. الإغراق مهم جدًا للطريقة جاما .. دعك من التظاهر بالدقة .. عندما أرسل هذا العالم تلاميذه يتسولون خمسة دولارات لم ينل أحدهم شيئًا ، بينما عندما تسولوا سبعة دولارات ونصفًا حصلوا عليها !.. إن مبلغ سبعة دولارات ونصف معقد لا يسمح بالتفكير ويزيل بالتالى مقاومتك غير الشعورية .. هذا يفسر الـ 19.99 الشهيرة فى أسعار السلع ، ويبدو أن سيكولوجية الإعلان عندنا تلعب على الطريقة جاما لكنها كى تهدم مقاومتك تحاول تسفيه ما كنت تؤمن به من قبل .. أنت كنت مخدوعًا واهمًا .. فلتفق وتشتر سلعتنا ..

منذ زمن بعيد وقيمة الكفاح والعمل معنى مقدس لا يمكن المساس به ، لكن إعلانات التلفزيون اخترقت هذا التابو ببساطة .. المهندس عباس كافح فى تعمير الصحراء عشرين سنة حتى صار شيخًا أصلع مهدمًا واشترى سيارة مرسيدس .. يا له من أحمق !.. بينما الولد الروش فلان اتصل برقم هاتفى من (0900) وعلى الفور حصل على نفس السيارة ..!

هكذا فى ثوان سخر الإعلان من قيم الكفاح ومن تعمير الصحراء ومن كل شيء .. لم تعد هناك قيمة فى العالم إلا الروشنة والاتصالات ..

بدأ الأمر على استحياء مع بداية الانفتاح فى أوائل الثمانينيات ، عندما سمح التلفزيون لمظاهرة شعبية بأن تظهر على شاشته .. كانت مظاهرة تردد من حناجر بحت بالهتاف : مش عاوزة سؤال طبعًا مينرال !.. هؤلاء ناس حملوا قلوبهم على أيديهم وودعوا أطفالهم من أجل القضية الوحيدة التى تهم ومن أجلها نضحى بكل مرتخص وغال : المياه المعدنية ..

بعدها رأينا مع هشام سليم كيف أن شرائح البطاطس المقلية هى العامل الوحيد الذى يجمع طبقات الشعب وكل فئاته .. وظهر أحمد السقا الذى يضغط عليه الزبانية ويعذبونه وهو مربوط فى قبو مخيف ، لكنه مصر على الهتاف من أجل قضيته : حاجة ساقعة ببسى .. ويوشك أن يقول : والله لأموتن عليها ..

الفتى (الروش) يعانى من أن أباه فى العيادة طول اليوم لا يفعل شيئًا إلا أن يعد المال .. لكن أنا (مكبر دماغى وبشرب مش عارف إيه كده) ..

حتى طريقة نطق الحروف السريعة نفسها توحى بالاستهتار .. هناك مذيع إعلانات لا أعرف اسمه لكنه دخل هذا المجال مع ظاهرة (طارق نور) فى بدايات الانفتاح ، ويوشك أن يكون المذيع الأوحد الآن . هو الذى نسمع صوته يقول : (أمبير كرارة) فى البرنامج الشهير .. هذا الصوت الرفيع المنبهر دائمًا يعبر أصدق تعبير عن السعار الاستهلاكى الذى أدخلنا فيه السادات ، فلو كان لهذا السعار صوت لكان صوته .. الحق نفسك .. وفر فلوسك .. انسف .. جدد .. اشتر الآن

المجال الثانى الذى خرقت فيه الإعلانات التابو هو مجال الدين .. هذه ظاهرة ذكية أخرى تستغل (إيمان الروشنة) تلك الظاهرة الجديدة التى تغزو أوساط الشباب .. الشباب الثرى أو المستريح يشعر بتأنيب الضمير بين دنيا مغرية ودين يناديه فيتخذ هذا الحل الوسط . اللحية الأنيقة القصيرة والبدلة السوداء والعطر الفاخر والموبايل مع التدين .. هكذا يشعر بأنه جمع بين الدنيا والدين ، وهذه الظاهرة هى التى أفرزت الحجاب الذى يُلبس على الجينز أو الثياب الضيقة مع ماكياج كامل يدغدغ فى الرجل الشرقى ذكريات عصر الجواري؛ فالفتاة تلبس ما تحب لكنها تضع إصبعيها فى عين من يجرؤ على أن يطالبها بالحجاب الصحيح .. ولو لم تجد لها مكانًا محجوزًا فى الجنة فلسوف تندهش بحق . من أفضل ما أفرزته هذه الظاهرة على كل حال ذلك الشاب عمرو خالد الذى هو صورة أنيقة معاصرة للداعية ، والذى ينسخ الشباب محاضراته ويتداولونها عبر شبكة الإنترنت ..لم ترحم الإعلانات ظاهرة التدين هذه وقررت أنها مفيدة جدًا .. لقد انتهى عصر صوت محمد الطوخى الوقور المتهدج الذى يقول : وهبة الجزء عشرة جنيهات .. للمرة الأولى نسمع عن حج خمس نجوم وعن إيمان الموبايلات .. هناك إعلان جذاب يسمع فيه الشباب أغنية دينية من الموبايل فيتركون لعب الاسكواش نشاط الشباب المصرى المعتاد ليلبوا النداء .. وهكذا تصل الرسالة : اشتروا خطوط الموبايل الجديدة وأعطونى مالكم كى ننعم جميعًا بلذة الإيمان ومستقبل باهر فى حب مصر ..

ماذا يفعلون بك يا وطنى ؟.. هل هم شياطين تتحرك طبقًا لخطة مرسومة أم هم مجرد بلهاء متخبطين لا يهمهم إلا الشراء ؟.. لا أدرى . لكننى أرى مستقبلاً باسمًا من الشباب الروش الذى يكسب سيارة مرسيدس بالموبايل ويتبادل الأغانى الدينية ويؤمن أن المهندس عباس الذى عمر الصحراء أحمق .. فقط أدعو الله أن يقبض روحى قبل أن أقتنع وأجرى أول اتصال برقم (0900) اللعين !

حيوانات غير حساسة !

فى مشهد ساخر من فيلم (الساحر) يريد محمود عبد العزيز أن يربى حصانًا فى شقته الضيقة ، ويطلب من سائس خيول أن يعنى به . سائس الخيول هو ذلك الممثل العجوز العبقرى فتوة (ساعة لقلبك) الذى توفاه الله والذى لا أستطيع تذكر اسمه ، ولا تطالبنى بأن أتصل ببلال فضل فى هذه الساعة المتأخرة لأسأله .. يطلب السائس من محمود عبد العزيز أن يوفر للحصان مساحات خضراء يرمح فيها ، فيكون رد محمود : « اتصرف .. ما احنا عايشين من غير غيطان ومتنيلين أهه .. » فيقول السائس عبارة عبقرية السخرية : « أصل دى حيوانات حساسة .. مش زينا ! »

نعم .. نحن (................) .. هذا صحيح . لا يوجد حصان يحترم نفسه يتحمل أن يعيش فى شقة ضيقة أو عشة فى العشوائيات أو خيمة إيواء أمامها جبل قمامة ويخرج لعمله وسط المجارى الطافحة ، بينما نحن أثبتنا أننا قادرون على الحياة بعد ما أكلنا الورنيش الأسود والفورمالين والسيراميك المطحون والخضر المسرطنة واللحوم الفاسدة التى تخلص منها الاتحاد الأوروبى والطيور الجارحة .. قادرون على الحياة فى أية ظروف .. راجع عدد الحيوانات التى هلكت فى حديقة الحيوان كما نشرت الدستور ، لتعرف أن هذه الحيوانات الحساسة لم تتحمل ظروف القذارة وقشر البطاطس الذى يطعمونه للدببة واللحم الفاسد الذى تأكله الأسود ، دعك من الذين يسطون على الجمال ليسرقوا لحم هذه الكتف أو تلك . جرب أن يتسرب أى نوع من التلوث لحوض أسماك الزينة وراقب كيف تطفو الأسماك ميتة على السطح بعد ربع ساعة .. نحن لا نطفو ميتين لأننا لسنا حيوانات حساسة ..

عندما قابلت للمرة الأولى ذلك الصديق القادم من قطر من أجل إنهاء بعض الأعمال ، وجدت أنه يقيم فى جناح فاخر فى فندق مهم بالقاهرة .. إنه فى الثلاثين من عمره ، وبرغم هذا هو مخول بإجراء صفقات تجارية مهمة جدًا لبلاده . الانطباع الذى أخذته عن قطر ودبى هو أنهما بلدان غير مثقلين بأثقال التاريخ والريادة والأبوة والأمومة ، وإنما هما على استعداد دائم للتطور والتغيير والتعلم . عندما يتضخم كبرياؤك وتعتقد أن الآخرين لا يمكن أن يعلموك أى شيء فأنت تنهار بسرعة لا تصدق . وقد رحب بى وجلس يحكى لى انطباعاته عن مصر ..ثم قال لى فجأة :

ـ « حياتكم قاسية جدًا هنا .. لا أعرف كيف تتحملون هذا كله ! »

ذات الكلمة قالتها لى منذ أعوام سائحة هندية مرهقة حمراء العينين حافية القدمين فى مطار الأقصر تنتظر إقلاع طائرة مصر للطيران التى تأخرت عشر ساعات ! كان زوجها الهندى العجوز الأشيب جالسًا يطالع فى نهم كتاب (ماذا حدث للمصريين ؟) لـ (جلال أمين) مترجمًا للإنجليزية ، وقد بدت عليه ملامح ممارس اليوجا الذى يحاول ألا ينفعل . وددت لو قلت لها : إننا (...............) ، لكن فيلم (الساحر) لم يكن قد عرض بعد ، لهذا لم تخطر بذهنى هذه العبارة ..

قالت لى السائحة :

ـ « يخيل لى أنه لا أحد فى بلادكم عنده إحساس بالمسئولية ! »

ابتلعت الإهانة فى صمت ، فأنا لن أدافع عن هؤلاء القوم الذين يعتقدون أنهم يتقاضون أجرهم مقابل تدمير السياحة فى مصر .. وابتلعت فكرة أن هذه السائحة سوف تعود لبلدها ؛ كى تحكى لهم عن معاملة العبيد التى عوملت بها فى مصر ..

كان كل شيء فى المطار يوحى بالتخبط والارتباك واللا مبالاة .. كل شيء قاس مرير ، وقد رأيت مواقف ميكروباص أكثر نظامًا والتزامًا ..

منذ أيام وصلنى خطاب من البنك يقول : « نرجو الحضور إلى قسم الائتمان بمجرد وصول هذا الخطاب للأهمية » . كل هذا جميل لكن الخطاب أرسل منذ شهر ونصف !.. شهر ونصف كى يصل الخطاب من البنك إلى بيتى ، وهى مسافة تقدر بخمسمائة متر لو كان الخطاب يمشى على قدميه ويعاكس البنات ويجلس على المقاهى . تشكو فى البنك فيقسمون أنهم أرسلوا الخطاب فور توقيعه ، ويقول المحاسب الشاب ضاحكًا : « انت عارف البوسطة بقى .. هيء هيء .. .. » كأنه من الطبيعى جدًا أن يتأخر الخطاب 45 يومًا ، ولو شكوت فلمن ؟.. النتيجة أنك تبتلع غيظك وتنسى الأمر .

من المعجزات الحقيقية أن يصل القطار فى موعده .. تسأل فى المحطة فينظر الموظف للسماء فى تصوف ويقول : « ربنا يسهل .. » كأننا نتحدث عن رزق قد يأتى أو لا يأتي . أقسم بالله أننى انتظرت القطار الأسبانى الذى يتحرك من طنطا إلى القاهرة فى الثانية عشرة والنصف .. انتظرته ذات مرة حتى الثانية والنصف !.. وعندما سألت فى مكتب المعاونين قيل لى إنه ما زال فى دمنهور ! هكذا أعدت التذكرة وأنا أتصور النشاطات الليلية الغامضة التى كان يمكن أن أقوم بها فى القاهرة لو انتظرت القطار !.. صار من الطبيعى جدًا والرائع ألا يتأخر القطار أكثر من نصف ساعة .. لا أعرف ما يفعله الطلبة الذين هم ذاهبون إلى الامتحان .. يقيمون فى القاهرة على سبيل الاحتياط ؟.. هل تضمن أن تصل لمكان ما فى القاهرة ؟.. ربما يعتصمون بالكليات طلبًا للمزيد من الاطمئنان

كل يوم يؤكد أن مرفق السكة الحديد انهار أو كاد ، والأدهى أن أسعار التذاكر تتواثب ، لكنهم جميعًا مطمئنون إلى أن زبون القطار سوف يأتيهم حتى لو صار سعر التذكرة مائة جنيه والقطار يتأخر عشر ساعات .. إننا (...............) لا تؤذيها هذه التفاصيل ..

يصعد الميكروباص على ظهر معدية فيسقط فى الترعة بمن فيه من بؤساء .. دعك من طقوس العيد الدائمة عندما تغرق المعدية نفسها بمن فيها .. عمارة فى الإسكندرية تنهار على سكانها بالكامل .. لا أعرف لماذا يموت المصريون عندما تقع الحوادث بهذه الكثافة .. لا يمكن أن تسمع عن عدد قتلى أقل من الثلاثين فى أى شىء كأننا دجاج (يفطس) .. لا يمر أسبوع من دون طفل تفترسه شبكة المجارى السعيدة .. كأننا نعيش حربًا ضروسًا لكن العدو من داخلنا نحن .. تتأخر سيارات الأتوبيس على الحجاج المصريين فيتظاهرون وتقع حالات وفاة فى البعثة المصرية ..

هناك مجموعة صور متداولة جدًا على شبكة الإنترنت والمجموعات البريدية تحمل غالبًا عنوان (تبقى أنت أكيد فى مصر) ، وهى مجموعة فريدة فعلاً من الصور التى لا يمكن تصديقها .. الحمار الذى تم تحميل عربته أكثر من اللازم فمالت وصار معلقًا فى الهواء .. الرجل الذى يجلس على جهاز تكييف ليصلحه فى الطابق السابع .. السيارة التى التوت قوائمها فكاد سقفها يلمس الأرض وبرغم هذا تمشى .. الشاحنة المحشورة تحت كوبرى ، والرجل الذى وضع فى سيارته مفاتيح (ماجيك) من التى تستعمل فى البيوت ..

هذه الصور توحى لك فعلاً بأننا حيوانات .. لكننا حيوانات غير

حساسة مثل حصان (محمود عبد العزيز) ، بل هى قادرة على قبول أى شىء والتكيف مع أى وضع .. فقط ليكن هذا بالتدريج وببطء ، تصديقًا لمقولة (ألبير كامى) فى (الغريب) : « اكتشفت أن كل وضع قابل للتعود عليه ، حتى إنهم لو حبسونى فى برميل لرحت أراقب السحب وأخمن شكل السحابة القادمة » . ربما كان كامى من (...............) مثلنا . كان يؤمن بأن القضية الفلسفية الأكبر هى الانتحار ، فماذا كان سيقول لو رأى حالنا اليوم ؟!

خواطر تغم الخاطر

موعد دفع فاتورة الهاتف الذى بدأت أشعر بأنه أسبوعى لا كل ثلاثة أشهر . طبعًا لم أستطع معرفة قيمة فاتورتى مسبقًا لأن الرقم المخصص للاستعلام لا يرد للأبد ، وموقع الإنترنت يخبرنى أن هناك خطأ فى الصفحة . إذن أحمل معى ما تيسر من مال ، وأدخل السنترال فى العاشرة صباحًا وأنا أهنئ نفسى على عبقريتى لكونى اخترت الموعد الذى يكون فيه الموظفون فى العمل حول طبق الفول بالزيت الحار ، لكنى أكتشف أن مصر كلها شعب من العباقرة ، وأن الجميع فكر فى الشىء نفسه . والسؤال هنا هو : إذا كنا جميعًا هنا فمن هناك ؟ من الذى يعمل بالضبط ؟

طوابير .. طوابير .. تلوت حول نفسها كالثعابين لضيق المكان حتى إن الأخير يقف جوار الأول . لا أحد يتحرك .. وتعرف أن جهاز الكمبيوتر اللعين معطل .. الكمبيوتر الذى جعل الحياة أسهل فى كل العالم ما عدا مصر . بل هو زاد الحياة تعقيدًا . فى السنترال الكمبيوتر معطل ..فى البنك الكمبيوتر معطل . فى محطة القطار الكمبيوتر معطل وعليك أن تقف بانتظار الفرج إلى أن يرحل قطارك . إن بركات الحكومة الألكترونية تنهال علينا ، ومن الواضح أن الأمر لا يمت للعولمة والثورة الرقمية قدر ما يمت لجعل حياتنا زى الطين ، أو كما تصفها جريدة العربى الناصرى بـ (هيكلة الدهولة) .

الحر خانق .. وعلاقات بشرية عميقة انعقدت بين الواقفين ، وثمة رجل عجوز رأى وجهى المتجهم العكر فقال لى بحكمة متراكمة من عهد خوفو :

ـ « اضحك .. اضحك .. محدش واخد منها حاجة .. احنا دلوقت

مع بعض وبعد ساعة ساعتين مش حنتقابل تانى .. »

أحد الواقفين يؤكد أن هذا لا يحدث فى دبى لأن هؤلاء الناس عندهم مخ . وآخر راح يحكى كيف أن السعودية متقدمة وأحسن منا مليون مرة ، بينما راح غلام مراهق لا تتجاوز سنه الثانية عشرة يردد بصوته الرفيع مقلدًا الرجال الكبار :

ـ « كل ده بسبب الحكومة أصلاً .. »

وأنا أراهن على أنه لا يعرف معنى كلمة (حكومة) بدقة . كمية سباب هائلة تلقتها الحكومة فى ذلك اليوم فلو كانت رجلاً لانتحر من العار والخجل . ورجل حار الدماء محمر الوجه غارق فى العرق يصيح :

ـ « كل ده عشان ندفع فلوس يا ظلمة يا ولاد الـ (. . .) ؟ أمال لو بناخد فلوس ! »

هنا انبرى رجل من الذين يلبسون بذلة صيفية رمادية قصيرة الكمين يقول :

ـ « عندك عبد العزيز حجازى مثلاً .. »

فنظرنا جميعًا للرجل لنعرف ما دخل الرجل المحترم عبد العزيز حجازى بهذا الذى نحن فيه ، لكنه كان قد أنهى ما يريد قوله . لم يكن عنده سوى مبتدأ بلا خبر . فقال واحد آخر :

ـ « والا الجمصى .. راجل محترم بصحيح .. »

المشكلة عندنا أن كل شىء (يبدو) جيدًا لكنه ليس كذلك .. الكمبيوتر فى كل مكان ، لكن ماذا قدم لنا فعلاً؟. بعبارة أدق ماذا أخذناه منه فعلاً ؟.. فى المدارس لا يتجاوز دوره دور (الفاسوخة) التى

ترضى السيد وكيل الوزارة ، والأولاد لا يتعلمون إلا برنامج الباوربوينت وفى كل عام يبدءون من جديد بلا تراكم من أى نوع . كتبت قبل هذا عن كتاب الكمبيوتر للصف السادس الابتدائى لغات وكيف وجدته مجرد وسيلة استرزاق .. ماذا يطلقون عليها فى لغة الشباب ؟.. آه .. (نحتاية) .. هناك كمبيوتر فى بنك القاهرة وبنك مصر لا يعمل تقريبًا ، ويبدو أنه ينتظر الخصخصة ليفيق . كمبيوتر محطة السكة الحديد الذى يعتقد أن عمله منعك من السفر . كمبيوتر فى كل بيت ، لكنه يُستعمل كجهاز فيديو وجهاز كاسيت وهاتف ومجلة بورنو .. يُستعمل لكل شىء ما عدا الغرض الذى اخترع الكمبيوتر من أجله . بالفعل عندما تدخل المواقع العربية على النت تجد الكثير من إهدار الطاقات . مليون موقع يدعوك للدخول لترى مشهدًا شنيعًا لا يناسب ضعاف القلوب ، وتدخل وتسجل لتكتشف أن المشهد بيضة مكسورة .. وتنهمر التعليقات على مدى ست صفحات من طراز (هى هى) و(ها ها) و(الله ما جصرت يا أخى . يعطيك العافية) . دعك بالطبع من ذلك الولع المجنون بكلمة (فضيحة) لدرجة أن هناك منتدى كاملاً اسمه (فضيحة) . كل شىء فضيحة وتعال لترى الفنانة الفلانية وهى تخلع قطعة الثياب الفلانية ، وشاهد بوش وقد أصابه العته فعجز عن الكلام فى الكونجرس ، وهذا فيلم سرى تخفيه الحكومة الأمريكية . تدخل على سبيل الفضول لتجد أنها دعابة مونتاج مسروقة من موقع غربى لا أكثر . دعك من مجموعات (فيس بوك) و(هاى 5) و(زوربيا) و .. و .. التى لا تفهم أبدًا الغرض منها ولا كيف تشق طريقك وسطها .

المدونات من النشاطات المهمة على الإنترنت وقد قال أحد خبراء

النت إنها والويكيبيديا أهم ما أضافته الإنترنت للحضارة البشرية . بعضها جيد جدًا والحق يُقال ، لكن عليك أولاً أن تجد طريقك وسط كل هذا الرغى .. . كلام كثير جدًا جدًا بحيث لا يترك لك وقتًا لقراءة أى شىء آخر ، ومئات الفتيات يحدثن أنفسهن بالعامية على طريقة (الناس اتغيرت وما بقاش فيه خير فى النفوس) وهو ذات الكلام الذى يكتبنه فى آخر كراسة المحاضرات .

قلت للذى يقف أمامى إننى خلفه ، وللذى يقف خلفى إننى أمامه . وغادرت السنترال لأجلس فى كافتيريا قريبة إلى أن يأتى الفرج . هنا لاحظت ظاهرة غريبة هى أن كل الكافتيريا تمتلئ بالطلبة .. بالتحديد طالب وطالبة على كل منضدة ، ومن الواضح أنهم من المعهد المحلى التعاونى للتخطيط العمرانى أو أى من هذه المعاهد التى لا تعلم شيئًا ولا مستقبل لها على الإطلاق . هناك شيشة فى يد الفتى يدخنها بطريقة مفتعلة توحى بالحنكة والمعلمة ، والفتاة تلبس ذلك الحجاب المزركش .. حجابين فى الواقع ، لأنها تضع ثلاثة إيشاربات فوق بعض إلى حد التحول إلى عروس حلاوة من عرائس المولد ، وتلبس سروال جينز واسعًا جدًا وحذاء كوتشى وبلوزة وفوق كل هذا فستان شفاف بحمالات كأنه قميص نوم . ثياب معقدة جدًا لا يمكن فهمها ولا يمكن أن تعتبرها لـ (درء الفتنة) قدر ما هى نوع من لفت الأنظار المجنون . والفتاة نفسها تعانى من حالة زيادة عارمة فى هرمونات الأنوثة إلى حد أنها بدأت تتحول إلى جاموسة . وهى تقضى الوقت فى تفقد شاشة الموبايل الرخيص فى عصبية ، ثم تقول للفتى :

ـ « أنا بصراحة حيرانة يا حلاء .. حادل إنسان ممتاس لكن الكصة دى لاسم تنتهى .. أنا قلت لماما إنى مرتبطة بالإنسان ده لكنها مسرة على إنى أكمل المحهد .. »

يكتفى بأن يضيق عينيه وينفخ دخان الشيشة فى حنكة ورجولة مدركًا خطورة ما تقول ، وأنا أضحك فى سرى . تذكرت عبارة سمعتها فى مسلسل أجنبى ، تقولها أم مذعورة رأت ابنتها مع أصدقائها المراهقين : « الهرمونات كثيفة فى هذا المكان لدرجة أنه يمكننى أن أقصها بالمقص ! » طبعًا حلاء غير مهتم بمشكلتها مع حادل ولا هى مهتمة .. إن هو إلا شبق جنسى رهيب يوشك أن يتحول لكارثة لو أنهما وجدا مكانًا ينفردان فيه . والسؤال من جديد هو : ما دام كل هؤلاء هنا فمن هناك ؟.. من الذى يملأ قاعات العلم الآن ؟

شربت القهوة وعدت للسنترال . لم أجد الذى كان أمامى وكنت خلفه ولا الذى كان خلفى وكنت أمامه . وجوه جديدة غاضبة تصر على تمزيقى إربًا لو أصررت على العودة لمكانى .الكمبيوتر ما زال معطلاً والحمد لله على كل شىء . هكذا وجدت أن علىّ أن أطوى خيامى وأرحل . يوم كامل ضاع مع حلاء ودبى والحكومة . ما تعرفش وحياة والدك شخصًا طيبًا يدفع لى فاتورة الهاتف ويأخذ خمسة جنيهات كاملة ؟

التصطيب وتكنولوجيا المعلومات

يندهش عامة الناس عندما يكتشفون أن إنجليزية الأطباء ليست جيدة إلى الحد الذى يعتقدونه ، وأن الطبيب قد يقف أمام عناوين جريدة إنجليزية أو نص أدبى حائرًا عاجزًا عن الفهم . السبب الأول هو أن ما يتعامل معه الطبيب ليس اللغة الإنجليزية بالضبط ، ولكن لغة أقرب إلى اللاتينية فى معظمها .. والسبب الثانى أننا اعتدنا ونحن طلبة طب أن نستخدم تلك الطريقة الغربية التى أطلق عليها اسم تكنو آراب فى مزج المصطلحات اللاتينية بالعربية ، لتتكون تركيبات لغوية ممسوخة مثل : النرفات والدراجّات لجمع لفظتى nerve و drug بالترتيب .. وحينما تخرجنا صرنا نستعمل ذات الطريقة على غرار (الجرح حيسبتك) أى أنه سيصير ملوثًا Septic .. لم أجد بعد الطبيب الذى لا يقول He is nauseating يريد القول إن المريض يشعر بغثيان ، بينما معنى الجملة لغويًا أن المريض (يقرف) .. دعك من تعبيرات مثل أن (المريضة جالها painful) بمعنى أنها تتألم .. ومعناها الحرفى أن المريضة جاءها مؤلم !.. دعك من النطق الذى يثير سخرية الأجانب لكلمات مثل Umbilicus و Jejunum, و Vagina .. فهذه أمور صارت لها قوة الدين ولا يجرؤ أحد على تغييرها.

الغريب أنك تدرك الخطأ لكنك مع الوقت تعتاده حتى لا تبدو متحذلقًا سخيفًا .. ثم تصير أنت نفسك مصدرًا لهذه اللغة ، وتنقلها لمن يأتى بعدك .

فيما بعد وجدت أن كل مهنة ابتكرت لنفسها هذه اللغة الخاصة بها .. كنا فيما مضى نسمع أن (الكتاوت) بايظ من كهربائى السيارات ، وقد احتجت لوقت طويل حتى أعرف أن معناها هو الـ Cut-out أى قاطع الدائرة .. لكن هذا على قدر تعليم الرجل على كل حال فلا تثريب عليه .

أما انتشار الكمبيوتر فى مصر فقد ولد لدى الشباب مجموعة عجيبة من مصطلحات التكنو آراب .. مثلاً يقول لك الفتى فى حماس إنه حيصطّب البرنامج .. وإن التصطيب خلص .. تستغرق نصف ساعة لتفهم أنه يتكلم عن Setup أى تنصيب البرنامج .. وقد صارحنى مهندس الكمبيوتر من أنه يخشى أن الهارد بتاعى حيبيد (بتشديد الياء الأخيرة) فظللت قلقًا لأن الهارد حيبيد ، ثم عرفت أنه يريد قول إن قرصى الصلب قد يمتلأ بالقطاعات التالفة .. هكذا أثريت العربية بفعل جديد هو (يبيد) بتشديد الياء بمعنى (يصير تالفًا) وهو مشتق طبعًا من Bad الإنجليزية ..

قال لى مهندس اتصالات إننى لا أستطيع عمل (داونلوت) لأن عندى (ترواجان) .. . فهمت فيما بعد أننى لا أستطيع عمل تحميل Download عبر الشبكة لأن عندى فيروس من نوع حصان طروادة Trojan .. لكنه مصر على نطق اللفظتين بالطريقة الخطأ..

يأتى رمضان فينهمك الشباب فى فرمتة الهاردات .. أى إنهم يقومون بعمل تهيئة Format للأقراص الصلبة لمسح ما عليها من أطنان الصور العارية .. ثم يأتى يوم 20 رمضان فينهمكون فى البحث عمن لديه مجموعة من تلك الصور لإنقاذ الموقف قبل العيد ..

أما عن المحادثات عبر الإنترنت وهى بالوعة الوقت التى تنمو بنمو البطالة وبنفس المعدلات ، فهى نشاط بشرى لعين يقضى بأن تجلس أمام الشاشة تحدث أشخاصًا لا تعرف عنهم أى شيء سوى ما يقولون عن أنفسهم ، وغالبًا ما تستعمل كوسيلة للتنفيس الجنسى من منطق أنه لا أحد يعرفك على الشبكة ، واللى يعرف خالى يقول له .. هكذا تخرج أكثر الدوافع كمونًا وكبتًا ..

ولهذا نسمع دائمًا عن قصة الحب المثلى التى تنشأ بين فتاتين ثم يتضح أنهما فتيان يضحك كل منهما على الآخر .. هذه المحادثات أوجدت لغة جديدة خاصة بها هى كتابة العامية بنفس الحروف اللاتينية بحيث يصير النص مستحيل القراءة ، وتجد كلمات عجيبة على غرار :

Salamo 3alaikom و Besara7a لاحظ أن رقم 3 يدل على حرف العين ، ورقم 7 يدل على الحاء ، ورقم 2 هو الهمزة ..

لا أفهم السبب .. لماذا لا نستعمل الإنجليزية كما هى وبشكل دقيق واضح ، أو نستعمل العربية الجميلة المحكمة ؟.. لماذا لا نقول (تنصيب البرنامج) أو Program setup بدلاً من تلك اللغة الهجينة التى ليس لها أب شرعى ؟.. اللغة التى لم تجعلنا عربًا ولم تجعلنا خواجات ..

المشكلة فى مصر عامة هى أن الناس لا تكون لكنها تعرف كيف تبدو .. أى مسئول يرى ازدحام مقاهى السايبر وعدد ساعات الإنترنت سوف يقول فى فخر : إن التكنولوجيا غزت مصر .. السؤال هنا هو ماذا يصنعون بهذه التكنولوجيا ؟.. أعتقد أنك ستجد أن 5٪ فقط يستعملون الإنترنت للحصول على معلومات والباقى يستخدم فى تحميل الأفلام والصور إياها والشات .. وهناك من يستخدمون الإنترنت مثل المحوجلى الذى يتلقى أية رسالة فيرسلها لعشرين واحدًا قبل أن يتبين ما هى .. قديمًا انتشرت تلك الورقة التى تحكى عن وصية حلم بها خادم مسجد الرسول (ص) وقرر أن يوزعها على الناس ، فمن لم ينسخ تلك الورقة عشرين مرة ويوزعها على معارفه حدث له كذا وكذا .. علماء الدين قالوا إنه موضوع لا أساس له من الصحة ودعابة عملية قاسية جدًا .. اليوم يستخدم شبابنا

الكمبيوتر لعمل الشىء نفسه .. تصلك رسالة بالبريد الإلكترونى تخبرك أن وقعتك سودا بإذن الله لو لم ترسلها لثلاثين واحدًا أو تجرأت ومسحتها . هكذا تستخدم التكنولوجيا فى خدمة الخرافة التى ليس لها أساس دينى.

هذه من استخدامات الإنترنت المصرية العبقرية كما ترى .. والحديث يطول على كل حال ، لهذا نكتفى بهذا القدر اليوم قبل أن يهنج بتشديد النون جهاز الكمبيوتر منى !

المتحـرشـــون

من الأشياء التى تضايقنى فعلاً أننى لم أدرس الإعلام ، وبالتالى لا أجد الإجابة عن أسئلة أطرحها على نفسى كثيرًا . ثمة أشياء قد يعرفها المرء بالفطرة أو الخبرة ، لكنها لا تكفى لإعطاء إجابات ، إلا إذا كانت الفطرة والخبرة تسمحان لرجل الشارع بإبداء رأيه فى التصميم الهندسى لكوبرى (أبو العلا) ، أو الطريقة المثلى لعلاج سرطان الكبد ، أو قواعد تقسيم الميراث ..

ظاهرة التحرش .. هذا هو العنوان الذى تصادفه تقريبًا فى كل جريدة يومية أو أسبوعية ، وفى كل موقع إنترنت . كلما همد الموضوع نوعًا امتدت يد تحرك الصابون من جديد ليمتلئ السطح بالفقاقيع .. تحرش جماعى فى العيد .. مخرجة الأفلام التسجيلية الباسلة (نهى رشيد) التى صممت على ألا تترك المتحرش بها يفر .. إلخ .. من ثم تبدأ هوجة مقالات وبرامج التحرش من جديد . مقال طويل يبدأ بقصص تحكيها عدة فتيات عما تعرضن له من تحرش لفظى أو فعلى ، مع تأكيد بعضهن على أنهن محجبات لكن الحجاب لم يمنع فعل التحرش . المركز المصرى لحقوق المرأة ينشر تقريرًا يؤكد أن 83٪ من المصريات و98٪ من الأجنبيات يتعرضن للتحرش الجنسى . ثم ينتقل المقال إلى رأى علماء النفس والاجتماع .. الردود محفوظة وهى أن البطالة والضغوط الاقتصادية تدفع الشباب لهذا .. ربما يأخذ الرد شكلاً سياسيًا أكثر فيتهم الشرطة بالتقاعس بسبب انشغالها بالأمن السياسى بدلاً من الأمن الجنائى . ثم ينتهى المقال لو كان فى موقع إنترنت بردود قراء متناقضة متصارعة ،

منها من يؤكد أن الفتيات اللاتى نزلت سراويلهن وارتفعت بلوزاتهن هن السبب ، ومن يؤكد أن العودة للدين هى الحل ، ثم تتدخل فتاة لتؤكد أنها محجبة وقور ، لكن الأوغاد لم يتركوها وشأنها .. إلخ .

قل لى بصراحة : كم مرة قرأت هذا المقال بهذه التفاصيل ؟

القضية معقدة ومتداخلة ، ويمكن بسهولة اتهام كل الأطراف .. لو اتهمت الفتيات فقط فأنت ترضى نفسك وتشعر شعورًا زائفًا بالعدالة الشعرية ، فقد نلن ما يستحققن .. فى معظم حوادث التحرش والاغتصاب وحتى القتل التى تسمع عنها اليوم ، تتلقى الضحية قدرًا لا بأس به من اللوم . هذا يشعرنا بالأمن وبأن هذا لن يحدث لنسائنا .. ذات مرة حكى لى أحدهم قصة عن فتاة اغتصبت ، فطلب القاضى منها أن تريه كيف كانت تجلس قبل الجريمة ، وماذا كانت ترتدى .. فلما رأى المشهد وجده مثيرًا جدًا لدرجة أنه برأ المتهم فورًا !.. هذه القصة تخريف كما هو واضح لكنها تعكس نظرة المجتمع الانتقامية للفتاة المغتصبة أو المتحرش بها . وكعادة العبقرى يوسف إدريس قال هذا كله منذ أربعين عامًا فى قصة قصيرة عن الفتاة التى تعرضت لتحرش ثقيل العيار فى الحافلة ، فلما صرخت انهال الناس عليها سبًا ولومًا وضربًا ثم ألقوا بها كالعاهرة من الحافلة . عالم الأنثروبولوجى المهذب الذى راقب هذا المشهد حاول ببراءة أن يسأل الناس عن سبب هذا السلوك الجماعى المحير ، فضربوه بدوره وكسروا له نظارته ..

لو اتهمت الفتية فقط فأنت تتناسى كل هذا العبء الهرمونى والنفسى والاقتصادى على عاتق شاب لا يجد أملاً فى أى شىء ، وتتجاهل منظر

الفتيات فى الشوارع .. لسان حال الواحدة منهن يقول : « عجبًا لهؤلاء الشباب .. كشفت عن صدرى وضيقت الفستان على ردفى ، وبرغم هذا يصرون على عدم التعامل معى كإنسانة بل يريدون الظفر بهذه الأشياء .. يا لهم من حيوانات !! » الفتيات يعتقدن فعلاً أنهن يعرفن السلعة الوحيدة التى تضمن لهن المستقبل ، ويتصرفن على هذا الأساس لكنهن يتضايقن عندما يحاول الجمهور غير المستهدف الحصول عليها !.. تبنى هذا الرأى لا يخلو من منطق لكنه لن يروق كثيرًا لجمعيات حقوق المرأة ..

لو اتهمت الحكومة فقط فأنت تنسى أن عقوبة الإعدام لم تمنع الاغتصاب .. بالعكس هذه الجريمة تتزايد .. فما السبب ؟

أنا لا أتهم هذا أو ذاك أو أعلق على أى شىء ، لكنى فقط ألقى أسئلة عن تأثير الكلام عن ظاهرة ما بهذا الإلحاح .. هل يكرسها ويثبتها ؟.. الغربيون يعرفون ما يسمى بـ (تأثير فرتر) عندما انتحر بطل قصة (آلام فرتر) لـ (جوته) بإطلاق الرصاص على رأسه .. بعدها صارت موضة أن ينتحر العاشق الفاشل بإطلاق النار على رأسه . يقول أوسكار وايلد : « الطبيعة تقلد الفنان » ، فهل المجتمع يقلد الإعلام؟ .

منذ أعوام دأبت جريدة الأهرام على نشر قصص حقيقية تتعلق بزنا المحارم .. تنشرها بانتظام أسبوعى غريب ، وقد اكتشفت أن هناك كثيرين ينتظرون هذه المقالات فى شوق لا يمت للتقزز بصلة .. باختصار وبلا تزويق كانوا يتحمسون جنسيًا لقراءة هذا ، وبالتأكيد طرحت أمام كثيرين أساليب جنسية لم يتخيلوها من قبل .. نفس الشىء ينطبق على

أخبار حفلات الجنس الجماعى أو جمعيات تبادل الزوجات .. الرد الجاهز دومًا هو : « نحن نفتح الجرح لنخرج ما فيه من صديد .. » وهو رد منطقى ، لكن النتيجة هى أن الصدمة تتحول إلى اشمئزاز والاشمئزاز يتحول إلى دهشة .. والدهشة تتحول مع التكرار إلى لا مبالاة .. وفى النهاية لم يعد خبر (زنا المحارم) أو (تبادل الزوجات) يثير أى انفعال .. مجرد خبر كحوادث الطريق ..

الأمر مع الوقت تحول إلى عشق الصديد نفسه ..

هل كل المقالات التى تتحدث عن التحرش تبغى فعلاً فتح الجرح بمبضع الجراح ؟.. لا أعتقد .. معظمها (أكل عيش) واستغلال لمادة مثيرة بطبعها .. مادة تبيع وتحدث جدلاً ، أما ما بعد هذا فإن للمجتمع ربًّا يحميه ..

هل يمكن أن يكون كل هذا الكلام عن ظاهرة التحرش منبعًا متجددًا لظاهرة التحرش ؟.. هل ظاهرة التحرش وجه آخر للتطرف الذى يحمل سادية ومقتًا للمرأة باعتبارها مصدر الخطايا ؟.. أم إن هذا الاهتمام بالتحرش ناجم عن العولمة ومعايير تمكين المرأة التى وجدنا أنفسنا نتكلم بلغتها من دون أن ندرى ؟ كم من الكلام عن المرض يعتبر صحيًا وكم يعتبر جزءًا من المرض نفسه ؟

فعلاً أنا لا أملك أجوبة .. هذه من اللحظات التى يتمنى المرء فيها لو يجد الأجوبة عند خبراء الإعلام وأساتذته . ولسوف أكون سعيدًا جدًا لو اهتم أحدهم بى إلى درجة أن يرسل ردًا أنشره هنا !

عندما يخرج الوحش

الكبت أزمة عنيفة فى كل المجتمعات ، لكنها أعنف فى مجتمعنا ، ولا أعنى بهذا الكبت الجنسى فحسب بل العجز عن التعبير عن الغضب أو القهر أو الغيظ . تأمل لو أنك انفجرت فى رئيسك غاضبًا وقلت له رأيك فيه فالنتيجة هى : « انت مش عارف شغلك يا افندى ..خصم 15 يوم ومن بكرة فى الشئون القانونية » .

تنفجر فى أستاذك فتكون النتيجة : « مجلس تأديب وفصل .. »

تنفجر فى الضابط المستفز فتكون النتيجة : « انت حتطول لسانك يا روح أمك ؟ » ثم : « وبتفتيش المتهم قمنا بتحريز قطعة بانجو يحملها بغرض الاتجار » .

تتشاجر مع زوجتك : « انت ازاى تكلمنى كده ؟ . ماما كان معاها حق لما قالت إنك إنسان سافل .. »

تتشاجر مع أى واحد فى الشارع . النتيجة هى أن تصحو فى المستشفى لتتشاجر من جديد مع الممرضات .

هكذا لا يوجد مكان يتحمل انفجارك على الإطلاق ، وهذه مشكلة حقيقية لذا يبحث الناس عن مخرج ، وهذا المخرج قد يكون غريبًا .. فى كل رمضان سوف تقرأ فى الصحف قصة العامل الذى ذبح زوجته وأحرقها بالكيروسين لأنه عاد للبيت قبل أذان المغرب وهى لم تنته من طهى الفطور بعد . الأمر لا يتعلق بالجوع ولكن بإخراج شحنة الغضب والعنف الداخلى لأوهن سبب ، خاصة أنه لم يشرب شايًا أو يدخن منذ ساعات .. لهذا يصير خلقه أضيق من سم الخياط .

بالطبع لا يرتاح الكثيرون لهذه الطريقة من تنفيس الكبت التـى تنتهى بالمؤبد أو المشنقة حسب كمية العنف المكبوتة لدى القاضى وقت النطق بالحكم ، لكن هناك آخرين وجدوا طرقًا أسهل مثل صديقـى الـذى اعتـاد أن ينطلق بسيارته على الطريق السريع ليلاً عندما ينام الرادار بأقصى سرعة ، ويخرج رأسه من النافذة وينطلـق فى انفجـار من السباب والصراخ .. هـذا شيء أفهمه ..

فى لندن هناك حديقة (هايد بارك) التى يمكـن اعتبارهـا أكبر جلسة علاج جماعى فى التاريخ ، حيـث يمكنـك أن تقف على صندوق خشبى وتخطب فى الناس مطالبًا بقتل الرضـع أو أكـل الصراصير أو سلخ تونى بلير ، ولن يمنعك أحد مـن الكـلام .. بـل إن الشـرطة هنـاك لحمايتك .. هكذا يمكنك أن تخرج الأبخرة السوداء فـى صدرك مـن دون أن تجد يـدًا ثقيلة لمخبر اسمه (بسطويسى) يقول لك فى خطورة أمنية : « تعال كلـم الباشا كلمتين وارجع على طول .. »

هناك مخرج آخر كان سائدًا منذ أعوام ، وهو الكتابـة علـى الجـدران . فـى الخـارج يتخـذ هـذا الشكل من إخـراج الكبـت شكلاً فنيًـا اسـمه (الجرافيتى Graffiti) وله نجوم يعرفهم الناس هناك بالاسم . فى مصر نجد هذا النشاط بشكل محدود ، وإن كان الأستاذ اللباد يحكى عن نداء (شُرم برُم) الغامض الذى ملأ جـدران مصر قديمًـا ، وكـان فـى الواقـع صرخـة مكبوتة عبثية ضد الاحتلال الإنجليزى .

لكن نشاط الكتابة على الجدران يزدهر فعلاً فى دورات الميـاه عندنـا ، ولو أن عالمًا نفسيًا قـام بهـذه الدراسـة كريهـة الرائحـة لفهـم الكثير عن

النوازع المكبوتة لدى الناس . طبعًا يتخذ شكل الكتابـة هنـا تحررًا جنسيًا زائـدًا وشتـائم ورسـومًا بذيئـة .. فـى العصـر الحـالى هنـاك أرقـام موبـايل واتهامات لفتيات يذكرهن الشخص بالاسم ، فيشتمه واحـد آخـر بـأقذع الألفاظ .. وهكذا . من الصعب أن تجد دعوة للثورة أو نـداء سياسيًا فـى مكان كهذا طبعًا ، لكن المقياس واحد ..

اليوم ظهرت طريقة أخرى لإخـراج البخـار الأسـود هـى الإنترنت .. المدونات حل عبقرى تتكلم فيه كما تريد ، ولو كنت محظوظًا فلن يمسـك بك بسطويسى . التعليقات فى المنتديـات والتعليقـات علـى المقـالات هـى الأخرى تحتاج لدراسة نفسية مدققة . لأسباب كهذه يحجـم المرء عـن الكتابة فى أى موقع ينشر التعليقات مباشرة مـن دون مراجعـة ورقابـة ، لأن الأرجح أن تتلقى كمًا من الشتائم لا يوصف .. هل لأنك سيئ إلى هـذا الحـد ؟.. لا ، بل لأن من يرد عليك يحتاج إلى إخراج البخار وأنت فرصة سانحة .

فى المواقع التى لا تقوم بترشيح الردود ، يبرهن الشـباب العربـى علـى تحضره فعلاً .. ما دام لن يُقبض عليه وما دام لا أحد يعرف اسـمه ؛ فهـو يطلق العِنان لأفحش الشتائم التى تندرج تحت القائمة (د) فى تصنيفى اللغوى :

القـائمة (أ) : شتائم متحضرة وراقية ، مثل : (أنت غير مسـئول ، أنـت عميل ، أنت غير ناضج .. إلخ)

القـائمة (ب) : شتائم قاسية لكنها قابلة للنشر ، مثل : (مخبول غبى .. إلخ) .

القـائمة (جـ) : شتائم قاسية جدًا يعاقب عليها القانون لكنهـا مـا زالـت قابلـة للنشر ، وهى على الأعم أسماء حيوانات . هذه القائمة تتضمن

هواية التكفير أو الاتهام بالعمالة لكل من يختلف معك فى الرأى . مثلاً كل من يهاجم صدام حسين هو عميل للشيعة والرافضة ، وكل من يمتدح صدام حسين هو داعية دكتاتورية وعلمانى كذلك ..

القائمة (د) : شتائم فى منتهى البذاءة ولا يمكن حتى التلميح لها ، وغالبًا هى ذات طابع جنسى فاحش .. من الغريب أن هذه القائمة بالذات هى ما يفضل رواد المدونات وتعليقات المقالات استعماله .. حالة لا توصف من الانفلات العصبى والعقلى ، حتى لتشعر بأن كاتب هذه الكلمات يعوى ويقضم لسانه وهو يكتب ، ربما استطالت أذناه ومخالبه ؛ هذا هو البديل العصرى لكتابة الشتائم على جدران دورات المياه .

هذه حالة نفسية فريدة . صاحب هذه السطور قد يكون متزنًا متدينًا هادئـًا ، بل هو غالبًا كذلك ، ثم يخلو لشاشة الكمبيوتر حيث لا يراه أحد .. عندها يخرج كل هذا الصديد والقيح الأسود من داخله . لا أعرف إن كانت هذه طريقة علاجية مفيدة أم لا ، لكنى لا أرجو خيرًا من شخص يستعمل هذه الألفاظ ويكتبها وينشرها على العالم كله.

فى قصة (أرض النفاق) ليوسف السباعى ، كان البطل مهذبًا خجولاً ثم ابتلع مسحوق الشجاعة .. عندها أدرك الحقيقة المريرة ، وهى أن أخلاقه لم يكن دافعها سوى الخوف والجبن .. لم تكن لديه مُثل من أى نوع إنما هو الخوف من القانون والناس ، وهكذا فإنه بعد دقائق من ابتلاع المسحوق يقتحم بيت جارته الحسناء التى اشتهاها كثيرًا ، وكان يغض بصره عنها !

هذا هو ما يحدث بالضبط عندما لا يكون لك اسم على الإنترنت .. تدع الوحش بداخلك يخرج .. الوحش الذى لا يحكمه دين ولا خوف من القانون ولا ضمير ولا أى شىء ..

فى مقال قديم لى اتهمت معظم هؤلاء بأنهم مصابون بمرض (لا توريت La Tourette) الذى يرغم المريض به على أن يتفوه بألفاظ بذيئة ، ويأتى بحركات مشينة من دون أن يستطيع السيطرة على نفسه ..

فى سياق الردود هناك من يشبع هوايته بالعبث .. مثلاً هناك من يكتب أحرفًا لا معنى لها ، وهناك من يحكى قصة لا علاقة لها بالموضوع . هناك صديق لى اعتاد أن يتدخل فى سياق الردود .. مثلاً يتكلم المقال عن حريق مجلس الشورى ، فيكتب تعليقًا يقول : « مستوى الأهلى فى انحدار مستمر » . هكذا تنهال عليه الشتائم من الأهلاوية وينسى الجميع موضوع المقال ، ويمكننى أن أتخيل كاتبه يشد شعره غيظًا ..

بعض من يردون يفصحون لا شعوريًا عن نمطهم النفسى .. فى أحد المنتديات الخليجية نشروا صورة لفتاة فليبينية ملأت ثلاجتها باللحم البشرى لأنها تحب طعمه . هنا ردت إحدى القارئات قائلة : « الخدم ما عندهم قلب مرة ! » هكذا تكشف القارئة لك عن حقيقة مهمة ، هى أن الشعب الفليبينى كله بتاريخه العريق وثقافته وأدبائه ورئيس وزرائه وبرلمانه وأطبائه ومهندسيه ليس سوى (خدم) . ثم إن الفتاة الفليبينية كانت تمزق البشر وتأكلهم ليس لأنها مجنونة بل لأنها (ما عندها قلب) ولأنها من الخدم . الخلاصة هى أن كل الفليبينيين يأكلون لحم البشر !

نعم .. تحتاج السبل التى يخرج بها الناس أبخرة الكبت السوداء إلى دراسة مدققة من عالم نفسى ، لكنى أرشح المدونات والردود على المقالات كمصدر ثرى جدًا . وأرجو فى النهاية من الموقع أن يقوم بترشيح الردود القادمة على هذا المقال بدقة ، مكتفيًا بالردود من الدرجة (ب) و(جـ) .. بلاش (د) أرجوكم !

البحث عن جسر

منذ عام أو عامين طلبت المدرسة من ابنى جسرًا .. نعم . أنت لم تخطئ قراءة الكلمة .. طلبوا منه نموذج جسر كشرط للنجاح فى مادة المجالات . اقترح المدرس أو المستر حسب التعديل الأخير على الطلاب أن يبتاعوا الجسر من مرسم معين حدده لهم بالاسم والعنوان . وقد حاولت أن أصنع الشيء بنفسى فى البيت لكن الولد قليل الأدب أبدى اشمئزازه من النتيجة ، وقال إن هذا ليس نموذج جسر ، بل نموذج ضفدعة مصابة بسرطان المثانة . هكذا اتجهت إلى المرسم المذكور لأجد رجلاً أصلع راضيًا عن نفسه ، يجلس وسط فوضى عارمة ويدخن بكثافة ، وحوله عشرات الجسور التى صنعها من الورق المقوى والأسفنج الرغوى ، وعرفت أن ثمن الجسر خمسة وعشرون جنيهًا دفعتها فى صمت . وفى يوم الامتحان كان الشارع يعج بالطلبة الذين يحمل كل منهم جسرًا لا يختلف عن الذى فى يد ابنى ، وخطر لى مدى سخف هذه الخدعة .. المدرس يعلم جيدًا أن كل هؤلاء التلاميذ ابتاعوا جسورهم من المكان نفسه ، ويعرف أنه ما من واحد منهم ضيع وقته فى نهاية العام فى صنع جسر معقد التركيب يفوق قدراته كطفل .

فى العام التالى عرفت من ابنة خاله التى تصغره بعام أن المدرسة طلبت منها جسرًا . هذه المرة الجسر يُباع فى المدرسة بعشرة جنيهات لمن يرغب ! هكذا اتضحت معالم اللعبة .. كل الجسور التى سلمها التلاميذ العام الماضى تُباع هذا العام بسعر أرخص ، ويمكننى بسهولة تخيل مدرس المجالات يدخن مع الرجل الأصلع الراضى عن نفسه وهما يقتسمان

دخل هذه العملية (تذكر عدد الطلاب المهول) !.. وعلى الأرجح سوف يُباع هذا الجسر العام التالى بخمسة جنيهات ..

ابنتى مشكلة أخرى لأن مدرستها لا تكف عن طلب هذا الشىء المدعو (نشاطات) .. كأنها لا تفعل أى شىء فى البيت سوى تصميم هذه النشاطات ، وفى النهاية هم يخدعون أنفسهم أو يخدعوننا لا أدرى ، لأنهم بالقطع يعرفون أن أولياء الأمور هم الذين يسهرون ليلاً يصنعون هذه الأشياء ، أو هم يتوجهون إلى أقرب مكتب لتصميم الوسائل التعليمية لدفع مبلغ لا يقل عن خمسين جنيهًا شهريًا لشراء وسائل جاهزة .. التلميذ لم يتعلم شيئًا جديدًا .. الأبوان أضاعا وقتًا ومالاً .. لم يستفد سوى المدرس الذى يهمه إرضاء المفتش جدًا ، وصاحب المكتب طبعًا ..

وسط هذه الأزمات الاقتصادية الطاحنة ، والجو المكفهر المنذر بمجاعة أو ما هو أقرب لها ، تشعر بأن أمرًا غير مكتوب صدر لكل واحد ممن تقابلهم : تصرف .. فلينج كل بنفسه ..

هكذا يلعب الجميع على الجميع ويحاول الجميع خداع الكل . أنت تعرف أن فاتورة الكهرباء مبالغ فيها ، وفى كل شهر يمر موظف يتفقد عداد المياه فى بيتى ويقرأ المكتوب ، ثم تأتى الفاتورة لتجد رقمًا ثابتًا باهظًا مع ملحوظة من مرفق المياه أن العداد معطل .. أقسم بالله أنه ليس معطلاً ولو كان كذلك فلماذا يأتى الموظف أصلاً ، وما الذى يدونه فى كل مرة ؟.. إنهم يسرقونك فماذا تفعل ؟..

تذهب لهذه المصلحة أو تلك ليكتشف الموظف أن ورقك ناقص والأختام غير واضحة ، فتغادر المكان محنقًا لتبدأ رحلة أوديسيوس من

جديد ، لكنك على الباب تقابل دومًا ذلك الأخ الذى يعرض عليك إنهاء أوراقك مقابل عشرين جنيهًا .. معه موتوسيكل يصر على تسميته (مكنة) دائمًا وهو ينطلق به ليقوم بعمل غامض ما ، والمهم أنك تأخذ أوراقك كاملة خلال نصف ساعة .. طبعًا من الواضح أنه يقتسم المبلغ مع الموظف الذى رفض أوراقك .. جربت هذا الموقف فى أكثر من مكان ، حتى إننى صرت أبحث عن ذلك الرجل فى لهفة لينهى آلامى . ذات مرة قابلت أحدهم فى هيئة الكهرباء فصحت فى فرحة : « انت فين يا عم ؟ »

إن كانت الرِّشوة قد صارت دينًا فلماذا تُمارس طقوسه بشكل سرى ؟.. لماذا لا تنتشر المعابد فى كل مكان ؟ . لماذا لا يضعون لافتة تقول : « على السادة الراغبين فى دفع الرِّشوة أن يتجهوا إلى مكتب الرشاوى جوار دورة المياه مع الشكر » ؟ . المشكلة هى أننى لست خبيرًا فى هذه الأمور ولا أعرف الموظف المرتشى من الشريف . واحد من رفاقى قال لأحد موظفى المرور بلهجة الخبير الذى فهم الحياة : « اتوص بينا وبعدين احنا مع بعض .. هه ؟.. » هنا ارتفعت جاعورة الموظف ترج البناية رجًا : « مع بعض يعنى إيه يا أستاذ ؟؟؟ »

هذه هى المشكلة .. ما دامت محاربة الرِّشوة مستحيلة فلماذا لا يسهلون الأمور على من لا يعرفون كيف يرشون ؟.. وماذا عن التعساء الذين لا يعرفون كيف يرتشون ؟.. أذكر كاريكاتورًا قديمًا جدًا للرائع حجازى يمثل موظفًا مكفهرًا مقطب الجبين ، ومواطنًا يقول همسًا لصاحبه : « عصبى وبيكره نفسه وبيعامل الجمهور معاملة زى الزفت ، لأنه شريف ومش بياخد رِشوة ! »

هناك لكل شيء فى مصر باب خلفى ، المهم أن تدفع ، ولا أستطيع أن أرجمهم بحجر إلى هذا الحد ؛ لأن الحياة قد صارت مستحيلة على شريحة لا بأس بها من الناس ، وحتى مبلغ الألف جنيه شهريًا الذى كنا نعتبره الحد الأدنى لأمان الشاب صار بلا قيمة تقريبًا . معنى هذا أن هؤلاء لا يجدون قوت يومهم ، لكنهم لم يخرجوا على الناس شاهرين سيوفهم بل هم يمدون أيديهم من تحت المنضدة .. لقد اختلط مفهوم الصواب والخطأ تمامًا ، حتى إننى أتساءل عن الصورة التى كان يوسف إدريس سيكتب بها رواية (العيب) لو كتبها اليوم .

هناك باب خلفى للتفوق الدراسى اسمه (الآى جى) حيث تدفع مبالغ فلكية من المال لتضمن لابنك مكانًا فى كلية محترمة . عندما يحصل الجميع على 120٪ فضياع درجة واحدة من ابنك فى الامتحان معناه أن مستقبله قد أنتهى . الجميع سعيد والجميع يربح من هذا النظام الدراسى ما عدا الأسرة طبعًا .. هناك سائق سيارة أجرة فى طنطا قال لى فى حماس : « ربنا يخليلنا الآى جى يا باشمهندز » . لأنه يوصل عشرات الطلاب إلى القاهرة عدة مرات أسبوعيًا .. هناك دروس خصوصية كذلك .. وفى النهاية يكتشف الأب القادر أنه لم يعد قادرًا إلى هذا الحد . لكنه الباب الخلفى كالعادة .. هكذا يجد الأب أن عليه أن يسرق من مكان ما .. غالبًا يسرق من مدرسى الآى جى أو سائقى سيارات الأجرة ..

حدثنى ابنى عن نظام تمهيدى جديد للآى جى يبدأ من الصف الثالث الإعدادى ، واقترح أن أدرس الموضوع بجدية !.. لقد وجد هؤلاء القوم أنهم لم يعتصروا ما يكفى من مال ، فقرروا أن يغزوا الناس بوجود باب

خلفى آخر فى عملية التعليم بالذات تلعب عدة عوامل ، منها الخوف من ألا تكون قد قدمت لابنك كل ما يجب ، الخوف من أن يسبقه رفاقه ، من هذه العوامل أنك تعرف أن المستقبل مدلهم أصلاً ويجب أن تعطى الطفل كل سلاح ممكن ، منها الفشخرة والرغبة فى التميز ، المهم أنك تحتاج لقوة شخصية كاسحة ؛ كى تتجاهل هذا الاختراع الجديد . هذه لعبة لا تخيب أبدًا ..

سوف أبحث عن شيء أختلسه أو أسرقه ، فإذا وجدت فلسوف أقدم أوراق الولد فى هذا النظام التعليمى الجديد ، وإن لم أجد فلسوف أكتفى بصفعه مع تذكيره بأن أبى لم يترك لى سوى اسمه والتربية الحسنة ، تلك التركة التى أشعر بأننى موشك على فقدها لو استمرت الأمور كما هى !



حســـــد

اليوم أعترف بالحقيقة التى أخفيتها عن الناس منذ الطفولة ..

أنا أحسد بقوة ..

أحسد طفلاً سوف يحقق كل الأشياء التى فشلت أنا فى تحقيقها .

(الشاعر الروسى إيفتوشنكو)

★ ★ ★

يجب أن أعترف بهذه الحقيقة .. لقد نجح هؤلاء القوم فى تحقيق ما عجزت عنه أنا .. ربما أدارى الحقيقة بالكثير من التعالى .. التحذلق .. ترفع الطبقة الوسطى ، لكنى أدرك يقينًا أننى فشلت فى فهم قواعد اللعبة منذ البداية وهى ذى النتيجة واضحة جلية ، وهى أن الزمن ليس زمنى ولا البلد بلدى .

لقد رأيتهم قادمين .. كنت فى المدرسة الثانوية بينما السادات يضع المتفجرات تحت الصرح الذى شيده عبد الناصر طيلة عقدين من الزمن ، ولم أعلق أهمية كبرى على هذا .. عرفتهم بوجوههم السوقية الشهوانية .. عرفتهم بأصواتهم الجهيرة .. وكما قال الناقد السينمائى الراحل سامى السلامونى : « تعرفهم من كروشهم وفتحة صدر الطرزانات وصفاقة من شبع بعد جوع ، منهم الطبيب والمحامى والمهندس والعامل ، لكنهم صاروا طبقة واحدة لها شكل واحد وطموحات واحدة ، وربما تستمع لنفس المطرب .. » كتب هذه الكلمات يوم قام أحدهم بنشاط محبب لهم ألا وهو غرس سكين الفاكهة حتى المقبض فى بطن ابن شقيقة عبد الناصر .. فقط عين السلامونى الحساسة استطاعت التقاط الرمز وراء هذا المشهد ..

كنت أجلس فى غرفتى أطالع الطيب صالح وكافكا وطه حسين ، وأعلق رسوم محمود سعيد ورينوار ، بينما كان هؤلاء يزحفون كالقمل فى كل مكان .. ثمة نشاط بشرى غريب هو أن تذهب لبورسعيد وتلف القماش على خصرك وتضع عشرين ساعة حول ساعديك كى تتجنب الجمرك .. نشاط آخر غريب اسمه المتاجرة بالدولار فى السوق السوداء .. هذا النشاط يقومون به جميعًا لكنى وكل أمثالى عاجزون عنه .. ربما لأننى أترفع عنه .. ربما لأننى أخشاه .. ربما لأننى لم أفهم قواعد اللعبة بعد .. ربما لأننى (مش وش بهدلة) وبلغة أدق : كان لدىَّ ما أخسره .. هم لم يكن لديهم ما يخسرون .. هذه هى عقد الطبقة الوسطى التى تكبلك إلى الأرض ..

إنهم يمارسون الاختلاس والرشوة والمحسوبية على نطاق واسع .. ثم إنهم لا يخجلون .. ينشئ السادات حزب مصر فينضمون جميعًا له ، ويكتب أحدهم على طريقة فكتور هوجو : لو كان أعضاء حزب مصر خمسة فأنا منهم .. ولو كانوا واحدًا فأنا ذلك الواحد ..

ثم يترك السادات حزب مصر لينشئ الحزب الوطنى الديمقراطى عندها فى اليوم نفسه لا يبقى بين جدران حزب مصر واحد من هؤلاء .. مشكلتى أننى بطىء التفكير أكثر من اللازم .. أرى هذا الموقف فأقضى عشر سنوات أحاول استيعابه .. بينما هم جميعًا فهموها (وهى طايرة) .. لقد انتهوا من استخراج الدهن من الزلط ودهن الهواء بالدوكو ، بينما أنا ابن الطبقة الوسطى ما زلت أعتقد أن المستقبل لى أنا .. رأسى مقبرة أثرية تضم رفات ناصر وجيفارا ولومومبا حيث أحرق البخور وأتكلم عن

بطولة سنموت حنا مع النحاس ، وأحفظ كل حرف قاله كاسترو لناصر عندما التقيا فى القاهرة ..

إنهم يتاجرون فى الأراضى .. إنهم يحصلون على تصاريح البناء غير القانونية . إنهم يقوون علاقاتهم بكبار رجال الشرطة .. بينما يستطيع أصغر شرطى مرور أن يجعل الدم يتجمد فى عروقى .. ثم يقررون أن يتدينوا فجأة ، وتظهر زبيبة صلاة عملاقة لكل منهم ، ويلبسون الجلابيب البيضاء ، ويسافرون للعمرة عدة مرات فى كل عام ، وينشئون الشركات التى تبيع حبة البركة والعسل الأبيض ، ويديرون المدارس التى تحمل فى نهاية اسمها لفظة (الإسلامية) .. ويعودون ليتهموا بطيئى الفكر بالتسيب الدينى ، ولا بأس من غرس سكين فى عنق نجيب محفوظ فهذه كما قلت من هواياتهم المحببة ، والرجل هو الآخر لم يفهم قواعد اللعبة برغم ذكائه الشديد..

وتتأمل سلوكهم فتجد أنهم يمارسون ثلاثية المنافق حرفيًا : يحدثون فيكذبون .. ويعدون فيخلفون .. ويؤتمنون فيخونون .. لكنهم جهيرو الصوت قادرون على الصراخ فى أى وقت ليخرسوك ..

ثم يكتشفون فجأة أن مصر تضم مسلمين ومسيحيين ويقررون أن هذا خطأ ، وأن هذا سبب مشاكلنا الاقتصادية التى يعاقبنا بها الله .. دعك من أنهم اكتشفوا فجأة أن هناك صعايدة فى الجنوب ، وأن هذا شىء ظريف جدًا .. وتبدأ نكات الصعايدة التى يطلقها الحشاشون فى ملاهى شارع الهرم لتشق مصر إلى نصفين ..

إنهم يسودون المقالات فى الصحف تبرر كل ما تفعله الحكومة مهما

كان خطأ أو جائرًا .. إنهم يهتفون : بالروح بالدم نفديك يا سادات .. ويوم اغتيل السادات لم يكن أحدهم مستعدًا لتبديل جلسته المريحة لينقذه .. وعند المساء كانوا قد نسوا كل شىء عن السادات وراحوا يرتبون أوراقهم للعهد الجديد .. فإذا جرؤت على انتقادهم صرخوا بأعلى صوتهم أنك من (حزب أعداء النجاح) ..

إنهم لا يملكون ذرة ثقافة لكنهم يعتنقون شعار روكفلر : حسابى فى المصرف دليل على أن الله راض عما أفعله .. وهم يؤمنون كخلاصة الفلسفة البراجماتية الأمريكية بأن الفقير مسئول عن فقره بشكل ما .. ربما لأنه أغبى من اللازم .. أبطأ من اللازم .. أجبن من اللازم .. والمشكلة أننى بدأت أعتقد هذا ..

تاجروا فى الحشيش والبرشام والبودرة ، واليوم يزرعون البانجو ويدخنونه ؛ لأنهم أدرى الناس بأن (دماغهم متكلفة) وهم حريصون على حفظ التوازن الكيميائى لآلة صنع المال هذه .. إنهم يأخذون القروض ويفرون لكن ــ وهذا لغز ــ تظل البلد بلدهم ، بينما أنت الباقى فيها والذى سيدفن ــ مفروسًا ــ فى ترابها تشعر بشكل ما أنك مجرد ضيف عابر ..

* * *

نعم ، فى لحظات كفاحى المرهقة كى لا أنزلق إلى طبقة أقل أقول لنفسى إننى فشلت ، كان الزمن يتغير وفشلت أنا فى فهم ذلك ، بينما هم فهموا منذ البداية .. لقد امتلكت بعض الثقافة السطحية لكننى افتقرت تمامًا لذلك النوع الخاص من الذكاء الذى يطلقون عليه (نصاحة) .. ربما لو لم يكن لدىّ ما أخسره ، ربما لو فهمت أسرع من هذا

لكنى لن ألقى باللوم على أحد سواى .. لا توجد بدايات متأخرة للعبة وليس بوسعك أن تتعلمها فى سن الأربعين كما أنها لا تُدرس فى المدارس .. ولهـذا فشـلت كـل محاولة لى فى دهن الهواء بالدوكو أو خرم التعريفة أو اعتصار الدهن من الزلط .. . ولهـذا أقولها بكـل صدق : أنا أحسد هؤلاء القوم ، فقد امتلكوا الأرض ومـا عليهـا ، وربما يمتلكون المستقبل كذلك ، وإن كنت أدعو الله أن يتعلم ابنى فن دهان الهواء قبل أن يحدث هذا .

مخلوقات كانت رجالاً (1)

لا يوجد ثقاب يا حضرات .. هذه هى الحقيقة المريعة التى أدركتها بعد البحث فى عشرة أماكن ، والسبب كما قال لى البقال هو أن سعره سيرتفع ليصير جنيهين إلا الربع للقاروصة بعد ما كان جنيهًا . كما تعرف تكفى أية إشاعة فى مصر عن ارتفاع سعر شىء ما كى يختفى من على ظهر البسيطة . قال لى البقال هامسًا : « هل تصدق أن المشابك الخشب اختفت كذلك ؟ »

لا أعرف أهمية المشابك الخشب ولست مستعدًا للغضب من أجل اختفائها .الثقاب شىء تافه ، وهذه الزيادة لعب أطفال بالنسبة لما حدث للزيوت والمكرونة واللحم والبنزين ، لكن هذه كانت القشة التى قصمت ظهر البعير بالنسبة لى فرحت أردد :

ـ « ربنا ياخدهم أو ياخدنا !! »

والبقال ينظر لى فى دهشة من ذلك الطبيب الذى فقد أعصابه لأن سعر الثقاب ازداد خمسة وسبعين قرشًا . لابد أنه تساءل عن مدى شح هؤلاء الأفندية . لكن الثقاب ليس كل شىء بل هو آخر قائمة مرهقة من الأعباء التى تتضاعف يومًا بعد يوم وبسرعة لا تصدق بعد العلاوة إياها ، حتى إن نفس البقال قال لى ذات يوم ساخرًا :

ـ « سعر الزيت النهارده كذا .. أصل أسعارنا بتتغير كل يوم زى الصاغة ! »

ربنا ياخدهم أو ياخدنا .. هذا حل عادل بالنسبة لى والثقاب مهم لنا إذا أردنا أن نحرق أنفسنا .. فلماذا يختفى ؟

ماذا يريد هؤلاء القوم منا ولماذا ؟ لا يتركوننا نحيا ؟ لماذا يصحون كل يوم من نومهم ليجعلوا الحياة أعقد ويتأكدوا من أننا نزلنا طبقة فى السلم الاجتماعى ؟ لماذا لا يكتفون ويرحلون بما سرقوه منا إلى جزر الكاريبى ليعيشوا كالملوك ، ويتركوننا نحيا بما تبقى فى هذا البلد ؟ وما الفارق بين أن تكون ثروة الواحد منهم 20 مليارًا وأن تكون 21 مليارًا ؟ . هم فقط يريدون أن يعتصروا الليمونة حتى آخر قطرة .. لن يركبوا الطائرات المتجهة إلى سويسرا قبل أن يتأكدوا من أن آخر موظف قد صار حافيًا ، وآخر طفل قد مات بسوء التغذية ، وآخر سنتيمتر مكعب من الغاز الطبيعى تم ضخه لإسرائيل ، عندها فقط يسافرون وينسون كل شىء عن مصر .. ربما يظهر واحد منهم فى التلفزيون السويسرى ليتنهد ويقول : مصر أم الدنيا .. واحشانى قوى ...!

منذ أيام جاءنى ذلك الشاب المصرفى المتأنق الذى أفرزه عصر الانفتاح بكثرة فى مجتمعنا .. قميص قصير الكمين وربطة عنق ومن حزامه تتدلى عشرات الأجهزة المبهمة التى توحى بالأهمية ، وكما يصف صنع الله إبراهيم هذا النمط فهو يستعمل طيلة الوقت لمحات من ثقافة غربية سطحية ، وغالبًا يبيع الهواء . لابد من استعمال لفظة CEO و Sale و Share فى كل جملة تقريبًا . جاءنى يقنعنى بأن أدفع ألف جنيه شهريًا لمدة ثلاثين عامًا وسوف أظفر فى النهاية بمبلغ كذا !! ..نظرت له وابتسمت .. هل أنت واثق من أن مصرفك سيكون موجودًا بعد ثلاثين عامًا ؟.. هل سأكون أنا موجودًا ؟.. هل مصر نفسها ستكون موجودة إذا استمررنا بهذا المعدل ؟

لم يرد .. ضحك فى عصبية وقال : « دى حاجة بتاعت ربنا بقى .. هىء هىء هىء ..! »

المشكلة هى أنك قد تكون ميسور الحال نسبيًا ، لكنك لا تضمن أى شىء من أى نوع . عرفت جراحين زملاء لا يكفون عن العمل والكسب ، برغم هذا يشعرون بقلق مريع من الغد ، ومن اليوم الذى قد يصيرون فيه عاجزين عن العمل ، فالجراح مثل أى شخص آخر (شغال على دراعه) . مهما ادخروا فى المصرف فمن الوارد أن يفيقوا ليكتشفوا أن ما ادخروه صار يساوى 31 جنيهًا لا أكثر ، أو أن المصرف نفسه لم يعد له وجود .

البورصة ؟.. هذا مكان مناسب كى تفلس فيه ، وسوف تدرك وقتها أنه ليس مكانًا للاعبين الصغار بل هو مكان لعب العمالقة الذين يخصصون مبلغًا لا بأس به للخسارة ..

من اشتروا عقارات صاروا عاجزين عن التصرف فيها بسبب الافتقار إلى السيولة .. أعرف أشخاصًا يملكون أراضى وشققًا لكنهم عاجزون عن بيعها برغم ارتفاع سعرها كل يوم ، من الممكن أن يجدوا من يدفع على أقساط لكنك تعرف جيدًا أنه لن يدفع سوى قسط واحد ويكون عليك أن تلجأ للتقاضى ، وأن تقضى باقى حياتك فى المحكمة ..

وماذا عن افتتاح مشاريع صغيرة ؟.. فى شارعنا تجد فى كل يوم مكبرات صوت ودى جى وتصوير فيديو وحلوى توزع ، وقبلات على الخدين وخيلاً ترقص مع افتتاح محل جديد . ثم تجلس فى المحل فتاة شاحبة سيئة التغذية بالشبشب الزنوبة تنتظر أى زبون .. بعد شهرين يُغلق

هذا المحل بسبب الكساد وتبدأ الدورة من جديد . الدورة التى لم يستفد منها سوى مصور الفيديو والدى جى ..

أتكلم هنا بالطبع عن الأشخاص الذين يكسبون نسبيًا ، ولديهم رأس مال صغير يريدون أن يضعوه فى شىء مضمون ، فماذا عن الذين يعيشون من اليد إلى الفم وهم يتزايدون كل يوم ؟

كنت أمر جوار طابور من طوابير الخبز ، عندما رأيت ذلك الرجل الأصلع ممزق الجلباب ذا الستين عامًا يخرج من الطابور بولادة عسرة حقيقية ، فمه مفتوح فى لهفة ، والعرق يبلل جبينه ، وهو يحتضن كومة من أرغفة الخبز فى حنان ووله حقيقيين .. صورة مجسدة للخلاص والفرحة والظفر ..

رأيته يتوقف إلى جوار الرصيف لحظة ليتأمل جيدًا فى روعة ما حققه ، وفى اللحظة التالية رأيت على دراجة ذلك الصبى الذى تشى ثيابه بأنه حرفى ، ينقض على الرجل ليخطف بضعة أرغفة من الكومة ، وينطلق مبتعدًا بسرعة البرق . فى ثوان تحول وجه الرجل إلى الحسرة المجسمة ودموع الغيظ احتشدت فى عينيه لكنه صار عاجزًا عن الغضب أو السباب .. شىء ما فى عينيه يشى بأنه فقد إنسانيته فلم تبق لديه من عاطفة إلا الجوع والظمأ .

قلت لنفسى : الحمد لله أننى لست المسئول المباشر عن هذا الرجل ولا الفتى السارق . برغم هذا كل واحد فينا مسئول .. يجب أن تتذكر هذا وأنت تدخل فراشك ليلاً ..

خطر فى ذهنى عمنا مكسيم جوركى وما كان سيكتبه لو رأى هذا المشهد . بطبيعة الحال كان أقدر على رؤية هذه التفاصيل ، وقد قرأت له منذ زمن سحيق مجموعة قصصية رائعة اسمها (مخلوقات كانت رجالاً) ترجمة (سعد توفيق) تحكى عن مجموعة من النماذج البشرية التى (أكل عليها الدهر وشرب وقضى حاجته) على رأى بلال فضل الذى أفتقده كثيرًا وهذه النماذج تعيش كلها فى مسكن رخيص الثمن شديد القذارة أقام فيه الكاتب لفترة ما من فترات شبابه الصاخبة . بالفعل هى مخلوقات كانت رجالاً وكان يمكن أن تحصل منها على نفع أكبر بكثير من الوقوف ساعات فى طوابير الخبز أو سرقته .

قررت أن أكتب فى الأسابيع القادمة عن هذه المخلوقات التى كانت رجالاً فى عالمنا هذا ، والتى أفقدها الفقر الكثير من إنسانيتها .. أكتب عنها لأننى لا أملك أن أقدم لها شيئًا آخر .. . وللحديث بقية .

مخلوقات كانت رجالاً (2)

القصة واقعية تمامًا ، لكن لو كانت قصة بوليسية ولو كان كاتبها أحد أساطين القصص البوليسية من وزن (أجاثا كريستى) أو (إيلرى كوين) ، لكان اسمها (قضية سرقة الحقنة الشرجية) ، ولبدأت كما يلى :

أشعل المفتش (أرشيبالد مكالستر) من سكوتلانديارد غليونه وجلس فى مقعده الذى كان مقعد طبيب القسم منذ دقائق ، وقال للطبيب مفكرًا :

ـ « ما زلت لا أفهم القيمة المادية لهذه الحقنة الشرجية حتى يقوم أحد بسرقتها .. »

قال الطبيب :

ـ « لا قيمة لها على الإطلاق .. عامة هى مجرد كوز صدئ من الصفيح يتصل بخرطوم ، ولدينا واحدة فقط فى قسم الرجال وواحدة فى قسم الحريم . نحن لا نستطيع الاستغناء عنها لأننا ننظف قولون مرضى الغيبوبة الكبدية بانتظام ، وعامل القسم هو الذى يجرى هذه العملية . منذ أسبوعين تبرع أحد فاعلى الخير للقسم بحقنة شرجية أنيقة (زى العروسة) لونها أزرق جميل .. هكذا صار لدينا ثلاث حقن شرجية ، لكن مشكلة الروتين والبيروقراطية بالنسبة لهذه الهبات هى أنها لا تدخل دفاتر العهدة إلا بعد إجراءات معقدة .. وهذا يعنى أنه لا صاحب لها .. كلما ابتعنا شيئًا بالجهود الذاتية وقعنا فى ذات المشكلة ، وسرعان ما يُتلف أو يسرق .. »

ـ « من الممكن أن يحتفظ بها الطبيب فى خزانته .. »

ـ « هذا يعقد الأمور أكثر .. لأنها مطلوبة طيلة الوقت تقريبًا .. »

فكر المفتش قليلاً ثم طلب استدعاء عامل القسم ..

دخل العامل متوترًا وقبل أن يوجه له أحد أى اتهام راح يقسم أغلظ الإيمان أنه لا يعرف أى شيء عن مصير الحقنة . فقط هو كان يضعها فى الحمام .. يعلقها فوق ماسورة الماء الصدئة وقد استعملها عشر مرات فى يوم الجريمة .

ـ « فى العاشرة مساء أمس دخلت الحمام مع عم (شحاتة) لأجرى له الحقنة لأن ابنه غير موجود ، هنا فوجئت بأن الحقنة ليست فى مكانها .. لقد جن جنونى وفتشت كل مكان فى القسم .. هكذا اضطررت أن أستعمل الحقنة القديمة .. »

سأله المفتش (مكالستر) وهو يعيد إشعال غليونه : « هل لاحظت أن هناك من يهتم بها بين مرضى القسم ؟ »

قال العامل : « كلهم .. منذ ظهرت بلونها الأزرق الجميل والجميع ينظر لها بإعجاب واشتهاء .. حتى إننى أنذرت حكيمة العهدة من أننى أخشى أن تُسرق .. قالت لى إن هذه ليست مسئوليتها .. »

بالنسبة للمفتش كان العامل بعيدًا عن دائرة الاشتباه لأنه يتعرض لإغراءات كثيرة مع أجهزة أغلى ثمنًا ومنذ أعوام طويلة . يجب أن تنحصر دائرة الشك فى الوجوه الغريبة عن القسم ..

راح يفكر وهو يتأمل سحب الدخان :

ـ « هذه سرقة محيرة .. ما الذى يمكن أن يفعله المرء بحقنة شرجية قذرة استعملها العشرات قبله ؟.. إن بيعها صعب جدًا على ما أظن .. »

يمكن أن يسرقها المرء لو أراد أن يفتتح مستشفى خاصًا لكن هذا يعقد الأمور ؛ لأنه قد يؤدى لاتهام الأطباء كذلك . وفجأة بدا أنه وجد طرف الخيط .. طلب من الطبيب قائمة بأسماء المرضى الذين تقرر خروجهم اليوم .. كان هناك ثلاثة مرضى .. مريض منهم واسمه (بيومى أبو سمك) يتلقى حقنًا شرجية بانتظام .

طلب المفتش أن يرى عم (بيومى) هذا ، وكان المريض العجوز يجلس فوق فراشه الذى فرش عليه جريدة ، وفوق الجريدة انتثر خليط من الأرز والفول والخضار وبقايا الدجاج والجبن القديم .. طعام المستشفى مع الطعام الذى يرسله أهله .. إنه يجلس القرفصاء حتى إنك لتحسب قدمه الغليظة الحافية صنفًا من أصناف الطعام الذى يأكله . . جوار الرجل كانت أمتعته التى حزمها بانتظار قدوم أسرته ليعيدوه لقريته . .

ـ « بسم الله .. »

قالها عم (بيومى) لمفتش سكوتلانديارد لكن هذا لم يرد المجاملة ، ومد يده يعبث فى أمتعة الرجل ثم بحركة درامية مد يده إلى لفافة صغيرة وفتحها ، وأمام عيون الجميع ظهرت الحقنة الشرجية الزرقاء . صاح الجميع في ذهول غير مصدقين أن هذا العجوز الطيب يمكن أن يسرق شيئًا ثمينًا كهذا ، ودمعت عينا عامل القسم وهو يدرك أن العجوز خدعه . لو كان الأمر بيده لشنقه هنا والآن ..

قال المفتش وهو يشعل غليونه فى رضا : « الأمر منطقى وبديهى يا عزيزى (واطسون) .. الحقنة الشرجية لن تُباع .. هناك فى الغرب نوع من الجنس الشاذ اسمه Enema sex لكنه غير معروف فى بلدكم لحسن الحظ .. إذن من سرق الحقنة سرقها لاستعماله الشخصى فقط .. كى ينظف قولونه فى بيته . هكذا ضيقت دائرة الاشتباه .. شخص يوشك على مغادرة المستشفى ويشعر بالذعر لأنه لا يملك ثمن حقنة شرجية يعالج بها نفسه فى بيته . هكذا اختمرت فكرة الجريمة فى ذهنه وأحسن التنفيذ وكاد يفلت بفعلته لولا أن المفتش (مكالستر) هنا .. »

كان العجوز يبكى بحرقة ، عندما تدخل الطبيب المقيم ملاحظًا : « أنا كتبت لك الخروج صباح اليوم فمن أين جئت بهذه الوجبة ؟ »

بصوت خفيض اعترف العجوز أنه سرق صينية من الفتاة التى توزع الوجبات لأنه كان جائعًا ، وقد أضاف للصينية بقايا طعام أمس .. عمت السعادة الجميع بينما قال المفتش فى رضا وهو يلبس معطفه :

ـ « كانت من أعقد القضايا التى قابلتها فى حياتى المهنية ، لكن خلايا عقلى الرمادية لم يعجزها أن تحل قضية الحقنة الشرجية .. »

كما قلت لك : القصة واقعية تمامًا لو أنك حذفت المفتش لأن التحقيق قام به الطبيب المقيم نفسه ، وهى تثير أسئلة كثيرة عن مريض فقير وعامل فقير وممرضة فقيرة وطبيب شاب فقير فى واقع يزداد قسوة كل يوم . عم (بيومى) الذى سرق حقنة شرجية باعتبارها نوعًا من الرفاهية يستحق مكانه بلا شك ضمن المخلوقات التى كانت رجالاً .

من ضمن هذه المخلوقات وما دمنا فى عالم المستشفيات ذلك الفتى الذى كان مصابًا منذ أعوام بمرض مزمن نادر يجعله يبقى فى المستشفى فترات طويلة جدًا ، وقد لوحظ أنه يختفى من فراشه والمستشفى كثيرًا ، ويعود محملاً بأعذار لا تنتهى تدفع الطبيب المقيم إلى شطب عبارة (خروج هروب) التى كان قد كتبها فى كراسة العلاج . لكن أشياء كهذه لا تظل سرًا .. وقد انكشف الأمر عندما لاحظ أحد الأطباء شابًا يتسول بقرب مسجد (السيد البدوى) على كرسى متحرك ، ولاحظ أن الكرسى المتحرك قد كتب على ظهره بحروف واضحة (باطنة رجال) . الفتى لم يكن يفر من المستشفى فقط بل كان يفر بالمقعد المتحرك كذلك ليستخدمه أداة للتسول ! . بالطبع سببت هذه القصة مشاكل لا حصر لها لعمال القسم ورجال الأمن الذين لم يستطيعوا فهم الطريقة التى كان الفتى

يخرج بها كل مرة . حدث هذا منذ أعوام طويلة فلا أعرف إن كان الفتى ما زال حيًا أم تُوفِّى لكنى أعرف أنه كان مدمنًا للبرشام كذلك . عندما تكون فقيرًا ومدمنًا فلا مفر من أن تتحول إلى لص أو متسول أو تاجر مخدرات .. هكذا تصير الأمور .....

ولنا لقاء آخر مع مزيد من المخلوقات التى كانت رجالاً فى الأسبوع القادم ..

مخلوقات كانت رجالاً (3)

هل تراها ؟.. بالتأكيد يمكنك ذلك .. من مكانك فى الشرفة وكوب الشاى فى يدك ، تراها وهى تمشى فى الشارع صباحًا وتمارس عملها اليومى ..

ما هو عملها اليومى ؟.. التنقيب فى أكياس الزبالة طبعًا .. الأكياس السوداء عدو البيئة إياها والتى يضعها سكان كل بناية أمام بنايتهم بانتظار قدوم الجرار ، وهذه الأكياس هى هدف هذه المرأة التى لا اسم لها ولا وجه لها .. إن وجهها مغطى بطرحة سوداء ، وهى تجد السير فى حذر وقد تعلمت الكثير من طباع القطط الضالة وشراستها وحذرها وتوجسها الدائم .. قط أسود كبير يفتح الأكياس ويبحث فيها عن شىء يؤكل .. شىء يلبس .. فردة حذاء قديمة هنا وكيس من الخبز الذى انتهت صلاحيته هناك ..

تعرف أنه لو رآها أحد السكان لشتمها أو ضربها ، لذا تختار هذه الساعة المبكرة من النهار حيث لا أحد سواها والقطط الضالة ، ومن خلفها يمتد أثرها .. أكياس فرغت من محتواها وقد اتسخ مدخل كل بيت من هذه البيوت .. لكنها كما قلنا تعلمت طباع القطط فلا يمكن أن يضبطها أحد أبدًا ...

من أين جاءت ؟.. أين تبيت ليلتها ؟.. الجواب سهل .. لقد جاءت من حيث يأتى هؤلاء .. تلك المخلوقات التى كانت رجالاً والتى تجدها فى كل صوب وكل ركن ..

عندما تتوارى هذه المرأة القـط تظهـر أم (آيـة) . أم آيـة تمـارس عـدة أعمال فى وقت واحد ، فهى تنظف السيارات الواقفة .. فـى الواقـع هـى تزيدها قذارة لكنها ترفع المساحتين علامة لا شك فيهـا علـى أنهـا أنجزت عملها . تبيع الشاى لبائعى الخضر وعمال البناء فـى كـل مكـان .. تبتـاع الخبز لربات البيوت عندما كان هنـاك خبز وتبتـاع الخضـر مـن السـوق ، وأحيانًا تجلس على الرصيف تقطف الملوخية أو تقور الكوسة لواحـدة مـن ربـات البيـوت المشغولات . لا يتـم تنظيـف أيـة شقة فى الحى كلـه إلا ووجدت أم (آية) تقف فى الشرفة وهى توسـع المراتـب ضربًـا .. أحيانًـا تقوم بالصويت علـى مـن يمـوت مـن السـادة كذلـك وتشـارك فـى غسـل نسائهم .

بما أن الفقر والمرض والإدمان هم عجلات دراجة ثلاثيـة ، فـإن أم آيـة لها ابنة مصابة بعيب خِلْقِى فى الصمام الأورطى وأختهـا مصابـة بسـرطان القولون ، وهـى نفسـها مصابـة بسـقوط رحمـى يجعلهـا تبـول علـى نفسـها باستمرار . لكنها لا تملك ترف الاعتراف بالمرض لأنها ترتجـف مـن اليـوم الذى لا تقدر فيه على العمل.

قالت لى ذلك فى اليوم الذى رأيتها فيه متورمة العين مع هالات سوداء كأنها حيوان (الراكون) الذى نراه فى الموسوعات المصورة . قالت لى إن زوجها أوسعها ضربًا لأنها لم تعطه المال الذى كسبته :

ـ « كل مرة يصرف القرشين على الطينة والمية .. »

بسذاجة بدا لى تصرف هذا الرجل شاعريًا .. إنـه مولـع بالزراعـة إذن وهو اهتمام راقٍ ، لكنها ضحكت كاشفة عن فم لم تبـق فيـه سـوى سـن

واحدة وأخبرتنى فى صبر أن الميه هى (البوظة) والطينة هـى (الحشيش) . هكذا رزقت هذه المرأة بالذات بزوج ينفق كل مليم تكسبه على الكيف ، ولا يعمل على الإطلاق ، لتصدق عليه مقولة (سوفوكليس) فـى مسرحية (أوديب) عن رجال مصر التى أثارت غيظى عندما قرأتها يومًا ما..

ولهذا فهمت سر سعادتها البالغة يـوم رأيتهـا تمـارس عملهـا برغـم أن وجهها كله كان متورمًا . قالت لى فى مرح خفيفة كالعصفور :

ـ « بالك ايه ؟.. مش أبو آية طلقنى ؟ »

أبو آية يمكن الخلاص منه ، لكـن كيـف يمكـن الخـلاص مـن الفقـر ؟.. وكيف تعيش اليوم وحصار الحياة يزداد ضيقًا يومًا بعد يوم ؟.. الله أعلم . لكنك تراها بسهولة وهى تحوم حول محل الجزار القريب من دارنـا .. تقـف على بعد خطوات وتنظر للحم فى اشتهاء ، وتكرر من دون مناسبة :

ـ « كل سنة وانتو طيبين .. »

فتجهد ذهنك محاولاً تذكر أية مناسبة هـذه ، لا توجـد أية مناسبة دينية أو وطنية ، ربما هو عيد ميلاد الجزار ؟.. تكرر (كل سـنة وانتـوا طيبـين) مئة مرة وتحوم من جديد ، حتى تأتى اللحظة المصيرية التى يمد فيها الجـزار يده إلى قطعة لحم تزن خمسة جرامـات ولا تقبـل أن تأكلهـا قطـة محترمـة ، فيلفها فى كيس ويناولها لها فى اشمئزاز . تنطلق فى منتهى السعادة عالمـة أنها لن تذوق ذرة من هذا اللحم ، لكن أولادها سيفعلون ... لقد شـفّت هذه المرأة حتى لم تعد تريد أى شيء لنفسـها بـل لهـؤلاء التعسـاء الذيـن جاءت بهم للعالم .

فى وقفتها عند الجزار شىء يذكرنى بالقطط الضالة .. القطط التى تقف حول المحل مهمومة قلقة بدورها .. هكذا الفقر عندما يذيب الحدود لا بين الطبقات بل بين الأنواع نفسها ، حتى لتوشك أن تسمع ذلك القط الأجرب يقول لذلك القط الأعور : « الأخ ملقاط والا هجام ؟ » وتوشك أم آية أن تموء ..

تنصرف أم (آية) فقط ليحتل مكانها أمام الجزار أبو (عماد) أو أبو (صلاح) .. معدل التقاطر قد صار عاليًا جدًّا .. متسول كل ثلاث دقائق ..

من نهاية الشارع ترى (رضا) الصغير ذا ستة الأعوام قادمًا والمكواة تحت إبطه على قطعة خشب كانت مسند مقعد ، وهو يرفع ذراعه عاليًا بشماعة عليها سروال مكوى .. بمعجزة ما يتمكن ألا يتسخ طرف السروال بالغبار برغم قامته القصيرة ، وهو يدق جرس الباب ثم يستفيد من وقته بأن يشوط قطعة طوب صغيرة إلى أن ينفتح الباب . (رضا) يتمنى أن يلعب طيلة اليوم ، لكن أباه يريد فعلاً المبلغ البسيط الذى يحصل عليه من هذا العمل ، دعك من أن الأسطى (بيومى) ليس سيئًا ولا يضربه كثيرًا . تفتح له الباب ربة البيت وتسأله عن الثمن ، لكنه مهتم أولاً بأن يسترد الشماعة .. هذا أهم ما فى الموضوع والسبب الأول لتلقيه الضربات . صوت البام بام طاخ طوخ يلفت نظره بشدة فيطل من فرجة الباب ليرى طفلين بثياب حسنة يلعبان (بلاى ستيشن) ، فينسى نفسه ويزحف بضع خطوات ويندمج تمامًا مع الشاشة حيث دراجة بخارية تطارد سيارة وتطلق عليها النار .

يتمنى أن تتأخر ربة البيت قليلاً لكنها تعود سريعًا وتعطيه المال وتفاحة فاسدة وجدت أنه من الأفضل أن تعطيها له بدلاً من رميها .. بهذا تجمع

بين الإحسان والتخلص من التفاح الفاسد . وينصرف رضا الصغير .. لا يعنيه أنه صغير السن جدًّا .. لا تعنيه الأسئلة الكثيرة عن الغد وكيف يتعلم ويتزوج ويسكن .. لا تعنيه حقيقة أن هذه الأسرة التى تبدو ثرية قد بدأت تئن بدورها من الغلاء .. كل هذا لا يعنيه . ما يعنيه هو أنه سيعرج على الحارة القريبة ليلعب الكرة الشراب لمدة عشر دقائق مع الواد بطاطة ، وسوف يزعم للأسطى أن صاحبة البيت هى التى أخرته .. إن المستقبل رائع .. رائع لدرجة لا توصف ....



مخلوقات كانت رجالاً (4)

موكب الزفاف الفاخر يتقدم نحو مدخل قاعة الأفراح الكبرى ، والعريس والعروس يتظاهران بالسعادة ، يحيط بهما أفراد الأسرة والأصدقاء ، وقد خرج الجميع لاقتناص الفرص . ابن فلان بيه وابنة علان بيه .. إنه لحدث مهم حقًا . هناك تلك الفرقة التى تقوم بالزفة ، وهم كالعادة مجموعة من الفتية يحملون الدفوف وفى وجه كل منهم أثر من مشاجرة قديمة بالمطاوى ، ولا تفهم أى حرف من الذى ينشدونه سوى أن كل مقطع ينتهى بكلمة (الليلة) .. يضغطون عليها لتعطى إيحاءات بذيئة غامضة . من مكان ما تدوى زغرودة ويقذف أحدهم بقطع الشيكولاتة الفاخرة فوق العريسين فتتساقط على الأرض . هنا من مكان ما وبطريقة ما ظهر هؤلاء الصبية الثلاثة بثيابهم القذرة المرقعة .. وثبوا كالقرود من وراء الأشجار لينقضوا على قطع الشيكولاتة على الأرض . فما إن استعاد القوم رشدهم حتى انهالوا بالركلات على هؤلاء الثلاثة .. هؤلاء الأوغاد الذين شوهوا صورة الفيديو وطابع الرقى العام ..

ـ « وله يا ابن الـ .... وسع يا له ! »

للركلات مزية مهمة هى أنها تبقيك بعيدًا عن هذه القذارة .. لا تتسخ بذلتك ولا يداك ..

لكن الصبية تلقوا الضربات وهربوا وهم مفعمون بالسعادة .. لقد امتلأت الأيدى بالشيكولاتة وهذا هو ما يهم فى الوقت الحالى . صديقى الأديب كان واقفًا ضمن الواقفين فنظرت له ونظر لى وعرفنا أننا نفكر فى الشىء نفسه .. قلت له هامسًا : « (جوركى) بينادينى ! » أى أننى

تخيلت ما كان (مكسيم جوركى) سيكتبه لو رأى هذا الموقف .. هؤلاء الصبية آتون من عالمه بلا شك ..

من أين يأتون فعلاً ؟.. إلى أين يذهبون ؟.. لا أحد يعرف .. بعد أن يأكلوا الشيكولاتة سوف يبحثون عن شىء آخر يسرقونه ، ثم ينامون فى الشارع إلى أن يظفر بهم (توربينى) آخر يغتصبهم فوق سقف القطار التوربينى ثم يلقى بهم من فوقه ليموتوا .. هذا بالنسبة لسعداء الحظ منهم ..

بالطبع كل هذه القصص واقعية تمامًا ولا دور للخيالى فيها ، لكنى قمت بتغيير الأسماء . لم أنس بعد قصة (عادل) مريض الصدر الذى كان مصابًا بعدة كوارث فى الرئتين ، وقمت فى جلسة علمية بعرض صورة الأشعة الخاصة به وعليها اسمه الكامل . يومها قالت لى د . (وفاء الشيمى) أستاذ الأمراض الصدرية : "كان يجب أن تحذف الاسم .. هو مش كفاية اللى هو فيه ؟ » . لم أنس عبارة اللوم هذه قط ، وتذكرت أننا أحيانًا نعامل هؤلاء التعساء كأشياء حتى إن لم نتعمد القسوة ..

عم (حسن) واحد آخر من تلك المخلوقات التى كانت رجالاً ..

بواب البناية العجوز الطيب .. إنه واحد آخر ممن يعملون كل شىء فى كل وقت لأى شخص .. يعيش مع زوجته وابنه فى المدينة بينما يترك بناته مع عمتهن فى قريته . إنه لا يستطيع أن يطمئن لوجود بناته المليحات مكتملات الأنوثة فى هذه المدينة المليئة بالشباب الرقيع .. الشباب الذى يحلق شاربه ويركب سيارات فاخرة (أمه جايباها لـه) يصدر بها صوت فرملة عالية .. هذا دليل كاف على رقاعتهم ، وعندما يمسح سيارة واحدة من هؤلاء بالمنشفة فإنه يعرف يقينًا أن هذا الفتى ذاهب لممارسة الكبائر

بأنواعها .. لا ، لن تصمد أية بنت من بناته أمام وغد من هذا النوع .

فقط يسمح لابنه بأن يوجد هنا معه ، وقد لمحت الطفل ذات مرة فأدركت أنه مصاب بمرض عضال .. لا أعرف ما هو بالضبط لأننى لست خبيرًا فى أمراض الوراثة لكنه كارثة . ولهذا أرسلته مع عديد من التوصيات إلى أحد أساتذة طب الأطفال من أصدقائى .. افعل كل شىء ولا تأخذ منه مليمًا .. أرجوك ..

يتصل بى أستاذ الأطفال مذعورًا بعد ما رأى الطفل ، هذه حالة لابد من دخولها المستشفى حالاً ، إنها حالة متقدمة من المرض النادر الفلانى ، ولابد من أن تكون فى المستشفى هنا والآن ، وإلا فهو غير مسئول عما سيحدث ..

لكن عم (حسن) يرفض .. يرفض بإصرار .. يقول لى :

ـ « سعادتك أنا مش عايز له دخول .. أنا عاوز شوية برشام وإبر بس .. »

أؤكد له أننا تجاوزنا هذه المرحلة منذ زمن ، وأنه لن يدفع مليمًا لأن المستشفى مجانى ، أستاذ الأطفال وعد بألا يدفع الرجل شيئًا ، لكن عم (حسن) مصرٌ ...

هنا فقط أفهم الحقيقة : قطار الحياة سريع لا يسمح له بالقفز منه لمرضه أو مرض أحد من أسرته . معنى دخول المستشفى هو أن يستغنى عن زوجته عدة أيام لأنها ستكون مع الطفل . حياته لا تسمح بهذا الترف .. هناك أفواه جائعة فى القرية تحتاج إلى من يطعمها ، وهناك فتيات لابد من تزويجهن وتجهيزهن ، وهو لن يقدر على ذلك فى غياب زوجته . أما

النقطة الثانية الأهم فهى أن الطفل بحالته الحالية يتيح له الظفر بما يهبه ذوو القلوب الرحيمة ، أما دخول المستشفى فهو الخراب التام .. لم أصدق هذا التصور حتى أكده لى عدد من سكان العمارة : الرجل ليس راغبًا فى العلاج بل هو راغب فى التسول فقط ، لو أردت أن تخدمه فلتعطه ما تيسر من مال من جيبك ، لكن لا تتفلسف بعقلك المترف الذى أتلفته الكتب ، ولا تزد متاعبه وتشعره بأنه أب مقصر ..

من الغريب بالفعل أن الرجل صار يتحاشانى كالطاعون . لقد كانت حياته تسير على وتيرة منتظمة قاسية لكن يمكن التنبؤ بها ، فجئت أنا لأشعره بأنه مقصر وأن هناك الكثير مما يقدر على عمله ... هكذا لم يعد يطيق رؤيتى ، وما زال طفله مريضًا وحيًا بمعجزة ما ..

المخلوقات التى كانت رجالاً .. هذه المخلوقات يرغمها القهر أحيانًا على أن تفقد بعض آدميتها ، من ثم تصير أكثر قسوة .. هذه القصة لم أمر بها لكن أحد الأطباء من أصدقائى الموثوق بكلامهم تمامًا عاشها كاملة بما تطرحه من علامات استفهام . الصغير (جمعة) مصاب بالتهاب رئوى متقدم وهبوط فى القلب .. أمه فلاحة تعسة نحيلة مذعورة يبدو أنها تعيش بمعجزة ما . تم دخول الرضيع ليلاً إلى قسم الأطفال وقلبه يكافح كى ينبض كل نبضة ، وتم وضع قناع الأكسجين على أنفه الصغير لأنه الشىء الواهن الذى يبقيه حيًا . جوار فراش (جمعة) أم أخرى محنكة أكثر فقرًا تجلس ورضيعها فى حجرها وكان قد شفى تقريبًا . إنها تراقب جارتها المذعورة أم (جمعة) وتمصمص بشفتيها وتوصيها ببضعة أشياء تنتهى دائمًا بكلمة (يا شابة) أو (يا دلعدى) ...

صديقى الطبيب يجلس فى مكتبه ، وأم (جمعة) تترك رضيعها على الفراش إلى أن تجد دورة المياه فى تلك الممرات المظلمة ، وتطلب من جارتها المحنكة أن تعنى به . ينهض الطبيب ليدخل العنبر فيفاجأ بمشهد لا يفارق كوابيسه .. (جمعة) الصغير مقلوب على ظهره كسلحفاة أزرق اللون يجاهد طلبًا للهواء وصدره يعلو ويهبط بطريقة مثيرة للشفقة ، أما قناع الأكسجين فقد انتزعته الأم المحنكة ووضعته على أنف ابنها هى !.. لقد اعتقدت أن الأكسجين شىء ثمين ومفيد للجميع ، لهذا قررت أن تسرق بضعة أنفاس منه لرضيعها فى غياب أمه .. لم تكن تنوى ترك (جمعة) حتى الموت .. بالتأكيد كانت ستعيد القناع فى الوقت المناسب ، لكن الفقر يولد غريزة (الاستخسار) حتى لو لم يكن رضيعها بحاجة لهذا ..

وما زلنا مع المخلوقات التى كانت رجالاً .. ..

مخلوقات كانت رجالاً (5)

خبر شديد الروعة نشرته جريدة الأهرام فى 16 سبتمبر 2007 ، وهو يحكى التالى بالحرف :

« تعرض أحد تجار الصاغة بالعريش لسرقة منزله أثناء خروجه لشراء بعض الاحتياجات ، هذا على الرغم من إحكام وإغلاق النوافذ والأبواب لأنه يحتفظ بالمجوهرات داخل منزله ، وبعد ساعة ونصف فقط عاد فوجد جميع المصوغات وتقدر بـ 250 ألف جنيه قد سرقت . أمر اللواء منتصر شعيب مدير أمن شمال سيناء والعميد على أبوزيد مدير إدارة البحث الجنائى بتشكيل فريق بحث برئاسة الرائد أحمد رمضان رئيس مباحث قسم ثانى العريش ، وتبين أن أحد الطلاب وصديقًا له يقيمان بجوار منزل الصائغ شوهدا بعد السرقة مع مجموعة من أصدقائهما ...... »

جميل جدًا .. هذا ما اعتدناه فى الحوادث المماثلة .. طبعًا شوهد السارق وصاحبه فى أحد الملاهى الليلية يشربان أغلى الخمور وينفقان بسخاء على الراقصات والليالى الحمراء .. لكن الخبر يقول :

« .. شوهدوا بأحد المطاعم الكبرى بالعريش يتناولون شاورمة ويشربون مياه غازية غالية الثمن ، وبسؤالهما عن مصدر النقود التى بحوزتهما انهارا واعترفا ، والطريف أن أحد اللصين وجه العتاب لزميله أثناء التحقيق : قلت لك بلاش شاورمة البوليس هيشتبه فينا .. وانت صممت عليها أهم قبضوا علينا .. »

يا نهار اسود !.. حتى اللصوص تدنى حالهم إلى هذه الدرجة ؟.. لم

يقبض عليهما وهما يلعبان القمار فى فندق فاخر ، ولكن قبض عليهما وهما هذان الوغدان الشرهان يـأكلان الشاورمة ويشربان المياه الغازية غالية الثمن . ثم ما هى المياه الغازية (غالية الثمن) هذه ؟.. (كانز) يعنى ؟.. وهل أكل الشاورمة صار مصدر اشتباه يدفع مخبرى الشرطة للشك فى مصدر هذا الثراء ؟..

هذان لصان أكثر غلبًا وبؤسًا من أية ضحية محتملة ، والدليل أنهما جائعان .. سرقا ربع مليون فكان أول شىء فعلاه هو شراء ساندوتشى شاورمة .. والفتى الفطين يعرف جيدًا أنه قام بجريمة شنعاء بـأكل الشاورمة ، حتى أنه يوجه اللوم لصاحبه على هذا الاستعراض الأحمق الذى قاما به . ليس عندى تفسير لغرابة هذا الخبر سوى أن يكون ساندوتش الشاورمة فى العريش ثمنه خمسة آلاف جنيه ..

تذكرت صديقًا لى يعد نفسه أنه لو رزق بمليون جنيه ، فلسوف يكون أول شىء يفعله هو شراء كيلو من الكفتة والتهامه وحده ، دون أن يشعر بتأنيب الضمير الذى يلازم المصرى من الطبقة المتوسطة عند التهام اللحوم .

تغير أنماط اللصوصية ، والاهتمامات غير العادية لدى اللصوص تثير دهشتى وتعطى فكرة أفضل عن التغيرات الاجتماعية . فى المقال الأول حكيت عن سرقة الخبز من الطابور بطريقة (اخطف واجرى) ، وبعد هذا قرأنا عن عصابة متخصصة فى السطو على الخبز . هناك تنظيمات عصابية كاملة مهتمة بسرقة أغطية البلاعات .. السؤال المنطقى هنا هو مدى الاستفادة من غطاء بلاعة ، لكن الإجابة هى أنها ثروة ثقيلة من الحديد الزهر يسهل بيعها . وهكذا تتحول الشوارع ببطء إلى غربال ملىء

بالثقوب ، ونسمع عن السيدة الوقور التى مشت فى شارعها ليلاً فسقطت فى بالوعة .. لا تنس أن هناك من يسرق اللمبات من أعمدة النور كذلك . هكذا وجدت هذه السيدة الوقور نفسها فى موقف لا تحسد عليه ، بينما سائق سيارة نصف نقل ابن حلال يربطها بحبل غليظ (سلبة) ويتعاون مع أولاد حلال آخرين على إنقاذها ..

هناك تلك القرية قرب مدينتى التى استيقظت على رائحة عطنة تجتاح المكان ، وبالتدقيق والبحث اتضح أن هناك عصابة تخصصت فى سرقة أبواب المقابر الحديدية .. يعنى تصحو القرية لتجد أن كل مقابر أعزائها مفتوحة . وماذا عن المطب الصناعى الذى اضطروا لإزالته لأن هناك من يسرق فى كل مرة اللافتة التى تنذر بوجوده . هكذا تكررت الحوادث كلما اندفعت سيارة على الطريق السريع لتكتشف المطب فجأة ، فيضغط سائقها الفرامل وتنقلب .. ماذا يمكن عمله بلافتة كتب عليها (احترس .. أمامك مطب صناعى) ؟.. هناك بالتأكيد جهة ما تشترى هذه اللافتات ومعها كل أغطية البلاعات وبوابات المقابر ..

يعود ابنى من الدرس الخصوصى مذعورًا ليخبرنى أن صديقين له كانا يقفان أمام البناية التى يقطن فيها المدرس ، عندما فوجئ أحدهما بمن يضع نصلاً حادًا تحت عنقه من الخلف ويأمره بأن يعطيه الهاتف المحمول وما معه من مال . ثم يفر هاربًا ليكرر الفعل ذاته بعد يومين .. يحدث هذا فى الثانية بعد الظهر فى أحد أهم شوارع مدينتى وأكثرها ازدحامًا ، ولم يحدث فى شارع مهجور مقفر ليلاً . يخبرنى ابنى أنهم أخبروا (المستر) الذى كان مدرس رياضيات لحسن الحظ ، لهذا أخذ الفرجار العملاق الذى يدرسون به والذى يصلح كرمح .. ونزل إلى الشارع ليبحث عن

اللص .. طبعًا لم يجده أحد .. لابد أن هذا اللص مخلوق كان رجلاً يومًا ما ، ولابد أن البانجو أودى بعقله حتى يفعل هذا كله فى الزمان والمكان الخطأ ..

فى كارثة تسرب أسئلة امتحان الثانوية العامة فى المنيا ومصر كلها على الأرجح نكتشف أن المتهم الأول وهو رئيس لجنة ، قد حصل على رشوة من أربعة متهمين مقابل تسريب أسئلة امتحانات الثانوية العامة . هذه جريمة شديدة الخطر فلابد أنه تقاضى مليون جنيه على الأقل مقابل هذا .. لكنك تكتشف أنه فعلها مقابل **3600** جنيه كما ورد فى جريدة الدستور عدد **27** يونيو صفحة **3** . هذا نموذج فريد للسرقات الرخيصة .. كما كانوا يقولون : الشرف غال يجلب ثروة حقيقية لمن يبيعه . لكننا فى هذه الحالة نقابل من يبيع الشرف بأرخص الأثمان أو بلا ثمن تقريبًا ..

ألا ترى معى أن هذه مخلوقات كانت رجالاً فعلاً ؟

وماذا عن ذلك الشاب الذى يقف على باب دورة المياه العمومية ليناولك قطعة صابون ومنديلاً ورقيًا مع ابتسامة متملقة ؟.. طبعًا من أجل ما سوف تلقى به فى علبة المناديل الفارغة جواره . باختصار هذا شاب مفعم بالطاقة والنشاط صارت مهنته فى الحياة أن يتأكد من أن البك قضى حاجته جيدًا . الشاب الآخر الغارق فى العرق والغبار الذى يدق بابك ليعدك بأنك لو اشتريت زجاجتين من منظف الأرضيات الفلانى فلك زجاجة ثالثة هدية .. وماذا عن الشاب الذى يستوقفك وأنت متعجل ليسألك وهو يسد الطريق سدًّا عن (الملك الفرعونى الذى شيد من أجله تمثال رمسيس) . تقول بذكاء : رمسيس يا أخى .. فيصيح فى انتصار : مبروك .. أنت فزت وسوف تحضر حفلنا غدًا وتنال جوائز قيمة ، لكن

عليك دفع عشرة جنيهات كتأمين .. فى الحفل سوف تعرف الكثير عن نظام (التايم شير) الخاص بنا ، وكيف يصير ذلك الشاليه الجميل ملكك للأبد أسبوعًا كل عام ..

أبتلع ريقى وأفتح النافذة طلبًا لنسمة من الهواء النقى . هذه المخلوقات التى كانت رجالاً تتكاثر ويمكن أن تجدها فى كل ركن وتحت كل حجر . سوف تأخذ حقها فى الحياة بأى شكل ممكن عندما تدرك أن الموت لأطفالها محتوم ولا مفر منه .. أكثرها ما زال يقاوم بعناد مثل (أم آية) وبعضها خرج على الناس شاهرًا سيفه فعلاً .. إما أن تجد نفسك بينهم غدًا وإما أنت عدو لهم ..

عندها أين سنكون وماذا سنفعل نحن الذين لن نستطيع الفرار إلى سويسرا ؟.. أرجو من الإخوة الاقتصاديين العباقرة أن يردوا ..



عصر مراد بيه

يحدث الصبى ذو السنوات العشر صخبًا فى فصل المدرسة الخاصة فتنهره المعلمة ، لكنه لا ينتهر ولا تحمر أذناه إنما ينظر فى عينيها بتحد ، ويقول ضاغطًا على كل كلمة من كلماته :

ـ « أنت مش عارفة بتكلمى مين .. إنت نسيتى إن أهلى هما اللى بيدفعوا لك المرتب ؟.. وحياة أمى بكرة مش حتشتغلى فى المدرسة دى !! »

تصاب المعلمة الشابة حديثة الخبرة بحالة جنون هستيرى ممزوج بالدموع ، وتقتاد الصبى إلى مدير المدرسة الذى يتصل بأبيه .. طبعًا كلنا يعرف بقية القصة .. الأب (مراد بيه) يأتى للمدرسة وينهال تقريعًا على المدرسة والمدير أمام ابنه ومن تيسر من تلاميذ أو عمال ، ويكرر ما قاله ابنه من أن كل هؤلاء يتقاضون رواتبهم من جيبه ، والأغرب هو أن شيئًا لا يحدث للصبى على الإطلاق .. فقط تطلب المعلمة أن يتم نقلها فلا تدرس لهذا الفصل ثانية .. أى أن تهديد الطفل قد تحقق بشكل ما لو أردت أن تأخذ الأمور بشكل متشائم ..

من هو (مراد بيه) ؟.. هو شخصية ذات نفوذ وإن كان أحد لا يعرف مصدر نفوذه بالضبط .. ترى على ملامحه ذلك المزيج الفريد من الصفاقة والغلظة والغرور الذى يفوق الحد ، وقد تعلم تلك النظرة البوليسية الموحية بالأهوال والتى تقول : « أنت مش عارف بتكلم مين .. » يجيد إلقاءها وهو يفتح باب سيارته المرسيدس ليتشاجر مع هذا أو ذاك ..

لقد تغلغل (مراد بيه) فى حياتنا إلى حد غير مسبوق .. سيطر على

كل مكان وكل مرفق .. إنها الروح القبلية التى تضخمت فى مجتمعنا والاستهانة بالقانون .. ما دمنا نحن من يرتكب الأخطاء ونؤذى فكل شىء على ما يرام والحياة حلوة . الجرم كل الجرم أن تُؤذى بفتح الذال..

مصر قد تحولت اليوم إلى فصل كبير من فصول هذه المدرسة الخاصة .. فصل لا يحترم أحدًا ويزرع فى عقول أطفاله أن عدم احترام القانون هو جزء من السمو الاجتماعى .. نحن أكبر من المدرس .. أكبر من القانون .. الضعفاء والفقراء فقط هم من يحترمون المدرس ورجل الشرطة ويقفون فى الصف ، بينما نحن سادة (بنو مخزوم) ومن يجرؤ على اعتراضنا ميت ..

الأمثلة على ذلك كثيرة ، وفى جعبة كل منا العشرات منها ، لكنى على سبيل المثال لا الحصر أذكر موضوع تقاطع شارعى (بطرس) و(سعيد) الذى يعرفه كل من يسكن فى مدينة طنطا .. منذ أعوام وعند الثامنة مساء تقريبًا تلتقى فى هذا الموضع عشرات من سيارات الشباب .. تراهم يسدون الطريق سدًّا ويقفون خارج سياراتهم وأبوابها الأربعة مفتوحة ، وموسيقا الكاسيت عالية جدًّا وهم يتبادلون المزاح البذيء .. فلا يستطيع من يريد المرور عمل ذلك إلا بصعوبة وبعد ضغط آلة التنبيه عشرات المرات إلى أن يتنازل أحدهم ويغلق بابًا فى قرف شديد ، أما الفتيات فقد تعلمن أن يتجنبن هذا التقاطع بأى ثمن .. الملحوظة المهمة هى أن أغلب لوحات السيارات تحمل رقمين أو ثلاثة لا أكثر ، وهناك عدد من النسور واللوحات السود والزجاج الفيميه .. بينما يقف شرطى مرور ريفى بائس من طراز (يا سنة سوخة) على بعد ثلاثة أمتار منهم عاجزًا عن عمل شىء ، فيكتفى بالتعرض لسيارات الأجرة .. هو لا يريد أن يجازف ، ولابد أنه يذكر أمثلة كثيرة لزملاء له فشلوا فى تبديد هذه

المظاهرة أو عوقبوا .. وكل سائق أجرة يعرف أنه من المستحيل تفرقة هؤلاء لأن كل واحد فيهم ابن اللواء (مراد بيه) أو ابن المستشار (مراد بيه) .. ونحن نعرف كيف ينتهى كل كمين شرطة ببضع مكالمات بالموبايل .. و(كلم مراد بيه على التليفون) .. فإذا رفض الضابط أن يضع الموبايل على أذنه ، صاح الفتى فى السماعة : يا مراد بيه .. الضابط مش عاوز يكلمك .. هكذا يتلقى الضابط المغتاظ المكالمة واللوم ويعيد الرخصة للفتى .. حبة جديدة تضاف لمسبحة غرور الفتى وثقته بأنه فوق أى قانون ، وقصة جديدة يتفاخر بها فى قعدات البانجو ..

سيارة تتوقف فى مكان ممنوع وحساس أمنيًا بالمطار ، فيعترض رجل الشرطة ، هنا يخرج من السيارة رجل ضخم فخيم يلوح بالموبايل وينزع نظارته السوداء ليسمح للنظرة الأمنية الثاقبة بالخروج ، ويقول للشرطى بلهجة تهديد : « أنا المستشار مراد كذا .. » برغم أن كلمة (مستشار) توجب عليه كى يستحقها أن يضرب المثل فى احترام القانون .. وبالطبع يمتثل الشرطى البائس ويتراجع .. هو الغلبان الذى أفطر فجلاً وتغدى عدسًا .. هو القادم من (دشنة) ولو لم يأت البوكس ليحمله فى نهاية الوردية لما عرف كيف يعود ولمات جوعًا ..

وفى (مارينا) منذ أعوام كما قالت الصحف أوقف شاب يبغى استعراض القوة سيارته بالعرض لتسد شارعًا رئيسًا ، فتبقى السيارة حيث هى أربع ساعات ؛ لأن أحدًا لم يجرؤ على استدعاء الونش لجرها .. ما دام الفتى قد فعل هذا ، فهو على الأرجح ابن (مراد بيه) .. مراد بيه الذى قد يكون وزيرًا أو عضو مجلس شورى أو لواء كبيرًا فى الداخلية ، أو ربما هو صاحب مارينا نفسه ..

المستوى الآخر الذى بلغته المشكلة هو الادعاء .. كل الناس تعلمت كيف تتصنع أنها تمت بصلة لـ (مراد بيه) .. لى صديق متأنق يجيد التمثيل ، ويعرف فى كل كمين مرورى كيف يدعى أنه المستشار (مراد كذا) .. وقد ساعده الملصق الموضوع على زجاج سيارته والذى لا ينوى أن ينتزعه أبدًا .. صارحته بأنها مخاطرة وأنه لو طلب منه رجل الشرطة هويته لوجد نفسه فى مأزق ، فقال فى ثقة إن هذا مستحيل .. لا أحد يجرؤ على طلب هوية (مراد بيه) .. دعك من تلك النظرة الأمنية الغامضة التى تعلمها من أفلام (مراكز القوى)..

إنه ذلك الإحساس بعدم فعالية القانون ، وأن هناك طبقة فوقه ، وأن إجراءات التقاضى بطيئة ، فإن تمت صار لديك حكم لا جدوى منه وعليك أن (تبله وتشرب ميته) .. وكما يقول الغربيون : إن لم تستطع هزيمتهم فلتنضم لهم .. لا جدوى من هزيمة هؤلاء الذين صاروا يملكون مصر فعلاً ، فلا مناص من الانضمام لهم بشكل ما .. عن طريق ابنك .. عن طريق النسب .. عن طريق المماحكة .. عن طريق لوحة سيارة عليها رقمان أو ثلاثة لا تقبل أن تبيعها مهما عرض عليك من مال ..

هناك حل آخر هو البلطجة .. بعض الناس سيأخذون حقهم بأيديهم ما دام القانون لن يعيده لهم .. منذ أيام استعمل أحد رؤساء الأحزاب أستاذ قانون مجموعة من البلطجية يقتحم بهم مقر الحزب ، لأنه امتلك حكمًا لا يستطيع تنفيذه وهو مؤشر خطير جدًا على تراجع سلطة القانون واحترامه . أعتقد أن حوادث العنف سوف تتزايد باستمرار مع نمو هذه الطبقة وتنامى سلطة (مراد بيه) .. من لا يملكون مراد بيه سوف يلجئون إلى (سوكة) و(سيد سوابق) ..

لماذا تتسابق الأسر على أن يدخل أبناؤها كلية الشرطة ؟.. هناك أسباب كثيرة لكن أهمها أنها تريد أن تملك (مراد بيه) الخاص بها والذى تخالف به القوانين .. ولتحقيق هذا تتصل بـ (مراد بيه) آخر ليسهل لها أن يصير ابنها (مراد بيه) .. كل أسرة تريد أن يكون عندها وكيل النيابة والمستشار فإن لم تجد واحدًا ناسبته أو تمحكت فى قريب بعيد .. هكذا تستطيع أن تخالف القانون كما تشاء .. وترى السيدة تحدثك فى فخر عن قرابتها لـ (مراد بيه) فى الجمارك و(مراد بيه) فى أمن الدولة و(مراد بيه) فى دار القضاء العالى و(مراد بيه) فى قسم (الساحل) .. حتى كأنها من هواة جمع الطوابع تحدثك عن مجموعتها الخاصة من الـ (مراد بيهات) ..

والمشكلة فى مصر أن الأمر تجاوز مجرد لذة قهر الجيران .. إن النجاح الاجتماعى صار يقترن اقترانًا قويًا بالقدرة على خرق القوانين .. مش إحنا .. لقد تعبت كثيرًا حتى أبلغ مكانة تسمح لى بمخالفة القانون ولن أسمح لواحد من العامة بأن يحاسبنى ..

لقد وصل الدرس كاملاً إلى ابن (مراد بيه) وإلى كل طفل فى ذات الصف معه .. إلام سيصير هذا الصبى ؟.. وإلام سيصير زملاؤه الذين رأوا المواجهة بين قيمة العلم والاحترام وقيمة النفوذ والبلطجة وعرفوا بوضوح من الفائز ..؟.. إلام سيصير الجميع بعد عشر سنوات ؟.. لا أتمنى أن أكون موجودًا لأعرف ..

على سبيل التفويل

لأسباب تتعلق بالنحس ، اضطررت ذات مرة إلى العودة من القاهرة إلى طنطا فى ساعة متأخرة بعد رحيل آخر القطارات .. وهكذا ركبت إحدى سيارات الميكروباص الواقفة فى ميدان رمسيس والتى يصر رجال المرور على أنه لا وجود لها .. منذ البداية لاحظت أن السائق محمر العينين يتكلم بالضبط على طريقة (اللمبى) .. نموذج فريد جدًا يصلح لشرح الإدمان عليه لطلبة الطب .. شاب عجن شعره لأعلى بالفازلين ، وارتدى انسيالاً جلديًا ويعانى حالة متقدمة من الإحساس بالفتونة والعافية والفخر بشاربه ..

وانطلق الميكروباص فى تلك الرحلة السوداء التى يمكنك أن تتخيلها .. سرعة جهنمية حتى شعرت بأن الميكروباص لا وزن له تقريبًا .. أخطاء قاتلة .. فرملة حيث لا ينبغى أن تفرمل .. الأضواء كلها مطفأة على سبيل (الحرفنة) .. كل قاعدة مرور فى الكتاب خرقها هذا الفتى .. إنه يسرع فى المنحنيات برغم أن أول قاعدة قيادة سمعتها فى حياتى هى التهدئة فى المنحنيات ، من ثم يتحول الميكروباص إلى دراجة أطفال لطيفة تجرى على عجلتين .. وعند مدخل أحد الكبارى كانت أمامنا مقطورة لا تكف عن إعطاء إشارة الاتجاه إلى اليمين .. هكذا صارت قضية حياته أن يمر من جهة اليمين وإلا فقد رجولته وكرامته .. اقترب جدًا وأوشك على المرور لولا أنه أدرك فى آخر لحظة أن الثغرة لا تكفى وأن معنى المحاولة هو السقوط فى الماء .. هكذا داس الفرملة بعنف أطار الجالسين .. لكن الأمر لا ينتهى عند هذا الحد .. إنه ككل الشخصيات الفمية يعتقد أنه على حق دائمًا .. يخرج رأسه من النافذة ليسب سائق المقطورة بشتائم لا يمكن التلميح لها ، وكل ذنب السائق أنه قرر أن يتجه لليمين وأعطى إنذارًا بهذا قبل أن يفعل بخمس دقائق ..

من جديد اندفع للأمـام ليضغط على سيارة ملاكى تمشى أمامنـا .. ضغط عليها جدًا إلى درجة أنه اضطـر للفرملة بـالعنف بعد ما أوشكت الكارثة على الحـدوث .. من ثـم أخـرج رأسـه مـن النـافـذة يسـب سـائق الملاكى وكيف أن (أمه جايباها له) وإنه بالتأكيد رجل مترف رائق البال ذاهب لممارسة الزنا أو عائد منه ..

أين الرادار الليلى الذى صدعونـا بـالكلام عنه ؟.. ولماذا أرى كمين مرور للتفتيش على الأحزمة كل دقيقة فى الصباح بينما معظم الحوادث تقع ليلاً ؟.. بهذه الطريقة فى القيادة ليس الغريب أن يقـع حـادث مـن وقت لآخر .. المعجزة الحقيقية ألا يحدث حادث كل دقيقة .. المعجزة ألا تكـون لدى كل سائق ميكروباص مرة واحدة يقود فيها فى حياته ثم يموت ويأتى غيره ، وكلهم يتوق إلى أن يرى طنطا هذه !

(خلص) و (اخطفها) .. كلمتان هما السبب الدائم لمشكلة المرور فى بلدنا .. كل حادث لابد أن سببه واحد أراد أن (يخلص) أو وجد فرصـة وأراد أن (يخطفهـا) .. حتى هـذه اللحظة كنت أرى الركـاب هـادئين مستسلمين كالخراف ، وقد قال لى أحد الجالسين جوارى :

« هو دايمًا يسوق كده .. ما تركزش وباذن الله نوصل بالسلامة .. »

لكن صبرى كـان قد نفد ، فلـو كـان هـذا المخبـول يتوق إلى تدمير الميكروباص والانتحار فهذا شأنه ، أما أنا فليس ضمـن برنـامجى أن يصير أطفالى يتامى بسبب مدمن أفرط فى شرب (التوسـيفان) أو تلـك الخلطة اللعينة التى يطلقون عليها (مزاج العربجى) ..

صارحته برأيـى فـى قيادتـه وكيف أن الميكروبـاص كـاد ينقلـب سبع مرات على الأقل .. فقال فى غلظة وتحد :

ـ « مش انت اللى سايق يا أستاذ .. أنـا اللى وازن الدركسيون وعـارف أنا بعمل إيه بالضبط .. يعنى أنا عاوز أقلب عربيتى ؟ »

أخبرته بحقيقة حسبتها مفهومة ، هى أن كل من انقلبت به السيارة كان يزن عجلة القيادة ويعتقد أنه يعرف ما يفعله ..وبالتأكيد لا أحد منهم تمنى أن يحطم سيارته ..

كل هذا مألوف للقـارئ ولا يبرر كتابة هـذا المقال ، لكـن مـا ليـس مفهومًا هو تلك الثورة العامة التى عمت السيارة ، وكيف هبت كل تلـك الخراف النائمة تصيح بى بمزيج من الغضب الحقيقى ومداهنة السائق :

ـ « يا عم ما تفوّلش .. تف من بقك .. بشروا ولا تنفروا ! »

كان رأسى يوشك على الانفجار من الغيظ .. تأمل معى هذا المنطق .. التحذير هو الذى سيقلب السيارة ويرسـلنا إلى الجحيم ، بينمـا كـل هـذا الذى يمارسه السائق شىء طبيعى والرجـل يعرف مـا يفعلـه .. الحـوادث لا تقع لأن هناك مستهترين ، وإنما لأن أمثـالى مـن الأفندية كغربـان البيـن يصرون على (التفويل) ..

طبعًا تمت الرحلة على خير بدليل أننى أكتب هـذه السـطور ، وإن حققت رقمًا قياسيًا جديدًا هو ساعة إلا الثلـث مـن القاهرة لطنطا ، لكن هـذه القصة ذكرتنى بقصة للراحل العظيم (يوسف إدريس) اسمها (سنوبزم) ، عـن أستاذ الأنثروبولوجى الذى اعتاد ركوب الأتوبيس المزدحم ، وفى يوم راقب مشهدًا غريبًا . رجل يتحرش بامرأة إلى درجـة محاولـة نـزع ثوبهـا .. لمـا استغاثت المرأة هب ركاب الحافلة كلهم على من ؟.. على المرأة طبعًا .. وتم رميها مـن السيارة فـى أول فرصـة .. هـذا السلوك الجماعى الغريب أثار فضـول

عالم الأنثروبولوجى فسأل الناس بصوت جهير عن سبب هذا التصرف .. كانت النتيجة أنه تلقى علقة ساخنة وألقى من الأتوبيس بنفس الطريقة ..

السلوك الجماعى يتخذ مناحى غريبة أحيانًا ، وهو فى قصتى يكشف الكثير عن مفهوم القدر فى عقولنا .. فى هذا المفهوم يعتبر الحذر من الحوادث هو سبب الحوادث ، ولا يوجد ما يمكن منعه على الإطلاق و(لو مكتوب لنا نعمل حادثة حنعمل .. حتى لو العربية واقفة) .. يا سلام على كل هذا الإيمان والزهد الجديرين بالدخول فى تراث التصوف !.. يقود الرجل سيارته بسرعة ثمانين فى الساعة وطفله السعيد على حجره خلف المقود ، معرضًا الطفل لتهشيم جمجمته مع أول فرملة عنيفة ، فلو أنه ارتكب هذه الفعلة فى الخارج لشنقوه .. يترك الرجل طفله يتسلق سور الشرفة ويتدلى منها... يناول الرجل صديقه كوب الشاى الساخن فوق رأس طفله .. فإذا تكلمت قال لك فى حكمة إن الحذر لا يمنع القدر وإن (ربنا يستر) .. فإذا وقعت الواقعة وهلك الطفل جلس فى سرادق العزاء يبكى ويتحدث عن (الوديعة التى استردها الله منا) و(هذا هو عمره) .. نعم .. كان مكتوبًا أن يتسلق الطفل سور الشرفة وتنزلق قدمه فيسقط فى الشارع .. كان مكتوبًا أن ينفجر إطار الميكروباص وينقلب وهو يرمح بسرعة 120 كيلومترًا فى الساعة .. كل هذا مكتوب كما كتب أنك أحمق مستهتر ، ورعونتك سوف تقودك إلى المهالك ..

سبعون بالمائة من الحوادث يمكن منعه .. هذا ما يقوله الغربيون .. كم من حريق ينتظر أن يحدث بسبب عقب سيجارة أو ماس كهربى .. كم من كوب ملىء بالبوتاسا الكاوية التى تبدو كاللبن ينتظر الطفل البائس الذى سيشربه .. حادث السيارة المروع الذى سيحدث فجر غد بسبب

الرعونة .. كل هذا يمكن منعه .. حتى الأوبئة يمكن منعها لأن هناك فرعًا مهمًا من الطب اسمه الطب الوقائى ، فلا تبقى إلا نسبة 30٪ يستحيل أن تفعل بصددها أى شىء ، وهى قائمة البراكين والفيضانات والزلازل ، وطبقًا لهذا كان ينبغى أن تكون مصر أكثر بلدان العالم أمنًا ، فقد حفظها الله من الكوارث الطبيعية لكننا ملأناها بالكوارث البشرية ..

أحيانًا تبلغ القدرية درجة تثير الجنون .. أذكر أن شابًا فى العشرين من معارفى أجرى جراحة تافهة ، وبسبب خطأ اعترف به طبيب التخدير توفى الفتى على مائدة الجراحة .. قلت لأقاربه إن من حقهم وربما واجبهم أن يتخذوا إجراءً قانونيًا .. كان ردهم متوقعًا هو أن التقاضى لن يعيد لهم من مات ، ثم إن هذا عمره .. لقد كان مكتوبًا له أن يموت فى هذه الساعة .. قلت لهم إنه لو أخرج طبيب التخدير سكينًا وأغمده حتى المقبض فى صدر الفتى ، فهذا عمره أيضًا .. ولو عممنا القاعدة فلا جدوى من معاقبة القاتل فى أية جريمة .. بالطبع لم يكونوا مستعدين لسماع هذا الهراء ، وخبرات آلاف السنين لا يمكن تغييرها لمجرد أنك تريد هذا .. أعتقد أن هذه القدرية سوف تكبلنا للأبد ، ما دام لا يمكن منع الحوادث ، وما دامت فكرة الاحتياط اعتراضًا على القدر .

واجب علماء الدين أن يثبتوا مفهوم (اعقلها وتوكل) فى أذهان الناس منذ الصغر ، وأن ينمو نوع من الوعى المرورى ذى الطابع الدينى فى الأذهان ، إذا كان الناس فعلاً متدينين إلى القدر الذى يحبون أن يروا أنفسهم به ..

الخاطر الأخير الذى جال بذهنى بعد مغامرة الميكروباص تلك هو

صورة وطن كامل .. وطن كـامل يندفع إلى الهاوية ، بينمـا النـاس نيام مستسلمون لقدرهم ، و(ما تركزش ويإذن الله نوصـل بالسـلامة) ، فـإذا فتح أحمـق فمـه للاعـتراض هبـوا غـاضبين يخرسـونه .. السـائق يؤكـد أنـه يسيطر على عجلة القيادة تمامًا لكن الشواهد تكذبه .. ثم إننى استبعدت هذا الخاطر حتى لا يتهمنى أحـد بـ (التهويـل) ، فلعلى إذا أسـرفت فـى الحديث عن ضياع الوطن ضاع الوطن فعلاً !

لماذا لم يشم عادل الورد ؟

امتحانات التيرم الأول للصف الثانى الابتدائى .. أشـق طريقـى وسـط الزحـام نحو اللجنة ممسكًا بكـف (مريـم) ابنتـى الصغـير إلى أن أصـل للبوابة ، فأدفع هذا وذاك من أولياء الأمور الذيـن يصـرون على الوقـوف أمام البوابة ليسدوها كأن هذا يجعل أطفالهم أذكـى .. وفـى النهايـة أتـرك (مريم) لصف من العاملات مخيفـات الشكل يناولنهـا لبعضهـن يـدًا بيـد حتى تغيب فى قدس الأقداس بالداخل ، الأمر الذى يذكرنى بمشـهد الأب الذى ترك ابنته رهنًا لدى عصابـة المخدرات فـى فيلـم (الباطنيـة) إلى أن يجلب ثمن الحشيش الذى أخذه ..

عدت فى موعد الانصراف لآخذها بذات الصعوبة ، خاصة مع أحجـام الأمهات المرعبة كأنها حروب الديناصورات فى العصر الطباشيرى .. هنـا لاحظت ظواهر عجيبة .. معظم الأمهات لم يعدن لبيوتهن قط وإنما ظللـن طيلة فترة الامتحان على الباب يقرأن القرآن .. بعـض الأمهات دامعـات العيون ، وثمة أم ترتجف وتتنفس بسرعة لتزيد قلويـة دمهـا موشـكة على الإصابة بحالة هستيرية .. بينمـا يخرج الأطفـال مظفرين وقد بـدا عليهـم الغرور لأهميتهم المستجدة .. اكتشفت أن الأمهـات يحملـن جميعًـا أسئلة الامتحان ليراجعنها مع الأطفال : جاوبت السؤال ده بإيه ؟.. قلت إيه هو لون القطة ؟.. الحتة دى مش فى الكتاب..

ثم يتقلـص وجـه الأم مـن صعوبـة الأسـئلة وتـردد بـلا انقطـاع : ولاد الكلب .. ربنا ينتقم منهم !.. ربنا ينتقم منهم !

سألتهن عن كيفية الحصول على هذه الأسئلة ، فدللننى على صاحب مكتبة (شاطر) حصل على ورقة الامتحان وقام بتصويرها ، وهو يبيع الورقة بعشرين قرشا .. برغم إيمانى بعبثية الموقف فقد وقفت فى الطابور لأبتاع نسخة .. لن أكون الأب الوحيد الذى لم يشتر نسخة من الأسئلة ويكون على أن أخبر أم العيال بهذا .. فقط رحت أتساءل عن الكيفية التى حصل بها هذا الأخ على أسئلة الامتحان ، فلابد أنه يقتسم الأرباح مع أحد الإداريين بالداخل .. عشرون قرشا فى ألف ورقة خلال ساعة .. ليس مبلغا سيئا .. دعك من أنه حصل عليها بالتأكيد قبل مرور نصف الوقت كى يتمكن من تصوير كل هذه النسخ ..

عندما عدنا للبيت راجعت مريم الإجابات مع أمها ، ثم تفرغت للاتصالات الهاتفية مع صاحباتها .. لماذا لم يشم عادل الورد ؟.. أنا قلت لأن عنده زكام .. مس هناء عدت علينا وقالت هى دى الإجابة الصح .. هكذا ظل الهاتف مشغولاً لمدة ساعتين ..

عندما تأملت فى الموقف بعد ما هدأت الأمور وجدت شيئا غير طبيعى وغير مبرر .. نحن نتكلم عن امتحان نصف العام للصف الثانى الابتدائى !.. الصف الثانى الابتدائى !.. هل يستحق الأمر كل هذا الانفعال الزائد والتوتر ؟.. كل هؤلاء الصغار سينجحون بلا شك والمجموع لن يؤثر فى مسار حياتهم ، وإن لم أكن مخطئًا لن يحرمهم دخول كلية يحبونها..فماذا يصنعون فى الثانوية العامة إذن ؟.. عندما لا يتناسب الانفعال مع المناسبة فإن ما تشعر به هو إحساس عارم بالسخف .. رجل يلطم خديه فى الشارع لأنه لا يجد علبة الثقاب فى جيبه..

دموع وبكاء ومراجعات فى الهاتف .. كل هذا من أجل (لماذا لم يشم عادل الورد ؟) و (ما لون القطة ؟) .. هل هذا سلوك فسيولوجى ؟.. هل هذا سلوك عقلانى ؟.. هل هذا طبيعى ؟

فى طفولتى وأزعم أننى نشأت فى أسرة مترابطة تهتم بأطفالها لم يكن أحد يعلق أية أهمية على امتحانات من هذا النوع وبهذا الحجم .. فى هذا الوقت كنت فى مدرسة مجانية ، ولم تكن (الأبله) قد أصيبت بذلك المرض المريع الذى حولها إلى (مس) ، ولم تكن أعراض التحول إلى (مستر) قد أصابت الأستاذ .. كان المعلمون قومًا بارعين فى مهنتهم ذوى ضمائر حية وثياب رثة بالمناسبة ؛ لأنهم لم يكونوا يحصدون الآلاف من الدروس الخصوصية ... فقط كنت أخبر أهلى أن لدى امتحانًا غدًا فكانوا يعطوننى الورق والأقلام اللازمة وينسون الأمر ، ولم تبدأ هذه الهستيريا إلا مع دخولى الشهادة الابتدائية .. بدأت مع كثير من التحفظ ..

ما سبب هذا الذعر العام ؟

جاءنى الجواب على الفور .. إنه الفراغ الروحى .. المصريون يفتقرون إلى مشروع قومى يضمهم ويوحد مشاعرهم لهذا يختلقون أى مشروع حتى لو كان (لماذا لم يشم عادل الورد ؟) .. إنها الضغوط النفسية والاقتصادية والعاطفية والدينية تحاصر المصرى الذى لا يجد طريقة لإخراجها إلا على باب اللجان .. فلابد من شماعة .. لابد من قناة لخروج كل هذا الضغط .. هكذا لا يجد المصرى هدفًا إلا ذلك الطفل البائس ذا سبع السنوات الذى تقع على كتفيه الصغيرتين مسئولية كل شيء يحدث للأبوين .. وبما أن العصاب معد ، فإن هذا التوتر ينتقل للطفل

مع الوقت .. سوف يذهب إلى الامتحان شاعرًا بأنه مسئول عن آمال أمة وأحلام وطن .. وسوف يرتجف ويتوتر ويقضى الساعات على الهاتف يناقش لون القطة مع أصحابه .. اثنتا عشرة سنة من التوتر ، ثم ينتهى وقوده فى الثانوية العامة فلا يظفر إلا بخمسة وثمانين فى المائة بعد كل هذه الصراخ .

الشخصية المصرية تعانى درجة عالية من التوتر العاطفى الذى يبحث عن مخرج .. مثلاً قد يأخذ هذا المخرج شكل توتر لا مبرر له كالذى رأيته على باب اللجنة .. هناك هواية صنع أبطال حتى لو كانوا من عينة شعبان عبد الرحيم لمجرد أنه قال (أنا باكره إسرائيل) .. . إنه ذلك الجوع إلى بطل يحمل عنا العبء النفسى ويدفع ثمن أرواحنا ..

الغضبة العارمة فى قضية الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية عظيمة ومفهومة ، ولكن أين غضباتكم على نهب مصر وتزوير الانتخابات وتعرية الصحفيات وعلى احتلال العراق الذى يهين المصاحف فى دورات المياه ؟ يحتاج الأمر إلى عالم اجتماع يفسر لنا هذا التناقض السلوكي عندما يهان الدين بيد الولايات المتحدة وعندما يهان بيد الدانمرك .

اتصلت بصديقى لأخبره بهذه الخواطر فوجدت الخط مشغولاً .. طلبته عدة مرات على مدى ساعة ، وفى النهاية عرفت أن زوجته كانت تجرى مكالمة طويلة مع أم (ندى) زميلة ابنته الطالبة فى الصف الأول الابتدائى .. السبب هو أنهم أولئك الأوغاد فى المدرسة قد أنقصوا درجتين من نتيجة الفتاة لأنها قالت إن لون القطة أسود بينما كتاب الوزارة يؤكد أنها بيضاء !.. الأم مصرة على تقديم شكوى وإعادة تصحيح الأوراق ، بينما زوجة

صديقى تقنعها أن كتاب الوزارة هو الحجة الأخيرة .. ما دام قال بيضاء يبقى بيضاء .. . ثم إن هؤلاء لن ينصفوك أبدًا لأن التعليمات تقضى بأن يقللوا عدد من يدخلون الجامعات !

هكذا أنهت أم (ندى) المكالمة ، ولن أندهش لو عرفت أنها ابتلعت أقراص الأسبيرين لتقتل نفسها بعد ما فقدت كل أمل فى الغد .. .

مصر تتحول يومًا بعد يوم إلى مستشفى مجانين كبير .. هل يدرك أحد هذه الحقيقة قبل فوات الأوان ؟

دماغى كـده

فى الذكريات الحميمة

ياسر وبطاطة وأشياء أخرى

كانت الحالة محيرة .. فتاة تعانى تجمعًا صديديًـا فى الحوض استغلقت معرفة سببه على الجراحين ، وقد خطر لنا ونحن نقف هنالك فـى العنبر أن السبب قـد يكون متعلقًا بالتهاب المبيضين أو داء ما من أدواء النساء العديدة التى نجهلها نحن الأطباء البـاطنيين ، هنا قـال ثلاثة منا فى ذكـاء وبصوت واحد : « نسأل ياسر الجندى ! »

ثم تذكرنا ونظرنا للأرض ، وغلبتنا ابتسامة تجمع بـين الخجل والحرج والمرارة ولوعة الفراق ، فقد نسينا جميعًـا أن د . ياسـر الجنـدى مـدرس أمراض النساء قد توفى منذ ستة أشهر . لكـن الموقف كـان معدًّا بعناية ليكون هو بيننا وكى يتهمنا بالإهمـال والحمق ، وكى يداعب المريضة ، ويأتينا بالخبر اليقين.

عندما أتذكر ياسر الجندى فإننى أتذكر ذلك الوجه الشاحب المرهق ، ولفافات التبغ التى لا تنتهى ، والسهر فى عنبر النسـاء البـارد ، وأكـواب القهـوة والحلبـة الحصى ، والممرضـات السـاهرات بـالقوة يلعـبن (الآل) بزجاجات الدواء الفارغة بانتظار الولادة التالية .. أتذكـر القفازات الملوثـة بالدم والقساطر ، وياسر الذى يركض فى طرقـات المستشفى فى الظلام بحثًا عن فصيلة (أو سالب) من أجل عطيات أو إنصـاف التى تنزف فى عنبر الولادة بينما اختفى أهلها وهجرها زوجها . لو قابلتـه وقتهـا وكنت من ذات الفصيلة فلن ينقذك من براثنه شيء .. مهما قلت أو فعلت.

ياسر الجنـدى .. مـا زلـت أتذكـره كلمـا تحدث أحدهـم عـن إهمـال الأطبـاء وجهلهـم . الأطبـاء الذيـن هـم دائمًـا غيـر موجوديـن فـى

المستشفيات ، فإذا تواجدوا كانت هذه نهايتك لأنهم يرتكبون الأغلاط القاتلة بالجملة . المشكلة أن الأمثلة الإيجابية كثيرة جدًا لكنها غير مسلية ولا تروق للصحافة ولا المرضى . لا أحد يكتب مقالاً عن طبيب تبرع بدمه من أجل مريضة ، لكن الجميع يكتب للصحف عن طبيب سرق كلية .. هذه هى طبائع الأشياء .

أتذكر فاطمة .. الأم شبه الطفلة التى انحشرت رأس الجنين فى مهبلها أثناء الولادة ، مما أدى إلى تكوين ناصور بين المثانة والمهبل . النتيجة هى إنها كانت تبول بلا أى تحكم إرادى ، وبالطبع طلقها زوجها على سبيل الامتنان والمودة ، ثم اكتشف أطباء قسم النساء أنها مصابة بالاستسقاء وأنه من المستحيل إصلاح هذا الناصور الآن . دخلت فاطمة قسم أمراض الكبد لعلاج هذه الاستسقاء وسط عاصفة من ولولة أمها العجوز ولطمها . أسأل فاطمة عن لون بولها فتنفجر فى البكاء وتقول : « وانا حشوفه ازاى ؟.. هو أنا باعمل زى باقى البنات ؟ »

اعتاد ياسر الجندى أن يزورها فى العنبر عندى يوميًا ، وأتذكر السيرك الذى أقامه ليسليها ويضحكها . كيف كان يتكلم بطريقته (الريفية الأنثوية) التى كان يحسن اصطناعها كأنه امرأة ريفية عجوز ، والتى اكتسبها من تعامله مع المريضات ، وكانت تضحكهن دائمًا : « يا بت يا طاطة يخرب مطنك .. ينيلك .. دانتى دراعك راح قد صباعى .. » ثم يداعب أنفها بسلسلة المفاتيح : « حاتخفى يا بطاطة وتيجى القسم عندنا ، ونعمل لك العملية .. لكن أمك .. أمك !!.. » ويتقلص وجهه فى توحش يجعل فاطمة تنفجر ضاحكة دامعة العينين كالأطفال : « أمك الولية الحيزبونة ..

الولية القرشانة دى لو عتبت القسم عندى قسمًا عظمًا لاخلى العمال يرموها فى الترعة .. »

كنت أعرف جيدًا أن الاستسقاء لن يزول وأن الجراحة مستحيلة ، لكنى أخفيت الحقيقة عن بطاطة وعن ياسر الجندى معًا . بالذات أخفيتها عنه ...

كنا نتهمه بالمبالغة كثيرًا ، وبأنه يعانى خليطًا من لذة الاستشهاد والوسواس القهري . بعد انتهاء أعوام الطبيب المقيم صار من حقه أن يستريح وأن تكون نوبتجياته أقل ، لكنه ظل يعيش بذات التوتر وذات الإرهاق كما كان وهو طبيب مقيم . نوبتجية قد تمتد لثلاثة أيام لكنه لا يغمض عينه فيها لحظة . من الطبيعى جدًا أن يضع بيده الشبشب فى قدمى مريضة ، أو تراه هو والعامل يحملان أسطوانة أكسجين لأنه لا وقت لترف انتظار العامل الآخر .

التبرع بالدم كان هوايته لدرجة أنه تبرع بدمه خمس عشرة مرة فى عام واحد وهذا رقم قاتل ، لكنه كان يعرف أن تخصصه هو تخصص النزف حيث ثمن الدم أغلى من الذهب ، حتى صار ضيفًا غير مرغوب فيه فى بنك الدم ، وحتى تلقى الفنيون هناك أمرًا غير مكتوب من المدير يقضى بمنع د . ياسر الجندى من التبرع بأى شكل . بالطبع سرق هو بعض أكياس التبرع الفارغة لتكون متاحة تحت يده فى الظروف القصوى .

يعبر الطريق أمام المستشفى فتسقط منه أشعات مريضة كان يحملها .. ينسى واجب الحذر ويعود ليلتقط الأشعات قبل أن تدهمها السيارات ، فيضربه ميكروباص مجنون . غارقًا فى الدم يحملونه إلى قسم العظام بينما

مشكلته الوحيدة هى تبرئة سائق الميكروباص الذى لا ذنب له ، ثم البكـاء لأن غيابه عن القسم يعنى توقف عشرات الأمور التى لن يقوم بها واحـد آخر . إنه بحاجة إلى مائة ياسر جندى آخر ليفعلوا بالضبط مـا يريـده كمـا يريده .

هل يبدو كلامى مبالغة كأننى أتحدث عن كرامات واحد من الأوليـاء ؟.. يمكنك أن تسأل أى شخص من مستشفى طنطا الجـامعى عن د. ياسر الجندى ليخبرك بأن ما أقوله يبخس الرجل حقه .

لم يكن يؤمن بأى شكل أنه يسـتحق راتبـه ، وهكـذا أنفقـه كلـه على المريضات وجعل عنبره المجانى فى قسم أمراض النسـاء أقرب إلى فنادق الخمسـة النجـوم : ستائر .. ثلاجـة .. أزهـار .. بـالطبع لـم يـتزوج وقـد ساعده هذا على أن يحتفظ بتعاليه على المال وهذه الرهبنة التى اختارها ..

ظل يرفض أن يدخل امتحان الدكتوراه برغم أنه تلقـى وعـدًا بالنجـاح لأنه يؤمن بأنه لم يحقق المستوى العلمى الذى يريده بعد ، وقام بتسجيل كـل ما يقابله فى علم أمراض النساء على شرائط كاسيت يسمعها فى الظلام فى أى مكان يكون فيه وحده .. كان يريد أن يتحول العلم إلى طبيعة ثانية لـه . وفى النهاية دخل الامتحان ونجح لكنه لم يفتتح عيادة قط .

جاءت النهايـة سريعًا فـى نهـار رمضـان منـذ أعـوام عندمـا تـأخر فـى الاستيقاظ من النوم ، وقد اعتبر ذووه هذا تصرفًا معتادًا فى شـهر الصيـام .. فتحوا غرفته أخيرًا ليجدوه ساقطًا على الأرض وفى غيبوبـة عميقـة . لقـد قتله الإنهاك والجهد والسهر وارتفاع ضغط دم لـم يعالجه قـط ، فـأصيب بنزف مخى . أسبوع كامل مر والجميع يصلى من أجله لكـن الموت ذواقـة

يجيد الانتقاء كما تعرفون .. عروس فاتنة لا تختار سـوى الفرسـان . وبعـد وفاته جمعت مريضاتـه الريفيـات الفقيرات المـال مـن بعضهـن وصنعـن لـه صورة عملاقة علقنها فى عنبره ...

أين ذهبت بطاطة وماذا كان مصيرها وسط هذا كله ؟.. لا أعرف طبعًا ..

ياسر الجندى كان بيننـا .. أوافق تمامًا علـى أنـه مثـال نـادر لا يُقـاس عليه ، لكنى أدعوك إلى أن تتذكره وأنت تزور عيادة هذا الطبيـب أو ذاك من أباطرة الطب الذين لا تختفى صورهم من الفضائيات وبرامج التلفزيون والصحـف والمجـلات .. تذكـره وأنـت تكتشـف أن موعـد الكشـف فـى الثالثة صباحًا وقيمته مائتا جنيـه .. وعندمـا يطـالبك الطبيـب العظيـم بـأن تعيد الأبحاث كلها فـى مختبر (المـدام) ، وعندمـا يكتـب لـك فـى النهايـة علاجًا لا جـدوى منـه جربتـه ألـف مـرة مـن قبـل ، وعندمـا تكتشـف أن التحليل باهظ الثمن الذى طلبه منك لا قيمة له إلا استكمال ورقة علميـة يريد أن يقدمها (على حسابك) فى مؤتمر كوبنهاجن القادم ..

عندما تتعامل مع هـذا الطبيـب أو ذاك مـن آلهـة الأوليمـب تذكـر أن هناك من يدعـى ياسـر الجنـدى ومثلـه مئـات مـن الأطبـاء الذيـن يختلفـون بالتأكيد عن تلك الصورة التى تهوى وسائل الإعلام رسمها . مـن الحـرام أن تخلط بين هذا وذاك ، ومن القسوة أن تعامل هذا بميزان ذاك .. تذكـره عندما ترى شرطى المرور الفقير الذى يساعد الأطفال على عبور الطريق ، ومدرس الابتدائى الذى ما زال يصر على أن يبح صوته فى الشرح مقـابل ملاليم ، وموظف السجل المدنى الذى يرفض الرشوة وهو أحوج ما يكـون لها .. تذكر مصر الطيبة السمراء التى لم تمت وتصر على الحيـاة بإصرار غريب برغم كل ما يحدث لها.

حيث الكل فى واحد

شـارع (سعيد) الهادئ فى هذه الساعة من نهار رمضان ، وأنا أحمل الحقيبة التى امتلأت بأرغفة الخبز الساخن ، راضيًا عن نفسى لأن الفرن كان خاليًا تقريبًا فى هذا الوقت . كنت أنا المكلف بهذا الكابوس اليومى : شراء الخبز ، ويكفى لأصف لك عذابى أن أقول إن طابور الخبز فى ذلك الوقت كان يشبه الطوابير الحالية تمامًا ! .

هناك كان واقفًا تحت شرفة فى بناية بالشارع ، شاب يبدو أنه جامعى ومن طبقة متوسطة يلبس ثياب الميدان الكاملة التى لم أرها من قبل إلا فى الصور . الخوذة والجربندية على ظهره ، وكان يرفع رأسه إلى الشرفة بالطابق الثالث وينادى :

ـ « صلاااااح ! »

و(صلاح) لا يرد .. لا أعرف إلى أين كان الفتى ذاهبًا ولا لماذا كان هنا والحرب نشبت منذ خمسة أيام ، لكن كل شىء يقول إنه ذاهب إلى وحدته مع (صلاح) صديقه الذى لا يرد . ذاهب للقتال طبعًا لا للتدريب ..

إن هى إلا بضع ثوان حتى وقف فلاح وزوجته جوار الفتى ، وراحا يناديان بأعلى صوتهما :

ـ « صلاااح ! »

ثم ظهر ميكانيكى على دراجته وراح ينادى .. بعد دقيقة صار هناك عشرة ينادون (صلاح) .. وتطوع أحدهم بأن يقذف طوبًا على الشرفة ، بينما تطوع آخر بأن يصعد ليدق الباب ، والمظاهرة تحت شرفة صلاح تتزايد ، والجندى الشاب ينظر حوله فيبدو عليه الضيق والحرج من هذه الفضيحة ..

ـ « صلاااااح ! »

بعد لحظة ظهر (صلاح) من الشرفة وهو بكامل ثيابه ، هنا تعالى الهتاف والتصفيق .. والفلاح العجوز وثب ليعانق الفتى ويلثمه على خديه :

ـ « مع السلامة .. هات لنا رمل من سينا وانت جاى يا دفعة ! »

وابتعدت حاملاً الخبز وأنا أفكر فى مغزى هذا المشهد الذى ظل محفورًا فى ذاكرتى خمسة وثلاثين عامًا . هؤلاء قوم يريدون عمل أى شىء .. أى شىء من أجل هذا الذاهب إلى الجبهة ليتلقى الرصاص ولربما يموت كى يظلوا هم أحياء أحرارًا .. أبسط شىء استطاعوا عمله هو مناداة صلاح ، ولو طلب منهم الجندى الشاب أن يلثموا قدميه أو يحملوه إلى الجبهة حملاً لفعلوا بلا تردد ..

كان مأمور قسم أول فى طنطا صديق أبى ، وقد زرته مع أبى أيامها فقال لنا وهو يشير إلى التخشيبة الخالية :

ـ « تصوروا أننا لا نجد لصوصًا نقبض عليهم منذ نشبت الحرب ؟.. حتى اللصوص (اختشوا على دمهم) .. »

هذه كما لاحظت بعض ذكرياتى عن حرب أكتوبر عام 1973 .. أما كيف بدأ كل شىء فلذلك قصة .. هل تسمعها ؟.. إذن تعال وأعد لنا كوبين من الشاى الثقيل كى يحلو الكلام ..

هذا أنا الصبى الذى دخل السنة الأولى الإعدادية ، ولا يهتم بالسياسة على الإطلاق .. فقط يعرف أن إسرائيل دولة شريرة تقتل أطفال المدارس (بحر البقر) وتذبح الفلسطينيين وأسقطت طائرة ماما سلوى حجازى مذيعة الأطفال التى كنت أعشقها ..

يوم السبت 6 أكتوبر هو ثاني يوم سبت لي منذ بداية العام الدراسي .. رمضان بدأ منذ عشرة أيام ، وفي ذلك الوقت كان أكتوبر يعني جوًا معتدلاً لهذا لم يكن الصيام صعبًا علي .. أعود لداري بعد الواجبات الضرورية من ركل عصام وخطف حقيبة مصطفى ولكم عادل ..

هناك شيء غريب .. كل الناس يلتفون حول أجهزة الراديو . الكل قلق .. ماذا حدث ؟.. لم أر هذا المشهد إلا وأنا في الصف الثالث الابتدائي يوم وفاة (جمال عبد الناصر) .. لكن لا أحد يبكي ..

في البيت تخبرني أمي أن الحرب نشبت . جيشنا عبر قناة السويس . أختي طالبة الطب عادت للبيت بسرعة وأخبرتهم أنها ستكون في المستشفى لساعة متأخرة لأن المستشفيات كلها معدة لاستقبال الجرحى .. الراديو لا يهمد لحظة : بيان رقم اثنين من القيادة العليا للقوات المسلحة ... بيان رقم ثلاثة ....

تحول أمي المؤشر إلى إذاعة لندن التي كانوا يشوشون عليها بصفارة كئيبة عالية ، فلا نفهم شيئًا . تحول المؤشر إلى إسرائيل فنسمع مذيعًا أخنف يقول في حسرة مصطنعة إن السادات ارتكب خطأ عمره باستفزاز أقوى جيش في المنطقة .. مسكين أنت أيها الجيش المصري .. مسكين أنت أيها الشعب المصري .. تتقلص أمعائي رعبًا .. أبي يشخط في أمي ويطالبها بتغيير المحطة .

عرفت بعد هذا أن إسرائيل كلها كانت في ألعن لحظاتها ، ولم يصدق قادتها ما يحدث لهم .. موشي ديان بكى أمام الصحفيين العالميين ، وجولدا مائير طلبت تركيب الرءوس النووية على الصواريخ ، وهو سيناريو النهاية (ميكرع هاكول) لدى إسرائيل ..

عندما جاء المساء عرفت خبرًا سرني بطبيعة الحال هو أن المدرسة مغلقة لأجل غير مسمى (لقد عادت إجازة الصيف) ، وخبرًا ساءني هو أن فوازير (ثلاثي أضواء المسرح) وكل الطقوس التلفزيونية إياها قد تم وقفها .. من المستحيل أن يموت أبناؤنا هناك فوق الرمال ونحن نسمع الفوازير طبعًا .

في الليل أصحو في ساعة متأخرة لأسمع البناية كلها تترجرج .. رائحة البارود في هواء الليل ، ويخبرني أبي أنها بطاريات الدفاع الجوي في مطار محلة مرحوم تطلق القذائف على غارة ..

أمي تتساءل عن كل هؤلاء الذين يحاربون الآن في الرمال والظلام ولم يظفروا يا كبدي ـ بساعة راحة منذ ظهر السبت .. فجأة صارت أم هؤلاء جميعًا ..

في اليومين التاليين تتضح الأمور أكثر ، ونعرف أننا حققنا معجزة فعلاً ، وأن البيانات التي نسمعها تختلف كثيرًا عن بيانات 1967 (المضروبة) . الأخبار السارة تتوالى .. تقدُم .. تقدُم .. السوريون يجتاحون الجولان وقواتنا تسحق لواء مدرعًا بالكامل وتأسر قائده .. لم أنس الاسم بعد كل هذه السنوات : عساف ياجوري ، وهو شيء ضخم بدين يدخن بإفراط وله لُغد .

شارع البحر كله ينظر للسماء وقد خيل لنا كأن المعركة تدور فوق سنترال المدينة .. في الحقيقة كانت بعيدة جدًا .. هناك طائرات إسرائيلية تحلق ، بينما تطاردها طائراتنا .. تعلمنا شكل الميج والفانتوم من على هذه المسافة . طائرة إسرائيلية تهوى .. ثم تبتعد طائراتنا لنظهر خيط من الدخان من مكان ما .. إنه الاختراع السوفيتي الرهيب (سام 7) . نرى

الطائرة الإسرائيلية تعلو وتهبط بينما خيط الدخان يقتفى أثرها فى إصرار وعناد ، وفى النهاية يلتقى خيطا الدخان ليصيرا خيطًا واحدًا يهوى بعيدًا .. بعيدًا .. باى باى يا حاييم أو يا ليفى أو يا أموتاى .. فلتكن ميتتك أبطأ وأبشع من ميتة سلوى حجازى ..

فى هذه الفترة جعلت بطاريات الصواريخ المصرية سماءنا منطقة موت للطائرات الإسرائيلية ، وأصدر قائد الطيران الإسرائيلى أمرًا بالابتعاد أكثر من عشرة كيلومترات شرق القناة . وكانت الصحف تظهر مليئة بصور الأسرى الإسرائيليين الذين وصفهم أحمد رجب بـ (الذئاب الجربانة التى تحتاج لمحضر اشتباه وتحرى) ، كما أذكر صورة رهيبة بعض الشيء لجثة متفحمة لطيار إسرائيلى مقيد بالسلاسل .. قال الخبر إن الإسرائيليين يقيدون طياريهم فى الطائرات كى لا يبادروا بالقفز منها بمجرد رؤية الصاروخ سام 7 ..

قائد المدرعات الاسرائيلى أعتقد أنه موردخاى هود يجرى اتصالاً مدته ثوان مع قاعدته .. يلتقط سلاح إشارتنا المكالمة ، وهنا تنطلق طائرة قاذفة مصرية بسرعة البرق نحو مصدر المكالمة فى سيناء وتطلق صاروخًا ينسف الرجل وسيارته وتعود ..! .. جرى إيه يا جدعان ؟.. هل نحن نتكلم عن مصر أم بريطانيا العظمى ؟ و فى كتابه المهم عن الحرب يقول (عبد الستار طويلة) : « كانت هذه أول حرب تعرفها مصر يقول فيها الضابط لجنوده (اتبعونى) بدلاً من (تقدموا) ! »

نسمع اسم (عبد العاطى) صائد الدبابات الذى نسف 25 دبابة وحده .. عندما رأينا الدبابة عن كثب فى معرض الغنائم ، بدت لنا مخيفة رهيبة

أكثر بمراحل من الصور ، وقد تساءلنا عن نوعية الأعصاب ومدى الشجاعة التى يجب أن يمتلكها المرء كى يواجه هذا الديناصور وهو على قدميه .. هؤلاء لم يكونوا رجالاً .. كانوا أساطير حية ..

فى كل مكان كنا ثملين بما تحقق ، وندعو الله أن يحفظه لنا ..

صحيح أن الحماسة أعمتنا ولم ندرك أن مسار الحرب يتغير ، وأنه عندما وقف السادات ليحيى الجماهير فى أول خطاب له بعد نشوب الحرب ، وعندما التهبت أكفنا بالتصفيق وكانت الشوارع خالية تمامًا ، كانت الدبابات الإسرائيلية قد دخلت السويس ضمن عملية (الغزالة) التى خطط لها شارون ، ولم نعرف الكثير عن حصار الجيش الثالث . قد تصدق الإسرائيليين الذين يعتبرون أنهم أحالوا نصرنا هزيمة ، وقد تصدق كيسنجر الذى قال لجولدا مائير : أنت انتصرت عسكريًا وخسرت استراتيجيًا ، لأن أسطورة الجيش الذى لا يقهر انتهت للأبد ، وقد تصدق الخبير الاستراتيجى العالمى (أندريه بوفر) الذى زار المنطقة وقال إن الثغرة عملية تلفزيونية لا قيمة لها من أى نوع ..

فقط كانت الشعلة متوقدة ، وكنا نستطيع وقتها أن نحارب العالم كله . الحرب عمل كريه مقيت لكنه شر لابد منه كى يجدد دماء الأمم ويقوى عزيمتها ويوحدها ، وكما قال هيكل : لا يوجد طرف فى العالم أعلن أن السلام خيار استراتيجى ، لأنه عندما يستخزى طرف فإنه يدعو الطرف الآخر تلقائيًا لأن يستقوى .

هذا هو بعض ما أذكره عن تلك الحرب ، وقد تعمدت أن أحكى ذكرياتى كطفل فى الصف الأول الإعدادى ، لأننى قرأته الكثير جدًا عن

تلك الحرب بعد ذلك مما يبتعد بالمقال عن هدفه . يكفى أننى أعددت عنها سيناريو قصص مصورة دقيقا جدًّا يعتمد على عشرة كتب ، وقد أردت به ألا تُنسى هذه الحرب أو أن يتساءل ابنى كما فعل يومًا : هل كانت فعلاً حربًا عظيمة أم أن هذا ما يجب أن أحفظه وأكتبه فى ورقة الإجابة ؟ هذا السيناريو قدمته لعدة فنانين ، لكن مشاغل الحياة منعتهم من البدء ، وفى النهاية ضاع ..!

أتذكر هذه الحرب اليوم وأتساءل عما فعلناه لكل هؤلاء العظام ؟.. أين هم ؟.. أين ذهب الفتى و(صلاح) صديقه ؟.. ومن الذى جنى ما زرعوه ؟.. هل كانوا يموتون فوق الرمال كى يتاح للمليارديرات اليوم أن يصطافوا فى (شرم) لم تعد (شرم الشيخ) على فكرة وأن يذهب الشباب هناك للظفر بليلة مع سائحة إسرائيلية أو روسية ؟ . هل خطر لعبد العاطى وهو يصوب صاروخه (الساجر) نحو تلك الدبابة أنه سيدوخ بعد الحرب بحثًا عن شقة ؟.. وأنه سيموت فلا تهتز الدنيا ؟.. وأن الإسرائيليين سيتوغلون فى كل شىء حتى السد العالى نفسه ؟.. وأن العبارة ستغرق والدويقة ستنهار والمسرح سيحترق وكيلو اللحم سيتجاوز الأربعين جنيهًا ؟.. لحسن الحظ أنه لم يفكر وقتها فى ذلك كله .. فقط أحكم التصويب وضغط الزناد .

حكايات الأستاذ حسن

فى العام 1987 كنت أحمل هذا اللقب الفخم (مدير الوحدة الصحية) بقرية (... ..) القريبة من كفر الزيات ، وهو لقب كنت أشعر بأنه واسع فضفاض على فى هذه السن المبكرة . لم أدرك مدى أهميتى إلا حينما سمعت الموظفين يتكلمون فى غرفتهم الداخلية :

ـ « بيقولوا الراجل حيمشى فى أكتوبر .. حيروح الجامعة .. »

أصابنى الهلع لأن الرجل سيمشى ، ثم فطنت إلى أننى هذا الرجل بعينه !.. إذن أنا كبرت وصرت خطرًا كالآخرين !..

عرفت المزيد عن خطورتى عندما كنت أركب سيارة نصف نقل مع أحد موظفى الوحدة ، قاصدين الإدارة الصحية فى كفر الزيات لتسلم شحنة أدوية . بما أن القصة حقيقية فإننا سنجعل اسمه (حسن) .. قصير القامة أسمر لامع العينين ضيقهما . وقد قرر على الفور أن يرينى أهميته ويثبت لى أنه لا غنى عنه .. جاءت سيرة كاتب الوحدة فى الكلام ، فقال لى بلهجة من لا يريد أن يقول أكثر :

ـ « رجل طيب لكن والله أعلم .. والله أعلم .. شخصيته ضعيفة أمام زوجته .. »

ابتسمت باعتبار المعلومة بالغة الأهمية وجوهرية لعملى ، وعدنا نتكلم .. جاءت سيرة ممرضة فى الوحدة ، فقال فى لهجة من يكره فضح بنات الناس :

ـ « كنت سأتزوجها .. لكن لابد من تصديق العالمين بهذه الأمور .. أخلاقها سيئة .. إذن فيكن الأمر كذلك .. أخلاقها سيئة .. »

فيم يفيدنى أن أعرف هذا ؟.. وما دخلى بأخلاقها؟ .. هل سمع أننى أرغب فى الزواج منها ؟.. بعد قليل كان قد حكى لى أسرار كل واحد من زملائه بالوحدة ، ومنهم الديوث ومدمن المخدرات وضعيف الشخصية وخريج السجون والمختلس ، حتى كأنه سجن القناطر وليس وحدة صحية . تساءلت في سرى : الرجل يعرف أننى غير مهتم بهذه الأمور ، وأننى راحل أصلاً عما قريب .. الأمر لا يزيد إذن على كونها عادة يريد تدريبها فلا تذبل ، كما يجب عازف الكمان أن يعزف قليلاً قبل النوم .. يريد أن يكون الأذن السرية للمدير أى مدير ..

أبطأت السيارة عند كوم سباخ عال ، وفلاح عجوز متهالك ممزق الثياب مال على النافذة يسأل :

ـ « الجحف يا مصطفى ؟ »

أطلق السائق (مصطفى) سبة مليئة بالكبرياء .. نحن فى مهمة حكومية حساسة يا بهائم ، وأنتم تعتبرونها سيارة أجرة .. نسيت أن أقول إن الجحف هو (القحف) ، وهو محطة مهمة جدًا فى المشاوير الريفية .. كل مشوار ريفى فى أى مكان لابد من أن تتضمن محطاته (الجحف الجنطرة الجباسة ـ المشروع) .. هناك مشروع دائمًا .. ماذا ؟ لا تعرف معنى (القحف) أيضًا ؟.. حرام عليك .. القحف هو جذع شجرة غليظ نائم على الترعة بالعرض ويُستعمل كجسر مرتجل ..

يعاود الأستاذ (حسن) حكاياته .. هذه المرة يصمم أن يطلعنى على ثقافته الدينية ، بعد ما أظهر براعته فى الاغتياب وأكل لحم أخوته موتى :

ـ « الإيمان قدوة .. »

يعنى إيه ؟.. تركيب لغوى غريب جدًا .. مثلاً (المؤمن قدوة) مفهومة أكثر ، لكنه يردد وهو يهز رأسه فى خشوع :

ـ « الإيمان قدوة .. »

حتى شعرت أنه مغن شعبى من مطربى الموالد الذين سمعت ملايين من أغانيهم فى هذه السيارات .. ذلك الخلط الفريد بين القصص الدينى والخيال وأغانى أم كلثوم .. وبالفعل عرفت أننى محق عندما بدأ يحكى قصته .. كان يقول ....

لحظة حتى نسمع ما تقوله هذه المرأة البدينة التى تتحنى على النافذة :

ـ « المشروع يا مصطفى ؟ »

سبّها السائق .. مشروع إيه يا وليه يا مجنونة ؟.. العربية دى تبع الحكومة .. وانطلق بالسيارة بينما المرأة تسبنا جميعًا من بعيد ..

القصة كما حكاها لى الأخ حسن تدور حول طالب فى كلية آداب طنطا .. الطالب من قريتهم وهو يعرفه جيدًا . يسهر الطالب ليلة الامتحان يدرس على لمبة الجاز حتى الثانية بعد منتصف الليل ..

لا تسألنى عن سبب استعمال لمبة الجاز بينما القرية فيها كهرباء .. القصة دائمًا هكذا .. من دون لمبة جاز لا كفاح .. لسبب ما كان الطالب وحيدًا فى داره عندما دق الباب ..

فتح الباب ليجد ست الحسن والجمال .. فتاة رائعة البهاء مذعورة باكية . قالت له إنها ضلت طريقها وما من مكان تبيت فيه إلا عنده .. هكذا قال لها الفتى : تعالى يا بنت الناس نامى هنا والصباح رباح ..

نامت الفتاة ولسبب ما ـ أيضًا ـ لا يوجد مكان تنام فيه سوى أمام الفتى . هكذا قضى الليل يغالب شهوته .. كلما أوشك الشيطان أن يهزمه مد يده ليلسع أنامله باللمبة الملتهبة .. من ثمَّ يتذكر عذاب النار .. وجاء الصباح ..

عادت الفتاة إلى طنطا لتخبر أباها بالقصة كلها .. يبدو أن الخبيثة لم تكن نائمة إنما تتظاهر بذلك وتلعب بأعصاب الفتى . هرع أبوها إلى القرية يبحث عن هذا الفتى الشهم .. سأله عن الفتاة التى باتت عنده أمس فحكى له كل شىء .. تفحص الأب أنامل الفتى فوجد آثار الحروق واضحة جلية ..

تصور .. يتضح أن أبا الفتاة هو نفسه عميد كلية الآداب !.. الكلية التى يدرس الطالب فيها !.. وهكذا عمل على أن ينجح الفتى ويصير معيدًا بالكلية ، ثم زوجه ابنته لأنه عرف كم هو رائع ..

وهتف حسن والدمع يبلل عينيه :

ـ « قلت لك يا دكتور إن الإيمان قدوة ! »

وسمعت مصمصة شفاه فنظرت لأجد أن السائق موشك على البكاء تأثرًا بدوره .. لم يطل تأثره لأنه أخرج رأسه من النافذة ليسب طفلاً عارى النصف السفلى يلعب أمام السيارة .. ياد يا ابن الـ .. يا ابن الـ ...

هنا قال حسن وهو يتمخط خارج النافذة :

ـ « الإيمان قدوة .. »

نعم .. فقط أريد أن أعرف الإجابة عن بعض الأسئلة . كنت أعرف عميد كلية الآداب ، فماذا تفعل ابنته بالضبط فى قرية جوار كفر الزيات

بعد منتصف الليل ؟.. وكيف وجد عميد كلية الآداب سيارة تنقله إلى الجحف ؟.. كما ترى القصة كلها تدور فى فلك الحكايات الشعبية من طراز (تزوج بنت السلطان وعاشا فى تبات ونبات) . ثم إن كان الإيمان قدوة فعلاً فلماذا لا يعلمه الإيمان أن النميمة حرام وأن الاغتياب نوع من أكل لحم الموتى ؟.. ألا توجد لمبة جاز أخرى تلسعه كلما أوشك على اتهام واحد من زملائه فى الوحدة ؟

رفعت رأسى فرأيت لافتة (الإدارة الصحية بكفر الزيات) ، ففتحت الباب .. فى المرة القادمة ذكرونى ألا أصطحب معى (حسن) فجهازى العصبى لم يعد يتحمل أكثر .

شاب لطيف جدًا

د. أحمد خالد توفيق

في فترة مبكرة من حياتي قرأت الكثير جدًا من الأدب البريطاني ، وهكذا كونت عن البريطانيين فكرة رومانسية مليئة بالرقي والتحضر ، وهي فكرة يستطيع أي واحد عاش ما قبل الجلاء أن يدحضها بلا عناء . لكن لو كنت تعتقد أنني عاصرت الاستعمار الإنجليزي لمصر أو حرب 1956 فأنت مخطئ على الأرجح . لم أكن قد قابلت بريطانيًا في حياتي في ذلك الوقت مما ساعد هذه الفكرة على أن تزدهر وتنمو .. حتى تلقيت صدمتي الحضارية الأولى ..

دخلت السينما ليلة الخميس مع مجموعة من أصدقائي حديثي التخرج لمشاهدة فيلم (إنديانا جونز والمعبد الملعون) . كان هذا قبل عصر سينما المول والملتيبلكس ، لذا كانت السينما تجربة فريدة من نوعها .. هناك فئران تجري على الأرض وتثب فوق قدمك ، والتدخين مسموح به بكثافة ، مع باعة ساندوتشات ومثلجات يمرون أمامك كل خمس دقائق ، وهناك أشياء تتواثب داخل ثيابك لكنها أكبر من أن تكون براغيث وأصغر من أن تكون ضفادع .. هل الصراصير تثب ؟..

على كل حال يستمر العرض إلى أن يقرر أحد زبائن الصالة أن وقت الحرب الطبقية قد بدأ ، فيشتم زبائن الترسو (الدرجة الثالثة) بصيحة مشهورة عالية ، من ثُمَّ يبدأ الجحيم لأن كل الترسو ينطلق في الشتائم في وقت واحد . الأسوأ أن يقذف أحدهم بعقب سيجارة مشتعلة على الترسو وهكذا تنطلق المدفعية من مائتي عقب سيجارة مشتعلة يقذف في وجهك

من الترسو . يستمر الجحيم إلى أن يظهر أحد فتوات السينما ملوحًا بعصاه ويقف بين الصالة والترسو متوعدًا بتحطيم دماغ أول من يخرق وقف إطلاق النار .

في هذا الجو الصاخب ـ الممتع برغم كل شيء ـ جلسنا نشاهد الأخ (إنديانا جونز) يبحث عن جوهرة ما في معبد هندي ، هنا فوجئنا بذلك الشاب الأجنبي يتقدم في الظلام منا ليقول لنا بلهجة بريطانية لا شك فيها :

ـ « هل لي في سيجارة ؟ »

يا سلام ؟.. هكذا قدمنا له سيجارة وأشعلناها له ، ثم دعوناه إلى الجلوس جوارنا ليسحب كما يريد . جلس جواري فسألته من أين هو .. قال :

ـ « بريطاني .. من (شيفلد) .. »

وماذا جاء بهذا الأخ البريطاني من (شيفلد) إلى هذا الوكر ؟.. وماذا يفعله في طنطا بالضبط ؟

قال لي إنه يدرس اللغة العربية في كلية الآداب هنا .. (فوسها) .. هكذا قال قاصدًا اللغة الفصحى طبعًا .. كان مدمنًا لسلسلة أفلام (انديانا جونز) وهذه فرصته الأخيرة لرؤية الفيلم المذكور . ملت على صديقي أنقل له ما قيل وأضفت :

ـ « هذه تجربة مفيدة جدًا .. إنه إنسان راق وصداقته كنز .. »

ـ « ش ش ش ش ! »

كانت هذه من الأخ البريطاني من (شيفيلد) ، فاستدرت نحوه لأجد أنه ينظر لي وعيناه تطقان شررًا في ظلام السينما .. وضع إصبعه على شفته كي أخرس ، وقال في قسوة :

ـ « تذكر إننى لا أقرأ الترجمة مثلكم .. »

شعرت بالخجل من نفسى .. فعلاً هؤلاء القوم متحضرون ولا يقبلون سخافات نراها عادية مثل الكلام أثناء الأفلام .. ثم قال فى ألاطة وقرف وهو يلقى عقب السيجارة على الأرض :

ـ « سيجارة ؟ »

لماذا يتكلم الآن إذن ؟.. ناولته واحدة أخرى من علبتى .. ورحنا نتابع الأحداث على الشاشة . أحيانًا أسأله عن هذه اللقطة أو هذا التعبير العامى فلا أظفر منه إلا بـ (ش ش ش ش !) ..

كان يدخن كمحرقة الجثث الهندية بعد الطوفان ، وسرعان ما نفدت سجائرى فكرمشت العلبة وطلبت من صديق آخر أن يناولنا بعض المدد .. ليس لى ولكن لهذه المدخنة البريطانية بجوارى ..

مر بائع المثلجات ، وهو يطلق صيحته المميزة (ببس س س س س !) ، فمال البريطانى على يطلب أن أبتاع له زجاجة مياه غازية لأن ما معه من مال يكفى فقط للعودة لداره . هكذا فعلت وقلت لنفسى إن هذا البريطانى يجب أن يعود لبلاده ليتكلم عن كرم حفيد الفراعنة مع حفيد بناة الإمبراطورية . عرضت عليه أن أبتاع له ساندوتش طعمية كذلك ليحبس به ، لكنه قال باسمًا :

ـ « نو نو .. قذر جدًا ! »

ثم أردفها بـ (ش ش ش !) .. وعاد يشاهد الفيلم . بعد قليل بدأت وصلة السباب المعتادة بين الصالة والترسو (يا بتوع ترسو يا ولاد الـ ...) .. هنا هز رأسه وأغمض عينيه وقال فى أسى :

ـ « المصريون !.. لن يتغيروا أبدًا ! »

قلت لنفسى إن تصرف هؤلاء وقح على كل حال فمن حقه أن ينتقده ، لكن ـ بينى وبينك ـ صعد الدم إلى رأسى .. ليس من حقه أن ينتقدنا فى بيتنا ، والمثل العامى يقول : « أدعى على ابنى وأكره اللى يقول آمين » . لكنى قلت لنفسى من جديد إن هذا الفتى قادم من حضارة أخرى وعالم آخر .. عالم أنجب موم وديكنز وجيمس جويس وبرنارد شو وويلز وبرام ستوكر وأوسكار وايلد فلابد أن صداقته مفيدة ، وعلى أن أتحمل أكثر ..

بعد قليل قال صديقى المصرى فى الظلام :

ـ « انتهت سجائرى !.. هل أنت متأكد من أن هذا البريطانى يسحب الدخان ؟.. لعله ينفخ فى السيجارة لتنتهى بسرعة ؟ »

ـ « ش ش ش ش ! »

قالها صديقى البريطانى من جهة المقعد الأخرى ، ومن جديد عاد يكرر :

ـ « المصريون !! »

خرب الأخ (إنديانا) بيت كل أعدائه وألقى بهم للتماسيح ، وبدا أن عقدة الفيلم موشكة على الحل خلال دقائق . هنا نهض البريطانى الذى لم أعرف اسمه وقال بسرعة ودون أن ينظر لنا :

ـ « تشيرز (تحية) .. »

وسرعان ما كان قد غاب فى الظلام للأبد !..

تبادلت النظرات مع أصدقائى على الضوء المنعكس من الشاشة .. تجربة حضارية مثمرة فعلاً .. هذا الأخ البريطانى من شيفلد قد أخرسنا طيلة الفيلم ونسف سجائرنا نسفًا ، وجعلنا ننفق عليه طيلة العرض ،

وسخر من المصريين أمامنا ، وفى النهاية هو رجل عملى جدًّا .. لا مجال للصداقة هنا ، ونحن مخطئون لـو حسبنا أنه سينتظرنا بعد عرض الفيلم ليمشى معنا ويحكى عن بريطانيا . لقد استخدمنا بالقدر الذى أراده بالضبط ولم نكن نمثل له سوى مصدر متجدد للسجائر ..

قال صديقى الذى زار الدول الأوروبية مرارًا :

ـ « لا تعجب .. هم بهذا التفكير العملى حكموا العالم وامتصوا دمه .. بينما نحن لا نكف عن الانبهار بهم وملاحقتهم مدفوعين بعقدة الخواجة أو النوايا الحسنة .. والمشكلة أننا لا نتعلم الدرس أبدًا .. »

فى هذه اللحظة هوت سيجارة مشتعلة قادمة من الترسو على ذراعى ، فألقيتها أرضًا وأطفأتها بحذائى ..برغم هذا أشعر بأننى أحب الترسو ومن فيه فعلاً .. إنهم قومى .. إنهم المصريون حتى وإن لم يروقوا لهذا الأخ البريطانى من شيفلد الذى لا أعرف اسمه حتى اليوم .

برعم الوردة

يموت رجل الأعمال الملياردير وآخر كلمة يلفظها هى : (روزباد) أى برعم الوردة .. . ترسل الصحف الأمريكية مندوبيها فى تحقيق مرهق طويل لمعرفة كنه هذا الـ (روزباد) .. يتحركون فى كل اتجاه .. ما الذى مات الملياردير وهو يتمناه ؟.. هو الذى أنشأ جنة صناعية كاملة اسمها (زانادو) فيها كل ما يشتهى .. فى نهاية الفيلم نكتشف أن (روزباد) هى الزحافة التى كان يلعب بها فى طفولته والتى اضطرت أمه لبيعها .. هكذا كبر الملياردير وامتلك أمريكا ذاتها لكنه ظل يتحرق شوقًا فى عقله الباطن للعب بتلك الزحافة الصغيرة !.. هذه هى القصة المؤثرة لفيلم (المواطن كين) تحفة (أورسون ويلز) ، والذى يحكى قصة حياة ملك الصحافة الأمريكى (راندولف هيرست) ..

عندنا فى العامية المصرية نقول : « اللى ما شبعش على طبلية أبوه عمره ما يشبع .. » وهو يفسر حالة الجوع النهم لدى كل هؤلاء المليارديرات الذين يملئون المجتمع المصرى اليوم ولا يشبعون من النهب أبدًا .. السبب ببساطة أنهم لم يشبعوا فى طفولتهم ..

ينطبق الكلام على المال ..

ينطبق على الحنان ..

ينطبق على الحب ..



★ ★ ★

كان يحبها بحق .. تلك الرائحة الوليدة للعواطف القادمة لتوها من المصنع بعد فك السيلوفان .. هذه أول مرة تستعمل فيها قلبك .. هل يعمل جيدًا ؟.. تذكر أننا ما زلنا فى فترة الضمان .. رائحة المطر فى الهواء والسكاشن التى تنتهى قبل الغروب .. والشعور الأليم بأنها ستنفد ..

السمراء المرهفة الرقيقة ذات عينى الغزال .. كان يملك تلك القدرة السحرية على رؤية الجمال فى صديقة البطلة .. الحمقى ينظرون بإعجاب للبطلة ، ويفوتهم أن يروا ويفهموا الكنوز التى لدى صديقتها الخجول الصموت .. عندما تقترب أنت وتنحنى أمام العرافة المقدسة وتخبرها كم هى رائعة . كم هى أسطورية .. عندها تستحق وحدك أنهار اللبن والعسل التى ادخرتها لأول من يلاحظ ذلك .. أول من يدرك أنها أروع من صديقتها المفتعلة الملطخة بالأصباغ .

ويقول رفاقى : لن تفلح

ويقول رفاقى : هل تنجح ؟

أن ترقى درجات المذبح

وتبث الكاهنة العظمى

ترنيمة شجوى لا تبرح ؟

كان يحبها فى صمت ثلاثة أعوام ، وفى حفل أسرة الكلية بمناسبة نهاية العام طلبوا منه أن يلقى قصيدة .. مال على الفتى الذى يعزف الأرغن الكهربى وطلب منه أن يتابع القصيدة بلحن (أرانجويه) .. سأله فى غيظ :

إنت عاوز تقول قصيدة والا تغنى ؟..

لن يفهم ..

وقف وبصوت مرتجف وعلى خلفية اللحن الرهيب ، خرج الصوت متسربًا لأوتار قلوب الجالسين .. لو كان صوتًا واثقًا أو أكثر ثباتًا قليلاً لما أحدث هذا التأثير .. كان صادقًا وقد تلقى الجميع الإشارة بذلك .. كانت روحه هى التى تتكلم ..

ومهما كنت أو صرت .. أحبك مثلما أنت

فلا تتغيرى أبدًا .. وكونى دائمًا أنت

....

بعيدًا أنت تنسابين والأنظار تفترسك

وداعًا طفلتى السمراء حقًا سوف افتقدك ..

بعد الحفل تدنو منه لتقول له فى لطف : كنت رائعًا .. يتراجع للخلف ويضرب الجدار بظهره شاعرًا بأنه يذوب فى الأبدية .. وفى سره يهمس :

جاءت لتهمس : قد أجدت ..

فيا ملاكى رفرفى !

لو أنها كانت تعى ..

أنى احترقت كما الذبابة فى لهيب تلهفى !

يقول لها وهو يوشك على الإغماء :

ـ « القصيدة دى كانت لك ! »

تقول وهى تنظر فى عينيه :

ـ « ما انا عارفة ! »

ألهذا يطلق الفرنسيون على الحب اسم (الميتة الصغرى) ؟.. أنت تموت فعلاً ..

تبدأ أيام الحلم ..

أطفـال تغمرنا النشوة

نتبـادل ألفاظًا خجلى ..

ألتـذ بـراءة ضحكتها

أجتـر عبير سذاجتها

وتجاهـد كى تبـدو أنثى

وأكافح كى أبدو رجلا !

....

إنى أهـواها .. تهـوانى ..

يكفيهـا هذا .. يكفينى ..

ككل قصة حب أخرى لابـد أن تفنى .. تفنى بالفراق أو الزواج .. المهم أنها تفنى .. كان هو الذى أدرك أن الحب جميل لكن تبعاته مستحيلة قاسية .. حسابه فى المصرف بضعة جنيهات .. إنه طالب لم ينه دراسته بعد .. والده مدير شركة كبرى لكنه مدير شركة لم يختلس قط ، لذا كان حسابه فى المصرف أسوأ من حساب صاحبنا .. لماذا أطلب منك الانتظار من أجل حلم قد لا يكون أبدًا ؟.. صديقاتك يظفرن بالزيجات الثرية .. صديقاتك ينلن كل شيء .. فرسان الأحلام يحلقون فى السماء من حولكن .. أنتن كبيرات ناضجات أما نحن فبعض أطفال نتلقى المصروف من آبائنا ، ونتشاجر على لفافة تبغ وجدناها فى درج أحدنا .. طيرى مع صديقاتك .. طيرى .. أتركينى هنا فى الوحل .. ولا تعودى أبدًا ..

تبكى .. تدفن عينيها الجميلتين فى منديلها فيصرخ فيها : طيرى !! .. طيرى !

اليوم يعرف كم كان حكيمًا فى قراره هذا عندما لم يستطع أن يتزوج إلا بعد سن الثلاثين ..

من دونك لن أزعم أبدًا أنى أتنفس من دونك ..

من دونك أهذى .. أتثاءب .. أكتب أوراقًا .. أتعثر ..

ولبضـع ثـوان أتمـادى ..

ولبضـع قـرون أتقهقـر ..

أحيـانًا أضـحك .. أتنـاسى

أهمـس ألفـاظًا وسـنانة ..

وأخط عبارات الشكوى من فوق جدار الزنزانة ..

يمر أمام بيتها فى شارع النحاس كما فعل ألف مرة من قبل .. هذه المرة يرى بوضوح باقة الأزهار فى شرفتها بالطابق الخامس .. رسالة صامتة بليغة :

وكانت باقة الازهار تنظر لي من الشرفة ..

لقـد كانـت تواسـينى ..

تفتش فى قفار العطف عن لفظ يعزينى ..

ورغم ضراوة الأشواك قد أحسست بالألفة ..

لقد كانت تصارحنى بما قد كان فى أمسى

ولم تجهـل حكايا الوهم .. والآهات واللهفة ..

★ ★ ★

لماذا يتذكر هذا الآن ؟.. منذ ذلك الحين كف عن كتابة الشعر .. اكتسب هذا الاكتئاب الساخر مع تلك اللمسة المتعبة التى يعرفها كل من قابله .. إنه يتذكر .. كان هناك حب حقيقى حريف فى حياته وقد اكتملت عناصره ، لكنه ضاع للأبد .. . ربما يشعر بدنو النهاية .. ربما يهمس وهو يرى عباءة الموت تظلل عينيه : برعم الوردة .. روزباد .. عندها لا تتساءلوا كثيرًا يا سادة ..

مهما حقق صاحبنا من نجاح أو انتصار .. مهما شاب شعره ... مهما اكتسب من حكمة .. فهو لم يتذوق الوجبة الوحيدة التى اشتهاها حقًا ..

دماغى كده

فى العلم الزائف

عن طب الأعشاب الذى خرب بيتنا

أطالب بتسجيل مرض جديد اكتشفه العبد لله وأطلق عليه اسم (فيلوفوبيا) ، ومعناه كما هو واضح (النفور من العلم) أو (كراهية العلم) .. هذا الداء متوطن فى العالم العربى بالذات؛ إذ يبدو أن العقل العربى بينه وبين المنطق العلمى علاقة من الكراهية المتبادلة . وأوضح نموذج لذلك هو ذلك الفتى الذى يقف جوار كل مسجد تقريبًا ، وقد نشر على الأرض ملاءة عليها عدة أكياس تحوى أشياء لا تعرف هل هى عيون مقلوعة أم صراصير مجذومة ، وقد كتب بخط واضح ببطاقة تحت كل كيس (للبواسير) .. (لارتفاع الضغط) .. (للعجز الجنسى) .. أما لماذا يقف جوار المسجد فإجابته سهلة .. ليوحى بأن نشاطه ذو طابع دينى ، وأن من يعترض عليه علمانى عدم المؤاخذة . أما كيف يعالج كل هذه الأمراض فهى دعوى قديمة قدم شربة الحاج (بيومى) .. أتذكر مشهدًا كوميديًا فى فيلم لسمير غانم ، إذ دخل إلى حانة فطلب من الساقى كأس كونياك .. صب له الساقى من برميل على المنضدة كأسًا .. طيب كاس نبيت .. فتح الساقى نفس الصنبور وصب له كأسًا .. هنا يدخل الحانة صبى يحمل (وابور جاز) ويقول للساقى : أمى بتقولك املا لنا الوابور ده .. هكذا يمد الساقى يده ليفتح الصنبور ويملأ الوابور أمام نظرات سمير غانم المذهولة !..

الغريب أن هذه الأشياء الغامضة الملفوفة فى أكياس تباع كالكعك الساخن .. لا أحد يعرف ما هى ولا اسم المادة الفعالة فيها .. لكنها تباع ..

ليست الأعشاب لعبة .. هناك فى كل مرجع صيدلة باب اسمه (السموم النباتية) .. فطر (أمانيتا فلويدس) يسبب فشلاً حادًّا للكبد ..

أى أن المريض يموت بغيبوبة كبدية خلال ساعات أو أيام .. كنا نقرأ عن مرض انسداد أوردة الكبد veno-occlusive disease ونحسبه بعيدًا عنا ، ثم تبين أن (الجعضيض) و(الرجلة) تؤدى هذا الدور بنجاح تام .. أليست هذه نباتات وبالتالى طبيعية ومفيدة ؟.. سيقولون لك إن كل دواء جاء من أصل نباتى .. خذ عندك الأتروبين والديجيتالا والأسبيرين و ... نعم .. لكنها أدوية جربت وعرف تركيبها ولم تخرج إلى التسويق إلا بعد حرب علمية بالمعنى الدقيق للكلمة.

ذكرت شبكة BBC التالى عن انتشار العلاج بالأعشاب الصينية فى بريطانيا : « تتمحور المشاكل حول عقاقير وأدوية تتضمن مادة أريستولوتشيا ، وهى مادة عشبية سمية تؤثر بدرجة رئيسية على الكلى ، كما يشتبه فى كونها مادة مسببة للسرطان أيضا ، كما كشفت الوكالة البريطانية وجود مواد سمية ثقيلة مثل الزئبق والزرنيخ فى عدد من الوصفات العشبية ، ويعترف رئيس الجمعية الأوروبية لممارسى طب الأعشاب مايكل ماكنتاير بأن هذا القطاع لا يخضع إلى أى رقابة أو تنظيم ، حتى وإن كان ذاتيًا ، ويقول إن بإمكان أى شخص الادعاء بأنه يفقه فى طب الأعشاب . ويعرف عن العلاج بالأعشاب إنه لا يخضع لنفس الرقابة والاختبارات الصارمة التى تخضع لها المنتجات الصيدلانية الخارجة من المختبرات العلمية .. »

والقصة دائمًا هكذا : رجل ذكى ليس طبيبًا بالضرورة يتبنى طب الأعشاب .. يفتتح لنفسه مركزًا ويتخذ سمت الرجل الورع الذى جاء (ليوقف كل واحد عند حده) .. له صلات خليجية قوية وله علاقات بأكثر من شركة أدوية عملاقة .. وهو عالى الصوت ضخم الجثة مستعد فى أية لحظة ليخرس معارضيه ويتهمهم بالكفر لو لزم الأمر .. وفى النهاية

لا يجرؤ المريض على الاعتراف بأن طب الأعشاب خذله .. يا فندم أكيد إحنا إللى ما بنعرفش نعيا ..

تأمل ما يقوله أحد هؤلاء المعالجين عن نفسه على شبكة الإنترنت : « السكرى : يعالج بتركيبة مكونة من 30 نوعًا من الأعشاب ومدة العلاج 11 يومًا . الضغط : تركيبة مكونة من 3 أنواع من الأعشاب ومدة العلاج أسبوع واحد . الصداع النصفى : نوع واحد من الأعشاب ومدة العلاج أسبوع واحد . الشلل النصفى : بفضل الله تعالى أستطيع أن أعالجه خلال ساعتين فقط بعمل نخبة من أعشاب توضع على المكان المشلول . كذلك الإيدز خلال مدة 6 أشهر ، وعلاج حامل المرض فى حوالى 4 أشهر . أما السرطان المرض الخبيث فهناك عشب ينمو اسمه الخبيث ، إذ فالخبيث للخبيث ، لمدة 91 يوم لسرطان الدم ، 21 يوم لسرطان الرئة والمثانة ، و10 أشهر لسرطان العظام ... »

شوف الدقة يا أخى !.. واحد وتسعون يومًا لسرطان الدم .. ليست تسعين يومًا لأننا لا نلعب هنا .. الإيدز يعالج خلال ستة أشهر .. الشلل النصفى خلال ساعتين .. إذن لا تخف يا أخى عندما تصاب بالفالج من الغيظ وأنت تقرأ هذا الكلام .. فعلاجك موجود ولا يستغرق إلا ساعتين ..

نحن لا نعرف كم من مليارات حققتها الشركات من الترويج لمنتجاتها التى تعيد تعبئة حبة البركة والثوم (ولماذا لا يستعملهما المرضى مباشرة دون تعبئة؟) كبديل عن الطب المجرب الموثق علميًا ، مع إضفاء هالة شبه دينية على الأمر تهدد باتهامك بالكفر لو اعترضت .. ربما كان الثوم رائعًا .. بالفعل هو كذلك .. ولكن الأمور ليست لعبة .. لابد من مرور الدواء بمراحل شاقة (أربعة أطوار) قبل أن يقال إنه فعال . لكن الوضع الحالى

هو أن كل من يسكن فى بيت ريفى لديه فى أرضه نبتة سحرية لا يعرف اسمها ولا خواصها .. لكنه مؤمن بأنها تشفى القلب أو السكرى أو السرطان لو قام بغليها وشرب النقيع مرتين يوميًا .

المهم أن تهرب من قبضة العلم الصارمة .. المهم ألا تجرب الدواء العلمى الدقيق الذى تم اختباره .. يظل يغلى ورق النبق ويشربه (أصله طبيعى مش كيماوى) ليعالج مرض السكرى ، برغم أن دواء السكرى معروف ورخيص الثمن نسبيًا .. يظل يفعل هذا إلى أن يموت ..

هذه النزعة الفيلوفوبيا تتبدى فى كل شىء .. هناك دواء اشتهر فى علاج التهاب الكبد (سى) .. انقسم الأطباء بصدده إلى فسطاطين على رأى الشيخ ابن لادن .. من يرى أنه كلام فارغ ومن يرى أنه رائع .. إذا أجريت تجاربك وبرهنت على أنه كلام فارغ وجدت من يلكزك ويغمز بعينه : إنه دواء رائع لكن شركات الأدوية العملاقة عابرة القارات يهمها أن يفشل كى تروج لعقار (الإنترفيرون) باهظ الثمن .. طيب يا جماعة مش جايز هو فشل لأنه عقار فاشل ؟.. عندها يضحكون ولسان حالهم يقول : رب اغفر له فإنه لا يعلم..

أما عن الأساليب البديلة لعلاج الفيروس سى فحدث بلا حرج .. رأيت تجربة علاج هذا الداء بالحمام .. الطريقة التى سببت ارتفاع أسعار الحمام فى مصر كلها .. ثم ترى التجربة فتجد أن الرجل يضغط على الحمامة ضغطًا مدروسًا الغرض منه إزهاق روحها وهى تتعذب .. يتم تشريح الحمامة فتجدها ممزقة الأحشاء مهشمة الأضلع كأن قطارًا مر فوقها .. لكنهم يؤكدون فى ثقة إن سبب موتها هو امتصاصها للفيروس ..

عيادات الأوزون وعيادات الأشعة فوق الحمراء وتحت البنفسجية كومت الملايين من الجنيهات .. دعك من أولئك الذين يضعون المرضى تحت هرم .. وتفتح فمك لتتكلم فيخرسونك بورقة علمية صربية أوكرواتية تؤكد أن الأوزون رائع .. ومن قال إن الصربيين ليسوا نصابين ؟

لكن هل فيروس سى له وجود أصلاً ؟.. قرأت ذات مرة للأستاذ أحمد رجب فى عموده الفهامة مقالاً ينقل فيه كلمات من وصفه بأنه (صاحب نظرية المناعة العربية) ـ الله تعالى أعلم بمعنى هذا ـ والذى يلقى قنبلته : « الفيروس سى لا وجود له .. بل هو خرافة أطلقتها الشركات الأمريكية لترويج لمنتجاتها ! » . يا سلام !.. بعد اكتشاف فيروس التهاب الكبد سى بنحو خمسة عشر عامًا ومعرفة كل شيء عن تركيبه الجزيئى ، وبعد ما عقد ألف مؤتمر بلا مبالغة تناقش كل شاردة وواردة عن الفيروس وابتكار لقاح له وأفضل طرق علاجه ، وبعد ما كرس علماء مصريون أجلاء بينهم أسماء ليست أقل من عبد الرحمن الزيادى وياسين عبد الغفار وحلمى أباظة حياتهم من أجله ، يلقى علينا الدكتور بقنبلته المدوية : لا يوجد فيروس سى بل هى مؤامرة أمريكية قذرة .. طيب نصدق الذين يؤمنون بأن الحمام والأعشاب تقتل الفيروس سى أم نصدق الذين يؤمنون أنه لا يوجد فيروس أصلاً ؟

المشكلة أن من يشكك اليوم فى الفيروس سى هو كمن يشكك فى وجود الأفيال !.. تخيل أن يأتى اليوم من يقول : الأفيال لا وجود لها يا جماعة بل هى خدعة قذرة ابتكرتها حدائق الحيوان !.. بالضبط نفس وزن الفضيحة والخبال والإصرار على الخطأ .. وهذا الطراز من المقولات لا يجد طريقه أبدًا إلى المجلات الطبية ، ولكن يجد طريقه إلى الصحافة غير المتخصصة

لأسباب واضحة ، وأنا ألقى باللوم كله على هذا الطراز مما يطلقون عليه (طب المصاطب) حيث لا تجريب ولا توثيق ولا دراسات إحصائية ولا شيء .. مجرد كلام يلقى على عواهنه من عقول أغشتها أبخرة نظريات المؤامرة ، والرغبة فى الشهرة بأى شكل.

تذكرت طبيبًا آخر أفردت له جريدة الشعب صفحة كاملة منذ أعوام ليلقى بقنبلته : لا يوجد مرض إيدز .. . أمريكا هى التى اخترعت هذا الوهم لتساعد على نشر الشذوذ الجنسى !.. وتأمل معى المنطق المختل برغم أننا نزعم أننا العرب سادة المنطق : أمريكا تريد ترويج الشذوذ الجنسى لهذا لفقت مرضًا وأعلنت أنه ينتقل بالشذوذ الجنسى !.. والكارثة أنه يشغل منصبًا مهمًا فى مكافحة الأمراض المعدية بوزارة الصحة !

قبل هذا بأعوام زعم أستاذ شهير أنه ذهب إلى كينشاسا شهرين فقط اكتشف خلالهما علاج الإيدز ثم عاد !.. فى تلك الفترة تبناه كتاب كثيرون .. بعد أعوام رأينا صورة هذا الطبيب فى الصحف العالمية الفرنسية ، ليس لتمجيده ولكن كنموذج لأدعياء الطب فى العالم الثالث ، وقد كتب إبراهيم سعدة مقالاً كاملاً عن هذه الفضيحة .. إنها الفيلوفوبيا يا سادة ..

فى بعض الوصفات الطبية الشائعة تجد طريقة فعالة لعلاج العقم عند الرجال عن طريق تجفيف ذكر الذئب ، وابتلاع مقدار حبة منه يوميًا !.. هل هذا طب ؟.. إنها من وصفات الأطباء السحرة البدائيين ، وعلاج الجزء بجزء مثله أسلوب معروف فى ممارسات السحر منذ القدم .. أى أن هذه الوصفة لا تمت للدين بل تمت لحقبة (السحر كدين) .. لكن هناك من لا يقبلون عن هذا الكلام بديلاً ..

لقد ظل الناس يؤمنون بما قاله أرسطو قرونًا عديدة : عـدد أسنان المرأة أقل من عدد أسنان الرجل . هكذا أصـدر فتـواه وهو جالس على مصطبته الإغريقية ، ولم يكلف خاطره بأن ينادى الولية من المطبخ ليعد أسنانها .. وظل الناس يتناقلون هذه المعلومة إلى أن جاء رجل وقح اسـمه فيسـاليوس وعد أسنان الرجل وأسنان المرأة وألقى قنبلته : العدد واحد فى الجنسين .. المذهل أننا ما زلنا نعيش جو أرسطو ونقاوم كى نظل فيه ..

والنتيجة واضحة الآن .. بوسع أى جندى أمريكى أن يجلس مسترخيًا أمام جهاز وفى يده علبة الكولا .. وربما يصغى لموسيقا الـروك كذلـك .. ضغط زرًا فـتزول مدينـة عربيـة عـن الخارطة بكـل مـن فيهـا مـن عباقرة يصرون على غلى أوراق النبق لعلاج السكر بدلاً من ابتـلاع قرصـين مـن (الجليبكلازيد) ..

إنهم مستمرون

إنهم مستمرون! .. أكتب هذه الكلمات فى غرفـة مغلقـة ، وبرغـم هذا يتسلل دخان قش الارز اللعين إلى كل ركن فلـو خرجت إلى الشرفة لأصابك الهلع . نعم يا سادة .. محافظة الغربية أيضًا تعانى من حـرق قـش الأرز لكن أحدًا لا يتكلم عنها ، فهى مجرد محطة استعداد وتدريب كـى يصير محافظها محافظ الجيزة لا أكثر .. عندها تبدأ مشاكله مـع تلـك المحافظة عالية الصوت . أحمد الله على أننى لسـت مصابًا بالربو وإلا لقضيـت نحبى منـذ أسبوع . أما مرضى الربو فلهم الله .. إن المستشفيات تعج بهم . فى أوائـل السبعينات ظهرت تقليعة فى طوكيو حيث معدلات التلوث الأعلى هـى زجاجة بها أكسجين نقى تشتريها من البائع لتشم الهواء بضع دقـائق . أى أنك تقف هناك مع أصدقائك وترش رشة أكسجين جريئة . يبـدو أن هـذه الظاهرة ستبدأ عندنـا وعندهـا تكـون مصر أول دولـة تبيـع الهـواء فـى زجاجات فعلاً ، ولسوف يصير شراء الهواء من البقال جزءًا مـن نشـاطك اليومى . فى عصر الاهتمـام بالبيئة وكل هذه المؤتمرات واللافتات فى كـل مكان تنذرنى بخراب بيتى لو أشعلت لفافة تبغ ، يتساءل المرء عما إذا كان دخان حرق الأرز هذا أكثر أمنًا وتحضرًا من السجائر فعلاً .

فى الكتب التى تتكلم عن علامات الساعة تجد علامة الضباب الأبيض الـذى يتسـلل للبيـوت فيعمـى العيـون ، ويختنق بـه الكفـار والعصـاة أمـا المؤمنون فلا يلاحظونه . سوف تزعـم الحكومـة إذن أنـه لا يوجـد ضبـاب ولا حاجة ، وأنها تشك فى إيماننا .. لا عجـب ، فهـؤلاء القـوم مسـتمرون للأبد ولن يعوقهم شىء ..

وسط هذا الجو الخانق الكئيب تشعر بأنه لا لزوم للماضى ولا جدوى من الغد ، وأن الموت هو الحل الوحيد أمامك ، لكنك تعرف أنهم لن يتركوك فى سلام .. سيفتحون القبر ويدفنون فوقك واحدًا من قيادات المجالس المحلية أو الحزب الوطنى .. لا غرابة فهم مستمرون.

مع كل هذه الكآبة والقرف ، تفتح البريد الالكترونى لتجد هذا الخبر العظيم الذى تم توزيعه على 58468 عنوانًا على الأقل : « طبيب سودانى بإنجلترا يكتشف علاجاً لمرض السكرى وداء الصرع ! العقار الجديد يقضى على السكرى نهائيًا خلال 2 ـ 6 أشهر فقط !! »

السكرى والصرع معًا ؟.. نهائيًا ؟.. مش واسعة شوية ؟.. كأن هذا كان ينقصك !.. ثم منذ متى يمكن علاج السكرى نهائيًا ؟.. أفضل الحلول الموجودة قائمة على تعويض الهرمون .. يعنى العلاج مدى الحياة .. تقرأ الخبر بعناية فتجد أن طبيبًا سودانيًا يدعى (طارق أرباب) بمستشفى همر سميث التابع لكلية الطب جامعة لندن ، نجح فى اختراع أول عقار فى العالم لعلاج مرض السكرى بصورة نهائية ، وحصل على براءة اختراع من كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية اللتين سجل بهما الاختراع تحت الرقم (4065834) . الحوار مع هذا الطبيب الظاهرة يقول إنه اكتشف أن إنزيم الأميليز يحول النشا إلى سكر ، وهذا يمكن إثباته عن طريق اليود !.. هذه التجربة يعرفها كل طالب ابتدائى على كل حال . استطاع أرباب تحويل الأميليز إلى عقار شاف (نهائيًا) للسكر . يقول إن مرضى السكرى يعانون من نقص فى المادة اللعابية التى تهضم السكر والنشا . لا أريد أن أبدو متعصبًا وغراب بين ، لكننى عدت إلى العلامات المؤكدة على العلم الزائف التى وضعها روبرت بارك أستاذ الفيزياء بجامعة ميريلاند صاحب كتاب (علم الفودوو : الطريق من الحماقة إلى الخديعة) وهو كتاب شهير جدًّا :

العلامة الأولى : المكتشف يقدم إدعاءاته لوسائل الإعلام مباشرة : العلم يعتمد على أن يقدم العالم أفكاره الجديدة لتدقيق العلماء الآخرين ؛ إذ يتوقع العلماء أن يقدم زملاؤهم الأفكار لهم أولاً . بالفعل تجد أن الأخ أرباب يقدم بحثه لمجلة سودانية شهيرة ، لكنك لا تجد شيئًا عن أبحاثه فى أية مجلة طبية . لقد زعم أن المجلة الطبية البريطانية BMJ قبلت بحثه لكن هذا لم يحدث كما سنرى حالاً.

العلامة الثانية : المكتشف يقول إن المؤسسات الكبرى تحاول حجب عمله : هذا الباحث يؤكد أنه سجل اختراعه فى الولايات المتحدة خشية من أن تسرقه الشركات الكبرى.

العلامة الثالثة : المكتشف أجرى أبحاثه وحده : صورة العالم العبقرى الذى يسهر الليل وحده فى قبو هى صورة تناسب أفلام هوليوود للخيال العلمى ، لكن لا يمكن أن تتحقق فى الواقع .

العلامة الرابعة : المكتشف مضطر لأن يصمم قوانين طبيعة جديدة يفسر بها الظاهرة : يلقى العالم ذنب انتشار السكرى على تغير المواد الغذائية ، وتخزين الغذاء لفترات طويلة فى الثلاجات ، واستخدام المواد الكيمائية فى الحفاظ على المواد الغذائية . ويقول إن الدقيق صعب الهضم ، و إذا لم يُهضم يترسب فى الأنسجة والشرايين الدقيقة والكبيرة داخل الجسم ، فيكون الشخص عرضة لأمراض القلب والفشل الكلوى وأمراض الدماغ بالاضافة الى السكرى . وهذا يمكن حله بإضافة بعض كربونات الصوديوم التى تحلل الدقيق فى الجسم لأجزاء صغيرة . ما هذا الكلام ؟.. يبدو مهمًا منطقيًا لكنه ليس كذلك ، ولن يرضى أى كيميائى حيوى عن هذا الكلام الفارغ ..

وبنفس المنطق الغريب يقول أرباب : البحوث المعملية الحديثة أثبتت أن هناك علاقة شبه قوية بين ضيق الشرايين الذى يصيب القلب ومرض الصرع الذى يحدث نتيجة ضيق فى شرايين الدماغ ، وليس نتيجة شحنات كهربائية فى الدماغ كما كان يعتقد فى السابق . ولذلك بعد الاكتشاف الجديد لحقيقة مرض الصرع ، ابتكرت عملية جراحية جديدة لمعالجة الصرع تعتمد على توسيع شرايين الدم داخل الدماغ ! . أى طبيب يعرف أن هذا كلام عجيب ..

هكذا وجدت أن هذا العالم حقق أربعًا من آيات العلم الزائف من سبع وضعها (بارك) . على أننى قررت أن أبحث عن اسمه أكثر فى الإنترنت ، فوجدت موقعًا سودانيًا محترمًا عقلانيًا يذكر هذه الحقائق :

1 ـ اتصلوا بمستشفى هامر سميث يسألون عن (أرباب) هذا فكان الرد أنه لا يوجد أحد بهذا الاسم عندهم !.. ثم تذكروا فى خطاب آخر أن هناك واحدًا لكنه يعمل بعقد شرفى وهو على الأرجح ممارس عام .

2 ـ رقم براءة الاختراع المذكورة هى لـ (أستيك ساعة) ! لا أعتقد أنها الطريقة المثلى لعلاج السكرى والصرع .

3 ـ المجلة الطبية البريطانية لم تنشر أى بحث لطبيب اسمه أرباب .

أنهيت قراءة هذه المعلومات ، وفتحت النافذة لأستنشق المزيد من السحابة السوداء التى لم تعد بهذا السوء .. هؤلاء القوم مستمرون .. مستمرون .. نفس الأكاذيب والادعاءات والتلفيق .. لا ألوم المجلة لحظة ؛ فمن أين يعرف غير المتخصص الحقيقة وسط هذا الكلام الكبير كله ؟.. وقد رأينا جريدة الشعب عندنا تقع فى ذات الخطأ ، ورأينا أخبار اليوم وغيرها ..

كنت أعتقد أن الإخوة السودانيين أفلتوا من معظم تلك الأمراض المصرية لكن اتضح أن هذا داء عربى أصيل كما يبدو . لقاءات صحفية وأمل زائف لمرضى الصرع والسكرى ومنطق مغلوط ، وهذا الرجل يعرف أنه يكذب .. ولو لم يكن يعرف أنه يكذب فهو مخبول تمامًا . المهم أننا نستحق ما يحدث لنا .. نستحق السحابة السوداء ونستحق حكوماتنا بالتأكيد ، فلا أمل فى الخلاص ما لم نتغير أولاً .



هؤلاء النصابون الكبار وابتكاراتهم العبقرية

- 1 -

أخيرًا شاهدت حلقات البرنامج الأمريكى (هراء) الذى أرسل لى صديقى الكويتى حلقات موسم كامل منه .. (هراء) أو (فضلات ثيران) هى الترجمة المهذبة لاسم البرنامج البذيء ، والذى يقدمه اثنان من المشعوذين الظرفاء سليطى اللسان هما (بن) و(ستيلر) اللذان قررا أن يكرسا حياتهما لمحاربة الخرافة والسخف والنصب .. نفس الدور الذى لعبه منذ مائة عام مشعوذ آخر هو (هوديني) على أساس إن (حبل على حبل مايبرمش) كما يقولون عندنا ..

الحلقة التى استلفتت نظرى تدور عن الطب البديل .. يمكننى اليوم أن استعمل الكلمة بحرية بعد ما فضل د. (محمد المخزنجى) استعمال لفظة (الطب المكمل) .. منذ البداية يقول مقدم الحلقة فى استمتاع : « نحن نبحث عن الهراء .. وما دمنا نتكلم عن الطب البديل فالمشكلة هى : من أين نبدأ ؟ »

ويأخذك البرنامج فى رحلة ممتعة بين هذا النصاب الذى يجوب الولايات المتحدة بشاحنة ، ويقوم بتدليك القدمين بجهاز يحدث ذبذبة معينة تدغدغ القدم ، ويتقاضى 55 دولارًا فى الساعة .. يطلقون على هذا النوع من العلاج اسم **reflexology** ويقضى بأن كل أعضاء الجسم لها جزء يمثلها فى القدم .. ثم يأخذك البرنامج إلى المعالجين بالمغناطيس .. هناك مغناطيس لكل عضو من أعضاء جسدك ، والفكرة هى تصحيح مغناطيسية جسمك المختلة .. يؤكد الدكتور المتحمس لهذه الطريقة

وكلهم يحملون لقب دكتور على فكرة أن رسم المخ الكهربى أظهر انخفاض معدلات التوتر لدى من عولجوا بهذه الطريقة .. هنا يذكرنا البرنامج بأن رسام المخ الكهربى لا دور له فى قياس التوتر .. ويعلق أحد أساتذة الأمراض العصبية أن أجسامنا لا تعمل بهذه الكيفية ولا دور للمغناطيس فيها .. هناك جو علمى مهيب حول الموضوع لكن الحقيقة هى أنه مجرد هراء ..

بعد هذا نرى الـ **Chiropractor** وهو نصاب آخر يعالج بفلسفة تقوم على أن كل الأمراض تنجم عن ارتخاء الفقرات . لهذا يمارس هذه العملية التى هى أقرب للتدليك العنيف جدًّا .. يعترف الرجل الذى يزعم أنه حاصل على الدكتوراه بأنه أجرى هذه العملية العنيفة على طفل عمره شهر واحد ليعالجه من الإكزيما..!

هكذا ينتقل البرنامج من هراء لآخر ، وفى النهاية يلتقى بعالم كتب عن هؤلاء النصابين كتابًا اسمه (الفودوو العلمى) . يقول هذا العالم إن الأمر كله يعتمد على الإيحاء ورغبة الشفاء لدى المريض .. ثم يصف كل هذا الذى يحدث بعبارة قاسية هى : "إنه مجرد استمناء فكرى ! » .

نترك هذا البرنامج الشائق ونثب إلى مصر التى تفشى فيها سرطان الطب البديل .. قد يطيب للنفس أن تتأسى بحقيقة أن هذا النصب يجرى فى أكثر دول العالم تقدمًا ، لكننا نقول إن هناك فارقين مهمين بيننا وبينهم .. الفارق الأول هو أن طريقتهم العلمية صارمة وثابتة .. يستعملون المقاييس التى وضعها كانط وديكارت وليسوا على استعداد للتخلى عنها .. لن تتكلم مجلة طبية محترمة عن العلاج بالمغناطيس ، ولو تكلمت لقامت بإجراء دراسة مقارنة مع مجموعة ضابطة تخضعها لعلم الإحصاء الذى

لا يكذب .. هكذا يظل الخط واضحًا بين ما هو علم وما هو علم زائف ، بينما عندنا يطرد العلم الزائف العلم الحقيقى ، ولم يعد من الغريب أن يطلب منك المريض ألا تكتب له علاج السكر لأن معالجه نصحه بعدم تعاطيه !.. هناك أطباء يبيعون الأعشاب فى عياداتهم أو خلائط غريبة من مساحيق ركبوها بأنفسهم .. عرفت طبيبًا ظل يعالج سرطان المستقيم بأن يسكب فوقه العسل الأبيض يوميًا ، وبعد ما مات المريض كان رأيه هو أن العسل (مش قطفة أولى) ..

الفارق الثانى هو أنهم لم يربطوا هذا النوع من الطب بالدين ، وبهذا لم يضعوا درعًا واقيًا حول إدعاءاتهم يصعب أن تخترقه ... عندما يبتكر طبيب مصرى نوعًا من قطرات العين مستخلصًا من العرق ، ويزعم أنه يعالج المياه البيضاء لأن قميص سيدنا يوسف أعاد البصر لأبيه ، فإنه قد ضمن رواج المنتج أولاً ، ووضع حول نفسه سياجًا منيعًا ثانيًا .. من يخترق هذا السياج ليتشكك ، يبدُ أمام الناس كأنه يعارض صحيح الدين ، برغم أن ما حدث من عودة بصر الكفيف معجزة إلهية ، وإنكار قدرة العرق على شفاء المياه البيضاء لا علاقة له بالدين .

برغم الطابع المحلى القوى للعلم البديل ، فإن رأيى الخاص هو أن ما حدث فى الأعوام الأخيرة نصر آخر للعولمة .. ربما تم هذا شعوريًا أو لا شعوريًا ، لكن هناك من الأذكياء من درس تجارب نصابى الغرب وعرف كيف يصنع قرشين منها .. هكذا بدأت ظواهر المعالجين الروحيين تتسرب لنا .. تسرب لنا الكثير من الطب البديل .. برامج مريم نور التى تمزج الشامانية بالمانوية باليوجا فى خليط واحد خلاب ... ظاهرة الداعية التلفزيونى الوسيم الأنيق .. أليست تكرارًا لظاهرة الواعظ النجم

البروتستانتى فى الغرب ؟ ، بينما تراجعت مكانة رجل الدين العالم الأزهرى الذى يعرف ما يتكلم عنه حقًا .. حتى الطريقة (الكارنيجية) فى الوصول للثروة والنجاح فى الحياة وجدت من يتلقفها عندنا ..

ثمة سمة عامة تجمع هؤلاء جميعًا .. من الصعب أن تكون مقنعًا ما لم تكن مقتنعًا .. لهذا هم يجمعون بين الاقتناع والإقناع ، فلا أعتقد أن أحدهم ينفرد بنفسه خلف الستار ليضحك قليلاً قبل أن يعود لمواجهة الجمهور .. بالنسبة لهم ما يقومون به جم الفائدة .. حقيقة تتأكد لدى كل منهم وهو يجتاز مدخل البنك ليصرف الشيك الخامس فى شهر واحد .. هل هناك شيء أكثر فائدة ؟

هم شرسون جدًا فى الدفاع عما يزعمون ، وهذا قد يصل درجة التوحش أحيانًا .. هذا طبيعى لأنك فى الواقع تحاربهم فى صنعتهم ورزقهم الذى جعلهم نجومًا وحقق لهم كل هذه الأرباح .. جرب أن تطلق الشائعات عن بائع الفول الذى يقف بعربته عند مدخل شارعكم ، وسوف يمزقك أو يدلق قدر الفول فوق رأسك .. وكما قال لى سائق سيارة تاكسى ذات مرة : آل يا واخد قوتى يا ناوى على موتى ..!

طيف هذه الألاعيب واسع ممتد يبدأ بعلاج الالتهاب سى بالحمام ، وينتهى بنشاطات راقية متحذلقة مثل البرمجة اللغوية العصبية .. إنها دائرة شيطانية أخرى تدور كالتالى : الناس تريد معلومات أكثر عن هذه الألعاب الجديدة .. الفضائيات تقدم للناس ما يريدون .. يولد المزيد من النجوم الذين يصير لهم أتباع أكثر .. هؤلاء الأتباع يطلبون المزيد من الألعاب الجديدة ..

-2-

تعليقًا على مقال الأسبوع الماضى ، وصلتنى بعض خطابات تدور حول ذات المنطق تقريبًا ، ومنها هذا الخطاب لصديق لن أذكر اسمه لأننى لم أطلب إذنه فى النشر : « منذ أيام مرض والدى ودخل المستشفى وأجرى قسطرة فى القلب ، وعرفت أن ثمن قسطرة القلب عشرين ألف جنيه وأشعة الرنين المغناطيسى تكلف 450 جنيه وهناك أدوية وحقن سعرها 100 جنيه أو أكثر ، والإقامة ليلة واحدة فى المستشفى تكلف أكثر من 200 جنيـه .. هل تعتقد أن من يجرون وراء الأوهام يجرون بخاطرهم ؟! إنهم لم يجدوا شيئًا أفضل وأرخص ليجربوه ، أنا مستعد أن أبلبع كـل أنـواع الأعشاب إذا مرضت ولم أجد لى علاجا أو كنت لا أملك ثمـن العلاج !!! ...... الناس معذورة فى الجرى وراء الطب البديل ، العلاج والدواء والأشعات والعمليات ثمنها غال جدا ، ولا يقدر عليها أكثر النـاس .... من لا يجد العلاج أو من لا يملك ثمن العـلاج مـن حقـه أن يجرب كـل شىء وأى شىء ما لم يكن حرامًا .. »

الحقيقة إننى لا أستطيع أن أرغم نفسى على قبول هـذا المنطق .. إذا كـان هناك أطباء جشعون بلا رحمة ، وإذا كانت هناك أمراض بلا علاج ، فليس الحل هو أن أجرى فـى الاتجاه المعاكس لأنفق القليل الـذى أملكـه عند أباطرة الطب الزائف الذين لا يملكون ما يقدمـون .. كـأن المال نوع مـن الطاقة يجب أن تخرج فى هذا الاتجـاه أو ذاك .. لا تعط الأطبـاء مالك .. أعطنى إياه وضع ثقتك بى ..

وبرغم هذا فإننى لا أرى شيئًا رخيصًا فى هـذا كلـه .. المصـابون بـداء السكرى ينفقون الكثير فعلاً على علاجات الأعشاب عديمة النفع ، برغـم

أن علاج السكر المحترم العلمى ليس باهظًا إلى هذا الحد .. إنهـم ينفقـون الكثير على العـلاج بالحمام والأوزون والأشعة تحت الحمراء .. لكنهم يدفعون هذه الأموال فى رضا تام ويمكـن أن يتشـاجروا معـك لـو فتحت فمك معترضًا .. هذا فى رأيـى يعود إلى سـلوك إنسـانى طبيعـى ، هـو أن الإنسان لا يقبل أن يعترف بأنه قابل للخداع أو إنه خُدع فعلاً ..

يتحدث أباطرة الطب البديل عن الإبر الصينية رابطين بينهـا وبـين ما يروجون له من هراء .. قل لهم إن الإبر الصينية درست دراسـة مدققـة منذ زيارة نيكسون للصين فى أوائل السبعينات ، وهناك رسـائل دكتـوراه عليهـا فـى كـل مكـان بالعـالم ، ولسـوف تجدهـا فـى مجـلات مـن وزن (لانسـت) و(بـى إم جـى) ، وهـى جـزء مهـم مـن مقرر علم وظـائف الأعضـاء لـدى أى طـالب طـب .. فقـط عندمـا يقـرر بعـض الأبـاطرة أن يزيدوا طيف التكسب ليجعلوها تشفى من سرطان الكبـد ومـن الالتهـاب سى ومن تلف صمامات القلب ، مع الهراء المعتاد الـذى لا يمكـن إثباتـه : « الإبر الصينية تزيد المناعة عن طريق تنشيط الخلايا المساعدة (ت) وتزيد إفراز مواد معينة منشطة للمقاومـة .. » إلخ .. هنـا فقـط تسـمع النغمـة المألوفة وتعرف أن العلم قد صمت ، بينما تكلم المال ..

المريض قد يئس من الطب التقليدى ويريد تجربة أى شىء بأى ثمـن .. جميل جدًا .. هذا بالضبط هو الصيد الذى خرج هؤلاء القوم للظفر بـه .. هذا هو مصدر رزقهم ، ومن ورائه سـيبنون العمـارات ويركـب أولادهـم البى إم دابليو ويقتنون شاليهات السـاحل الشـمالى .. سـوف يعيـش كـل منهم على الفضائيات ، وسوف ينشر كتابًا يبيـع مليـون نسـخة ، وسـوف يخصص خطًا هاتفيًا للرد علـى الاستفسـارات .. كـل هـذا بثمـن طبعًـا .. ليس هبة ولا تبرعًا ..

يعتمد هؤلاء كذلك على نقطة نفسية مهمة هى ارتفاع نغمة الشك فى الأطباء والتحفز ضدهم فى وسائل الإعلام .. لا يمر يوم من دون أن تقرأ عن الطبيب الفلانى الذى نسى الفوطة فى بطن المريض ، أو سرق كلية مريض ، أو أعطى المريض علاجًا خاطئًا .. هكذا يزداد اليقين لدى المريض أن الأطباء مجموعة من الجهلة الجشعين الذين يسرقون مالك وأعضاءك .. هم دائمًا غير موجودين فى المستشفيات فإذا تواجدوا ارتكبوا الأخطاء المهنية القاتلة .. إذن أين المفر ؟.. المفر الوحيد هو ذلك الأخ الذى يظهر على الفضائيات ويعالج السرطان بالأعشاب ..

مثلاً فى برنامج تلفزيونى جماهيرى منذ عدة أعوام ، ظهر الفنان سمير الاسكندرانى ليحكى قصته مع نوبة ارتفاع ضغط أصابته ، فذهب إلى المستشفى حيث أعطاه الطبيب نوعًا من الكبسولات تحت اللسان ، والنتيجة أنه شعر بصداع مروع مع زغللة عينين واحمرار فى الوجه .. حكى القصة بطريقة درامية مع الكاريزما الفائقة التى يتمتع بها باعتبارها حلقة أخرى من مسلسل إهمال الأطباء وجهلهم .. كل طبيب يعرف أن هذا أثر جانبى معتاد لعقار (نيفيدبن) الذى وضعوه تحت لسانه لإنقاذ الموقف ، وكانت هذه أفضل سياسة طبية (فى ذلك الزمن) .. الصداع وزغللة العينين لا معنى لهما سوى أن العقار بدأ يعمل .. لكن البرنامج قد أعد أصلاً لاتهام سمعة الأطباء والشك فيهم ، ولا يمكن أن يسمح لطبيب بأن يفسد هذه الوليمة ..

كل طبيب يعرف ذلك المريض الذى يقصده فى المستشفى المجانى طالبًا استشارته ، فيفحصه الطبيب ويقضى معه وقتًا طويلاً ثم يكتب له العلاج .. هنا يبرز المريض روشتة أخرى من جيبه ويسأل : « لقد سألت

زميلك الفلانى منذ قليل وكتب لى هـذا .. فما رأيك ؟ .. » هكذا هو يجرب الاستزادة من وقت الأطباء وجهدهم على سبيل (الاستخسار) ، ولأنه لا يثق فى كليهما ، وفى الوقت ذاته يحاول أن يجعل اللصين يختلفان لتظهر البضاعة المسروقة .. نفس المريض يذهب فى سعادة وحماس إلى عيادة طبيب يأخذ مائتى جنيه فى الكشف ، وينفذ كل ما يطلبه الطبيب عن طيب خاطر ، لأن ما هو مجانى لا قيمة له ..

هل المنشفة المنسية فى الجرح مسئولية الجراح ؟.. كلنا حضر العمليات الجراحية ورأى كيف تبتل هذه المنشفة بالدم فلا تختلف عن الأنسجة البشرية الدامية فى شىء .. هنا يأتى دور ممرضة العمليات المسئولة عن عد المناشف .. يقول الجراح للممرضة فى نهاية الجراحة وقبل أن يخيط الجرح : « عدى فوطك .. » فتعدها لتتيقن من أن العدد الذى معها هو العدد الذى بدأتْ به الجراحة .. هنا فقط يبدأ خياطة الجرح .. عندما تجد منشفة منسية بعد هذا فهل هى مسئولية الجراح الذى يتحمل مائة مسئولية أخرى ، أم هى مسئولية ممرضة العمليات ؟.. لماذا نتكلم عن مسلسل إهمال الأطباء ، ولا نتكلم عن داء الاستسهال والإهمال لدى الإنسان المصرى ؟

لا أعنى بهذا أن الأطباء مجموعة من الملائكة .. هم جزء من المجتمع يتلف بتلفه .. جرب أن تتعامل مع موظف فى مجلس المدينة أو الكهرباء أو السجل المدنى أو التعليم الثانوى ، ولتر إن كان يقظ الضمير يقوم بواجبه خير قيام أم لا ؟.. أنت تطالب الطبيب بأن يتقاضى مائتى جنيه فى الشهر ويهش لك ويبش ، ولا ينشغل بعيادته ، ويتابع أحدث الاكتشافات العلمية ، ويكون موجودًا متى أردته .. بأمارة إيه ؟.. بأمارة إن الطب مهنة إنسانية طبعًا .. وهل هذا يعنى أن الطبيب ليس إنسانًا ذا حاجات ؟..

برغم هذا هناك أمثلة إيجابية لا تنتهى .. كلنا يعرفها .. لكن هذه الأخبار غير مثيرة صحفيًا من منطلق أن خبر (عض الرجل الكلب) يبيع أفضل من (عض الكلب الرجل) ، وكما يقول (آثر كلارك) : « لابد إن جرائد المدينة الفاضلة مملة جدًا بالتأكيد .. » لكن مسلسل الشك هذا يؤدى بالضرورة إلى رواج الطب البديل وثراء أباطرته ، دعك من أن العلم بطبعه كئيب لا يعد إلا بما يستطيع تحقيقه .. لا توجد خوارق ولا معجزات فى العلم وهذا بالطبع لا يرضى المرضى ..

سوف تنتهى هذه الهوجة ويدرك الجميع أنهم كانوا مخدوعين لكنهم لن يعترفوا بهذا .. فى الوقت ذاته سيكون هؤلاء النصابون الكبار قد وجدوا طريقة أخرى للحصول على الرزق .. ربما النمل المطحون أو براز الفئران العرجاء .. فقط لنجلس أمام الفضائيات وننتظر النصاب القادم ..

-3-

يحكى صديقى أستاذ جراحة العظام عن قريبه المسن المشلول حبيس الفراش منذ أعوام ، وكيف أن ابن الرجل طلب رأى أحد أصدقائه من طلبة الشريعة بصدد عمل حجامة لأبيه ، فقال له : ربنا ييسر إن شاء الله ، وجاء فى اليوم التالى إلى البيت حاملاً موسى وطستا ، وفى الفراش جثم على صدر العجوز المشلول ليجرى عدة جروح قطعية سخية على جانبى رأسه ، بينما العجوز يعوى ويطلق ما استطاع من صرخات استغاثة من حنجرته المشلولة .. بالطبع تدهور أمر الجروح وطلبوا رأى صديقى أستاذ العظام ..

قال لى صديقى وهو غير مصدق : إذن فى القرن الواحد والعشرين ، ما زال عندنا غير متخصص يمزق عجوزًا مشلولاً بالموسى وهو يجثم على صدره ، بدعوى أن هذا هو الدين الصحيح ..

الحقيقة إن معظم الأطباء لا يسيغون هذه الأنواع من العلاج بحال ، ولديهم تحفظات قوية عليها ، لكنهم يحتفظون بآرائهم سرًا نظرًا للغابة الكثيفة من التقديس التى تحيط بها . من يجادل يهدد بأن يتحول إلى فولتير أو ماركس ، بينما لا أحد يرغب فى بطولة من هذا النوع .. أكثر من طبيب قال لى همسًا إن مرضاه تدهوروا لما شربوا بول الإبل ، وأكثر من واحد قال همسًا إن الحجامة لم تأت بنتيجة ..

أصعب شىء فى العالم أن تقول ما يستفز الجماهير أو يضايقها .. والشيخ القرضاوى يقول فى أحد حواراته إن نفاق العالم للحاكم كريه لكن خطره محدود ، بينما الخطر الحقيقى هو نفاق العالم للناس بأن يقول لهم ما يشتهون سماعه ..

يمكن للمرء ببعض الجهد أن يفند مزاعم المعالجين بالحمام .. عندما يتعلق الأمر بالحجامة وبول الإبل سوف تلقى أسئلة علمية ، لكنك تنزلق إلى المصيدة التى أعدوها لك : لماذا تريد أن تجرب بينما هذه أمور ثابتة فى الطب النبوى ولا جدوى من التجربة ؟.. تقول : بس يا جماعة .. فيقاطعونك : "هل تؤمن بالسُنة أم لا ؟.. رُدّ !.. » هل فهمت الورطة التى يقودونك إليها ؟.. أنت تؤمن بالسُنة لكنك لا تؤمن أن الحجامة من أركان الدين التى لا يكتمل الإيمان إلا بها .. إن هذه الورطة مصيدة محكمة هى ذات المصيدة التى كانت تبيع صكوك الغفران فى القرون الوسطى ، وأنت تعرف أنك لا تملك الثقافة الشرعية الكافية للرد ، لكنك بالتأكيد تملك الثقافة الطبية ، وهذه الثقافة تقول لك إن هناك خطأ ما .. نحن ننزلق إلى الهاوية بسرعة جنونية ..

وجدت المخرج المنطقى فى مقال للمحارب الشجاع د . خالد منتصر على شبكة الإنترنت ، يقول فيه : « لأن صوت الاجتهاد مغيب فى هذه الأيام فإننا لا نلتفت إلى هذه الآراء الشجاعة ، فمثلاً الشيخ الجليل عبد المنعم النمر فى كتابه العظيم (الاجتهاد) فى صفحتى 38 و 40 يفرق بين السنة الواجب إتباعها والسنة التى لا تثريب على تركها ، فيقول إن ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى الزراعة والطب والطعام وما يحبه الرسول وما يكرهه وكيف يمشى ونومه ولبسه إلى غير ذلك من الأمور العادية ، كل ذلك من النوع الثانى الذى لا يمنع أحدًا من الاجتهاد فيه إذا وجد أنه لم يعد يحقق المصلحة التى أرادها الرسول لتغير الناس والأمكنة .. ونفس المعنى يقوله محمد سليمان الأشقر أستاذ الشريعة بجامعة الكويت ، والقاضى عياض الذى قال فى ترك العمل بالأحاديث

الطبية : ليست فى ذلك محطة ولا نقيصة لأنها أمور اعتيادية يعرفها من جربها وجعلها همه وشغل بها .. » باختصار (أنتم أعلم بشئون دنياكم) ..

ثم يقول د. خالد منتصر : « كيف يعالج دواء أو إجراء جراحى المرض ونقيضه فى نفس الوقت ؟! ، وكيف تعالج الحجامة السمنة والنحافة ، والنزف وانقطاع الدم .... إلخ ؟ »

فى موقع إسلام أون لاين وهو الموقع العقلانى الرصين نقرأ التالى : « فلا يصح إطلاق القول بأن الحجامة علاج كامل ونهائى لكل الأمراض .. هى فقط وسيلة من وسائل العلاج يؤخذ بها عند الحاجة ، بل إن تطبيق الحجامة على أيدى غير مختصين يتيح الفرصة لمعارضى الطب النبوى للدعاية لها بشكل سلبى بحيث تظهر على أنها نوع من الدجل والشعوذة . ويمكن للحجامة أن تنقل العديد من أمراض الدم الخطيرة "

فى الحقيقة لا أقول هنا إننى ضد الحجامة وأبوال الإبل .. أنا ضد الترويج لهما كعلاج قبل عمل دراسة مدققة أمينة بعيدة عن التحيز وتمويل جهات يهمها أن تكون النتيجة إيجابية .. من الصعب أن ترفض علاجًا لمجرد إنه غريب أو (مقرف) ، ودليلى على هذا وليسمح لى ذوق القارئ أكل الصينيين فى الماضى لبثور المصابين بالجدرى .. طبعًا كان هذا نوعًا من اللقاح كما عرفنا اليوم .. إسهال مرضى الكوليرا فى الهند الذى كان الأصحاء يشربونه .. نحن الآن نعرف أنه يحوى كمية كبيرة من لاقمات البكتريا Bacteriophages التى تلتهم بكتريا الكوليرا الواوية ..

إذن أنا لا أرفض التداوى ببول الإبل .. لكنى كذلك لا أقبله قبل أن تُجرى دراسة مدققة أمينة ، ويتم مقارنة من يتعاطون العلاج مع من لا يتعاطون ، ويتم فصل وتوصيف المادة التى تشفى الفيروس سى إن كان

لها وجود .. لكن لا ترفض العلاج قبل التجريب ، ولا تقبله قبل التجريب .. فى الحالتين أنت تقع فى فخ الانغلاق الفكرى والأحكام المسبقة Prejudices ..

النقطة الأخرى المهمة هى الحياد العلمى .. هل يمكن أن يُجرى فى دولة عربية بحث علمى تكون خلاصته : لم يتبين أن للحجامة دورًا فى علاج مرض السكر ، أو تبين أن المجموعة التى تعاطت بول الإبل تدهورت ؟.. مستحيل .. أنت تجرى التجربة لتثبت كم هى ناجحة ، والمجلات الطبية الخليجية تعج بأبحاث من هذا القبيل .. الجهات العلمية الأكثر صدقًا تصمت ولا تعلن نتائجها ، وإننى لأذكر هوجة الأعشاب التى سادت فى التسعينات لعلاج التهاب الكبد سى ، وقيل إن جهات بحثية مهمة تجرى دراسة مدققة تُعلن فى يونيو القادم .. يومها قال لنا د . (حلمى أباظة) أستاذ أمراض الكبد الشهير : "أراهن أن يونيو بتاعهم ده مش جاى أبدًا . ! .. » والحقيقة أن نتائج الدراسة لم تُعلن منذ يونيو 1995 حتى هذه اللحظة فعلاً ..

لكن النصابين الكبار لا ينتظرون كلمة العلم .. ها هو ذا بيزنس الحجامة وبيزنس أبوال الإبل يجتاح كل شىء .. كالعادة لا يوجد شىء مجانى .. هناك كتب عن الحجامة وأفلام فيديو تشرح أساليب الحجامة ، وهناك أجهزة للحجامة المنزلية .. و .. و ..

تقرأ عن الحجامة أخبارًا مثل أن 38 ولاية فى أمريكا تمارس العلاج بالحجامة بشكل رسمى ، وأن مايو كلينيك تبنتها ، وأن هناك مجلات أمريكية وألمانية صدرت مخصصة لها فقط ، وأن الأسرة المالكة فى بريطانيا طلبت من فريق طبى سورى معالجة بعض أفرادها من [illegible] الهيموفليا

الوراثى .. ألا تشم رائحة راسبوتين فى هذا الخبر ؟.. وحتى لو صح فمن قال إن الطب البديل ليس له زبائن فى الغرب ؟.. إنهم يثقون فى أى شىء يأتى من الشرق باعتباره منبع الحكمة .. دعك من أن الحجامة فعلاً لها تطبيقات مهمة فى بعض فروع الطب ، لكنها ليست علاجًا لكل شىء كما يزعم هؤلاء ، وبالتأكيد هى الطريقة المثلى لقتل مريض الهيموفليا ..

من أهم الأخطار استقطاب عدد من الأطباء بل أساتذة الطب الذى لا يهتمون بالطريقة العلمية ، لكنهم يعملون كفقهاء السلطان لتحليل هذه الأنماط غير العلمية من العلاج ، وعندما يقول طبيب إن مجلة أمريكية تصدر للحجامة فأنت تجد صعوبة فى التكذيب .. لكنى جربت البحث المضنى فى شبكة الإنترنت والمجلات الطبية الكبرى عن رأى الغرب فى الحجامة ، فلم أجد لها ذكرًا إلا فى موسوعة ويكيبيديا .. الموسوعة نشرت المقال بعنوان Hejama لأن هناك من أرسله لها ، وصنفته ضمن المقالات الضعيفة التى تحتاج إلى أسانيد ومراجع !.. إذن أين مايو كلينيك وأين المجلات المخصصة للحجامة و ..و ... ؟..

ينقسم هؤلاء الأطباء المحللين إلى المنتفعين وحسنى النية والمرضى النفسيين لكنهم جميعا تكاتفوا لمحاربة عقل هذه الأمة .. النوع الأخير معروف جدًا .. تعرفه من تعصبه وضيق خلقه والنظرات المجنونة التى يطلقها من وراء نظارته ، واللعاب الذى يتطاير من فمه عندما يناقشه أحد .. هذا مزيج عبقرى من النصب والجنون ، وأفضل أنواع النصب هو ما جاء من مجنون لأنه يشع طاقة نفسية هائلة تقنع العامة ..

من بين هؤلاء الأطباء الذين يلقون الكلام على عواهنه هذا الطبيب

الذى التقت به جريدة معارضة مهمة ، وأفردت له صفحتين يلقى فيهما قنبلته : الإيدز لا وجود لـه . أمريكا هى التى اخترعت هذه الأكذوبة لتنشر الشذوذ الجنسى ! ومنهم من يقابل كبار الصحفيين ليؤكد أنه لا وجود للفيروس سى .. هذه مؤامرة من شركات الأدوية ، لكنه مستعد ليغير كلامه على الفور ليروج لأعشاب تعالج ذات الداء الذى لا وجود له .. هل تلوم العامة إذا صدقوا هذا بعد ما قاله طبيب ؟..

هؤلاء القوم جميعًا هم أعداء الإسلام وأخطر عليه ألف مرة من جيوش المغول .. لا يبالون بحيرة الأجيال القادمة ، ولا التضليل والشك ، ولا همهم أن يقول أحد فى نفسه : لقد جربت الطب النبوى ففشل .. يفضلون أن يقول الناس هذا ما دامت حساباتهم فى المصارف تتكوم ..

وبينما العالم ينهض ويمشى حثيثًا ويعدو ويثب ، يجلسون جوار جدار ويقولون فى عناد كالأطفال : وإيه يعنى ؟.. نحن كنا نعرف هذه الأمور منذ 1400 عام ..

أمس صارت ماليزيا أفضل منا واليوم صارت إيران أفضل منا .. غدا تصير الكونغو أفضل منا وسندعو الله أن نلحق بها ، ونقيم المؤتمرات لفهم كيف حدث هذا .. اتقوا الله فى هذه الأمة قليلاً ..

كليوباترا هى وفاء

بقلم د . أحمد خالد توفيق

aktowfik@hotmail.com

أرسل لى أحد الشباب هذا الإعلان عن كتاب جديد فى السوق ، وهو كتاب يصفه الإعلان بأنه (مفاجأة القرن 21) ، ويؤكد أنه مصرح به من الأزهر ووزارة الإعلام السعودى ورابطة العالم الإسلامى . يعدنا الكتاب بأن يثبت لنا بالأدلة الشرعية ما يلى :

ـ الأرض ثابتة لا تدور حول نفسها ولا الشمس .

ـ السماء تبعد عن الأرض 7 ملايين كيلومتر فقط .

ـ الأرض أكبر من الشمس والقمر معًا .

ـ سرعة الضوء = سرعة الصوت .

ـ الشمس تجرى حول الأرض يوميًا .

ـ أكذوبة عشنا فيها حينًا من الدهر اسمها الجاذبية الأرضية .

ـ الأعرابى الذى كان أعلم من جاجارين أول رائد فضاء .

ـ النجوم عددها محدود وقريبة جدًا من الأرض .

ـ الشمس تبعد عن الأرض 687272 كيلومترًا فقط .

ـ الأرض ليست كوكبًا .

ـ الجبال لم تتكون من الأرض بل أتت من فوقها



سعر الكتاب ثلاثون جنيهًا فى مجلد يمكننى أن أرى غلافه الأنيق المصبوغ بماء الذهب . يقول الإعلان إنها الطبعة التاسعة . طبعًا يمكننى أن أعرف أنه حقق نجاحًا ماديًا هائلاً .. إنـه لمغـر جـدًا أن تقـرأ كتابًـا كهـذا ، ولو وجدته أمامى لابتعته بلا تردد .

يجب أن يكون المرء عادلاً .. بالطبع أنا لم أر الكتاب ولـم أقـرأه لهـذا لن أعتمد على إعلان عنه ، وبالتالى لا أضمن أن موافقة الأزهر عليه صحيحة بصورته المذكورة فى الإعلان . أحب أن أعتقد هـذا .. لـو صـح الكلام المذكور فى الإعلان لكـانت ضربـة قويـة لعلمـى الفلـك والفيزيـاء ونظرية النسبية وميكانيكـا الكم ، فهـذا المؤلـف قـد استطاع أن يسحق نيوتـن وأينشتاين وكوبرنيكـوس وإنريكـو فيرمى وتـايكوبراه وجـاليليو وهوكنج بضربة ساحقة ماحقة ، دون أن يدرس حرفًا من علم الفيزياء .

يقابل المرء طيلة يومه أمثلـة مشابهة ، وليس هـذا الكـلام غريبًـا على مسامعنا على كل حـال . لكـن الاستفزاز يبلـغ أحيانًـا درجـات لا تطاق تجعلك تتساءل : ما جدوى الكتابة إذا ظللت صامتًا الآن ؟

مثلاً .. اعتدنا سماع ادعاء اليهـود أنهـم هـم بناة الأهـرام تحت قهـر الفراعنة ، ثم غادروا مصر وتركوها لنا هدية . بعد هذا جاء أنيس منصـور ليطرح فكرة أن الأهرام جاءت من الفضاء .. هنـاك مشكلة لـدى العالم كله هى أن يأخذ الأهرام منـا وخـلاص .. بـأى تفسير ممكـن .. يجب أن نؤمن أن الأهرام لم يبنها الفتى الأسمر مفتـول العضلات (حـور) الـذى هو جد (محمود) وعم (مينا) اللذين يقفان الآن فى طابور الخبز فى شبرا ..

الآن يتطـوع بـاحث مصـرى بـدور مشـابه ، فـيزعم نظريـة فريـدة من النظريات التى تنهمر علينا كل يوم ، وقد انطلـق من نقطـة ذكيـة هى أن

الأهرام مفرطة فى الضخامة هكذا يصل إلى نظريته التى تؤكـد أن الأهـرام لم يبنها اليهود ولا الفضائيون ولا الفراعنة ! . عنوان الكتاب الذى صـدر عام 1996 يستحق وقفة : (الفراعنـة لصـوص حضـارة)! .. وهـو يعتمـد على منطق بسيط .. الأهـرام ضخمـة ولا نعـرف طريقـة بنائهـا ، إذن مـن بناها عمالقة لهذا كان الأمـر سـهلاً كـأنهم يضعـون علـب كـبريت فـوق بعضها .. انتهى البحث ! . تأمل هذه الجملة المنطقية القويـة : فمـن جهـة العقل لا يوجد ما يدل على كون بناة الأهرام هم الفراعنـة ، بـل الأنسب أن يكون بناتُه قوم عاد الذين أعطاهم الله عـز وجـل القـوة و زادهـم فـى الخلق بسطة منطق غريب .. ما دام البناء ضخما فمن صنعـه هـو الأضخم وقت صنعه . هناك صور كثيرة جدًا ملفقـة ببرنـامج فوتوشـوب لهيـاكل عمالقة وعامل صعيدى يحفر ليظهر هيكـل عمـلاق تحت الرمـال . عندمـا يكون طول العملاق من قوم عاد 15 مترًا فـإن حمـل هـذه الأحجـار سـهل جدًّا .. طبعًـا الحكومـة المصريـة تخفـى هـذه الحقـائق . لا أدرى مـا المنطـق القوى هنا ؟.. هناك آثار ضخمة وألغاز غامضة فـى الكـون كلـه . ومـاذا عن أهرام المكسـيك الغريبـة يـا أخـى ؟.. مـن بناهـا ؟ ألـم يـر المنمنمات الدقيقة التى توشك ألا تراها بـالعين المجردة فـى المتحـف المصـرى ؟ هـل سيتطوع بنظرية أخرى تؤكد أن شعبًا من الأقزام فعل ذلك ؟

قوم عاد الأولى فى رأى الباحث هم بناة الأهرام .. بنـى قومهـم مدينـة إرم ذات العماد بالأحقاف .. . ويتساءل : لماذا لم نجد مقابر وآثارًا لقـوم عاد ؟.. لأن الأهـرام هـى آثـارهم ، وتعبير (إرم ذات العمـاد) القرآنـى يقصد به (الأهرام المدببة) لأن القبائل العربيـة كـانت تحـل حـرف الهـاء همزة .. معلوماتى أن الأحقاف فى الجزيرة العربية ، فماذا جاء بها هنا ؟

الحقيقة الثانية كما يقول هى أن الفراعنة هكسوس جاءوا من شمال الجزيرة العربية ، وهم من العماليق بقايا عصر ثمود .. والخلاصة أن الحضارة الفرعونية جاءت من الجزيرة العربية ، بينما المصرى العادى كان غلبان جاهلاً نحيلاً مذعورًا يعيش فى بيوت من طين ..

الكتاب يحوى حقائق لا يتسع المجال لذكرها بالتفصيل ، لكن من بينها أنه لا يوجد شىء اسمه التحنيط .. لا توجد ديناصورات وإنما هى خدعة كبرى .. « هى عظام حيوانات قوم عاد العمالقة مدفونة منذ 70 ألف عام ، وحتى لا ينتبه الناس إلى تلك الحقيقة الجلية فقد صوروا أشكال (هكذا فى الأصل) لديناصورات مخيفة على العظام من وحيهم ونسج خيالهم وادعوا أنها عاشت منذ 65 مليون سنة ليلهوا الناس » . والدليل الذى لا يدحض لديه هو : هل يتصور أحد أن تظل العظام 65 مليون سنة ؟ الفراعنة كانوا يتحدثون باللغة العربية ولكن يكتبونها بحروف الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية ، وقد أثبت العديد من أساتذة اللغة العربية أن كليوباترا تعنى فى الأصل وفاء ، وأن آمون يعنى آمين ، ورع يعنى رأى . وإخفاء تلك الحقيقة عنا ليس سببه إخفاء أصل أن مصر هى أصل العرب فحسب ، بل لإخفاء حقيقة أن التوراة نزلت باللغة العربية !!

منذ البداية هناك حول الموضوع صبغة دينية تهدد بخراب بيتك لو أنكرته .. قوم عاد ذكروا فى القرآن إذن إنكار قوم عاد إنكار للقرآن .. هذا صحيح ، لكن هنا تأتى الحيلة المعروفة : مزج ما هو مقدس بما هو رأى المؤلف .. هل لو أنكرت أن قوم عاد بنوا الأهرام تكون قد أنكرت وجودهم ؟ بنفس الطريقة أنفق العرب المليارات على من يخرجون الجان من أجسادهم .. هل إنكار تلبس الجان للإنسان إنكار لوجود الجان ؟... هكذا يمكن أن يمر كل شىء وأى شىء ..

ثم يلعب على الوتر الذى لا يفشل أبدًا : « وأكثر ما يُصرِّح به الآثاريون تتم معالجته سياسيًا قبل طرحه إعلاميًا . فعلوم الآثار قد صادرها الغرب مصادرة تامَّة و استغلَّها سياسيًّا .. »

بوضوح يتهم الباحث مقدمًا من يزعم أن الفراعنة بنوا الأهرام بأنه من عملاء اليهودية فى مصر! .. راجع المنطق المضطرب من جديد .. مثل منطق الطبيب الذى قال إن الإيدز لا وجود له وهو خدعة ألفتها أمريكا لنشر الشذوذ ..! كيف يمكن نشر الشذوذ باختراع داء والزعم أنه ينتقل بالشذوذ ؟..

النظرية لها شعبية قوية جدًا على شبكة الإنترنت والناس تقبلها كحقيقة مسلمة مذهلة أخرى ، وهناك قارئة قالت فى دهشة : « بالضبط مثل خدعة ناسا عندما زعمت أنهم نزلوا على القمر ! » . والكارثة الألعن هى هذا الرد فى أحد المنتديات : « هو بجد الكلام ده حقيقى ؟ أنا أصلا فى كلية آثار بجد الكلام ده مضبوط أنا هتجنن أنا خلاص آخر سنة ليا فى الجامعة يعنى الكلام اللى أنا بدرسه ده ملوش أى لازمة بالله عليك ترد عليا » . هذا طالب فى آخر سنة بكلية الآثار ، وهو يشك فى كل ما درسه من قبل بسبب هذا الكلام .

نحن نتراجع بلا توقف .. هل كان أحد يجرؤ على كتابة هذا الكلام منذ عشرين عامًا ؟ اليوم يكتبونه ويبيعونه ويجدون من يقرأه فى حماس باعتبار هذا هو (العلم كله) .. أليس هذا بالضبط مناخ القرون الوسطى ومحاكم التفتيش وإعدام تايكوبراه والتهديد بحرق جاليليو ؟ . الاعتراض على هذا الهراء يهدد بأن تتحول إلى فولتير .. سيقولون (هذا الكاتب

يطالب بالعلمانية وإلغاء الدين كما فعلت أوروبا) .. يقولونها وهم ذاهبون للمصرف لإيداع حصيلة بيع الكتاب الأخير وصرف شيكات الفضائيات . بينما صمتك على هذا الكلام هو كتمان شهادة الحق فعلاً ..

والآن تصور معى النتيجة بعد عشرين عامًا وماذا نتوقع من شعب لا يقرأ سوى هذا الكلام ، وقد عشش الصدأ وخيوط العناكب فى رأسه . تخيل معى !

عن العلم وشبه العلم

كتاب أنيق هو يحمل ذات الطابع (ابن الناس) الموحى بالثقة لدار المعارف ، تلك التى بدأنا القراءة مع سلسلتها (كل شىء عن) . . سلسلة علمية صدرت فى الزمن الجميل كتبها عالم أمريكى محترم وترجمها عالم مصرى محترم ، والتى لم أندهش عندما وجدت أن عدد طبعات أجزاء منها تجاوز التسع ، ثم كبرنا فعرفنا سلسلة (اقرأ) التى قدمت لنا المعلومة والأدب الراقي . لهذا كان لى الحق كل الحق أن أتحمس لشراء هذا الكتاب الذى يحمل اسم (أسرار الوحوش الخفية والإنسان العملاق 1999) للدكتور (على على السكرى) وهو من المهتمين بمفهوم العلم من الناحية الإسلامية كما تدل على ذلك مؤلفاته السابقة.

الصورة على الغلاف لديناصورات تتصارع ، وهى منسوخة من غلاف سلسلة أخرى هى (الكتب العلمية المبسطة) ، وبرغم هذا هناك اسم لمصمم الغلاف .. أما عن محتوى الكتاب نفسه فيلخصه المؤلف فى المقدمة بقوله : (الغرض من هذا الكتاب إثبات وجود الديناصور والرخ والصناجة والتنين وغيرها) .. تبدو العبارة غريبة طموحًا لكن لا توجد أحكام مسبقة فى العلم . المهم هى طريقته العلمية فى إثبات ذلك . يقول إنه اعتمد على كتابات القدماء مثل القزوينى والدمشقى وسواهم . ويقول (الواقع أن ما حكاه هؤلاء ليس أساطير لأنها رؤيت رؤية العين وتم التعرف عليها وقياس أبعادها) .

ثم يحدد الدكتور منهجه العلمى منذ البداية : « يقول العقاد فى كتابه (الإنسان فى القرآن) : لعل الكشوف الكثيرة قد أقنعت أكثر الباحثين

بأن الرفض بغير برهان أضر بالبحث من القبول بغير برهان .. » . طبعًا العقاد يتكلم عن القرآن الكريم وهو حالة خاصة جدًا ، وقد استخدم الدكتور هذه العبارة ببراعة ليوحى بأن من يرفض مقولاته العلمية يمكن أن يرفض أشياء أخرى أكثر قداسة . لكن ما علاقة كلام العقاد بقصص حكاها القزوينى والدمشقى ؟.. لقد رسم البحارة فى القرون الوسطى رجالاً فى الهند لهم قدم واحدة يتواثبون عليها ويرفعونها فى المطر لتحميهم ، ووصفوا قومًا لهم رءوس كلاب يعيشون حول دلتا الجانج ، ووصفوا ناسًا بلا رءوس عيونهم فى صدورهم يعيشون فى إفريقيا ، مع عمالقة لهم آذان عملاقة يمكن أن يتغطوا بها كالبطانية عند النوم .. كل هذا معروف وموثق وهناك خرائط كاملة عليها هذه الرسوم . بمنطق الدكتور يجب على أن أنفى وجود هذه الكائنات وإلا فهى موجودة .. منطق غريب جدًا .. المفترض أن البينة على من ادعى .. وهو ذات منطق الولايات المتحدة فى بدء الحرب على العراق : على صدام أن يثبت أنه لا يملك أسلحة دمار شامل .. طيب لماذا لا تثبتون أنتم أنها عنده ؟

ينتقل الدكتور إلى مقدمة علمية رصينة جدًا عن الديناصور يختمها بالسؤال : هل اندثر الديناصور حقًا ؟.. ثم يختمها بمقتطف من كلمات الإمام القزوينى يحكى عن ظهور تنين عظيم فى حلب عام 1226 ميلادية و426 هجرية ، ويخرج من فمه نارًا تحرق الشجر والنبات . فاستغاث الناس بالله تعالى فأرسل سحابة حملته . يحلل الدكتور المعطيات بدقة ليصل إلى أن هذه الصفات تنطبق على ديناصور .. هكذا توصل الدكتور إلى وجود ديناصورات حية فى حلب عام 1226 م ، ومعنى هذا أن الديناصورات لم تنقرض مع نهاية العصر الطباشيرى منذ سبعين مليون

سنة . كل هذا التراث العلمى الجيولوجى والباليو إيكولوجى يهدمه الدكتور بضربة لازب ، والسؤال هنا هو ماذا كان هذا الديناصور يعمل طيلة سبعين مليون سنة فلم يظهر إلا فى ذلك العصر ؟.. لماذا لم يحك عنه مؤرخ آخر ؟.. أين آثاره ؟.. لكنى لست متعصبًا يا سيدى .. لو أتيت لى من (حلب) بعظام ديناصور يثبت الكربون المشع أنها تمت للقرن الثالث عشر فلسوف أصدقك وأنحنى احترامًا لك وللقزوينى معًا .

ثم ينتقل الدكتور إلى هدم نظرية فناء الديناصورات مستخدمًا كلامًا علميًا موثقًا .. هكذا تبتلع أنت شبه العلم وسط العلم الحقيقى ، على طريقة قشر البطيخ الذى يقلونه مع السمك فى الموالد ، من ثم يأكل الطاعمون هذا الخليط على أنه سمك.

لكن وحوش الدكتور لا تكف عن الظهور مما يوحى بأن العالم العربى فى العصرين الأموى والعباسى كان حديقة ديناصورات تتحدى حديقة (مايكل كرايتون) .. تنين آخر يظهر فى نابلس يبدو من وصفه أنه فيل عملاق من نوع الماموث .. وقد كسر الأهالى نابه لذا سموه بلدتهم (نابلس) أى (ناب بدون) ، على الطريقة الإنجليزية فى إلصاق less بنهاية الكلمات بمعنى (بلا)..

ثم يقتطف مقالاً علميًا يحكى عن احتمال وجود أفيال عملاقة فى أصقاع سيبيريا .. هذا ممكن يا دكتور فى الأماكن غير المطروقة .. هناك ألغاز كثيرة على وجه الأرض ، وهناك وحوش عديدة لم نرها من قبل ، بل لا أستبعد وجود ديناصورات لم تنقرض بعد ، لكن لا تقل لى إن هذا الماموث قد ظهر فى نابلس فلم يره ويحك عنه إلا القزوينى .. هناك كتب

كاملة عن رجل الثلوج المخيف (الياتى) و(الساسكواش) لكن العلم لا ينظر لهذه الأمور بجدية ما لم يجد رجل جليد كاملاً ويشرحه ويعرف كل شىء عنه ، ولم يتخذها ذريعة لإصدار كتاب يؤكد أن الإنسان أصله قرد مثلاً .

الآن ننتقل إلى حيوان الصناجة ، الذى ليس هناك حيوان أكبر منه والذى عاش فى أرض التبت ، والذى ما إن ينظر لحيوان آخر حتى يموت الحيوان ، وإذا رآه حيوان آخر مات الصناجة . تصور هذا !.. حيوان حياته تتوقف على ألا يراه حيوان آخر !.. طيب وعايش إزاى ؟.. وكيف يبحث عن رزقه ؟.. هنا يرى الدكتور أن الكلام دليل قاطع على وجود ديناصور فى التبت ..

هناك قصة أخرى حكاها (ابن أثير) عن الطائر الضخم الذى ظهر بعمان عام 985 م ووقف على تل وصاح بلسان فصيح : قد قرب .. قد قرب .. ثم غاص فى البحر .. هذه القصة يأخذها الدكتور كحقيقة لا شك فيها على وجود ديناصورات مجنحة منذ ألف سنة ثم انقرضت .. طيب من قال إنها انقرضت ؟.. ربما هى ما زالت بيننا تبعًا لمنطقك ؟.. أثبت لى أنها غير موجودة ..

هناك فصل كامل عن الرخ ، وفصل كامل عن الناس الذين هم مشقوقون إلى نصف إنسان لأنهم من نسل النسناس (ابن أميم بن لاوذ) ، لكنهم يتكلمون ويقولون الشعر .. وهناك نساء بثدى واحد فى جزر البحر الهندى وهى صفة تورث كما هو واضح .. وبعد كل قصة يقول : « هذه القصة تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك على وجود كذا وكذا .... »

ثم ينتهى الكتاب بمجموعة هائلة من المراجع ..

لماذا اهتممت بهذا الكتاب ومثله بالآلاف ؟.. السبب أنه لا ينتمى لتلك الكتب الصفر الرخيصة ، فناشره دار محترمة أثق بكل ما تنشره ، ومؤلفه رجل علم قد بحث بحثًا مرهقًا بلا شك . من هنا مكمن الخطر لأنه كتاب يجيد التخفى فى صورة كتاب علم . لقد بذل المؤلف كل هذا الجهد ليبرهن لنا على أن كل حرف قاله الأقدمون صحيح .. قد أقبل هذا بالنسبة لتفسير دينى أو فقهى ، لكنى لا أقبله بالنسبة لحقائق علمية تتعلق بالرخ والتنين الذى ظهر فى حلب فى القرن الثالث عشر .. خاصة إذا استخدم مؤلفه كل حجة علمية يملكها لإثبات أن هذا صحيح . على طريقة (سرعة الصوت هى ثلث كيلومتر فى الثانية .. وهذا يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن أبو رجل مسلوخة وجد فى عصور تاريخية معينة) .. هذا يعطى القارئ ثقة بالكلام .. من المؤكد أنه كلام محترم مادام يقول (سرعة الصوت) وما إلى ذلك ..

المشكلة أن هذا بالنسبة لأكثرنا هذا هو العلم ولا علم سواه ..

فى فيلم الأب الروحى مشهد يمسك فيه بابا الفاتيكان بقطعة حجر مبتلة فيهشمها ، ويقول لآل باشينو : « هذا الحجر مثل أوروبا .. مبتل بالماء من الخارج لكن الماء لم يبلغ قلبه .. هكذا أوروبا لم تبلغ المسيحية منها موضع القلب برغم كل هذه القرون .. » نحن كذلك عندنا شهادات عالية جدًا ولدينا أبحاث تحمل أسماء براقة .. لكن التفكير العلمى المنطق الذى أهداه لأوروبا ديكارت وكانط بلل عقولنا من الخارج لكنه لم يبلغها قط من الداخل .

دماغى كـده

فى بعض الآراء الفنية

أيها القارئ العربى .. أنت غدائي!

فى كل عام بعد الامتحانات ؛ ولأننى أتظاهر بأننى أب متفان ، يكـون على أن أصحب الولد ابنى إلى سـور الأزبكية لأبتاع لـه بعض القصص المصورة الأمريكية التى يهواها ، والتى تُبـاع وهـى طازجة بسعر الذهب وتُباع وهى قديمة بثلاثة جنيهات للمجلة . برغم هذا أدفع مبلغًا محترمًا ، مما يدفعنى لمراقبة الولد على أمل أن أكتشف أنه لا يقرأ وإنما يشاهد الصور ، من ثم أخرب بيته .. لكنى فى كل مرة أجده يقرأ فعلاً .. يبدو أن إنجليزيته ليست سيئة إلى الحد الذى ظننته ..

لا أعرف سر الجاذبية فى هـذه القصص ولا ما يشد الشباب لها . كتبت ذات مرة أن هذه القصص تنطلق من فرضية أن كل مواطن أمريكى يخفى ثيابًا سرية تحت بذلته .. تتوتر الأمور فيهرع لغرفة سرية ليبدل ثيابه ويطير فى الهواء ليمنع الطائرة من السقوط أو الجسر من الانهيار . ظللت طويلاً أحاول فهم كيف أن سوبرمان يخفى بذلة كاملة وفردتـى حذاء فى عباءته وبرغم هذا هى ترفرف أثناء الطيران كالعلم . حشد لعين من سوبرمان والوطواط والرجال إكس والعنكبوت وفتى الجحيم والعملاق الأخضر والأربعة المذهلين .. إلخ كلهم ضخم كالثيران متفرغ للضرب طيلة الوقت ، حتى خطر لصانعى القصص أن يضموهم فى تنظيم واحد اسمه JSA أو (رابطة العدل الأمريكية) ، وهم يعبرون لبعضهم من مجلة لأخرى .. لا تنس أنهم أمريكيون وأنهم السلاح السرى لأمريكا الذى يمكنها أن تحطم به أمثالنا . ولا تنس أن القصص الأخيرة للرجل الحديدى تدور كلها فى العراق ، وفيها يوسع المقاومة العراقية ضربًا وقهرًا .

كانت هذه القصص تترجم بشكل منتظم فى الماضى ، وهناك حاليًا محاولات غير منتظمة لترجمتها ، بل إن بعض المصريين أصدروا صيغتهم الخاصة من تلك القصص (أبطال العرب الجبابرة) . نفس الرسم والأفكار والجو .. فقط صار اسم الأبطال (آية) و(راكان) .. إلخ

أمسكت بعض هذه المجلات لأقرأها فلم أفهم شيئًا .. إن المجلة التى فى يدك دائمًا تتمة لحلقة أخرى سابقة لن تجدها أبدًا ، والنهاية ليست نهاية لأن هناك حلقة أخرى قادمة لن تجدها أبدًا . تحاول فهم المجلة التى بين يديك كوحدة مستقلة فلا تفهم شيئًا بسبب طريقة مربعات التعليق القصيرة المتلاحقة فى الصفحة الأولى :

« كان الكمين كاملاً .. » « بعد انهيار جالاكتيكا » « كل شىء .. » « لكن الأمر ... » « إنها تتماسك » ـ « ولكن ... »

كل هذه التعليقات المتلاحقة على صورة كبيرة للبطلة وهى تبكى فوق جرف صخرى ..

تحت قدم البطلة تجد أسماء .. قصة فلان .. رسم بالقلم فلان .. تحبير فلان .. تلوين فلان..حروف فلان .. النشر فلان .. الموضوع لم يعد لعبًا إذن إنما هناك خط تجميع كامل كخطوط تجميع السيارات ؛ لأنهم بحاجة إلى كم هائل ولا يحتاجون إلى عمق أو فن .. لكن لماذا يصر الأخ المسئول عن الحروف على استعمال حروف (كابيتال) دقيقة عسيرة القراءة ؟.. يبدو أن هذا قانون لا يمكن تغييره ..

تقلب الصفحة فترى فتوة مثل فتوات أحمد حلمى هو الرجل الأخضر ، ينقض على امرأة تشبه البلدوزر الذى تحول لصاروخ ، وهو يصيح : « سأحطم رأسك أيتها المرأة الثعبان .. » وهى بدورها تنقض

عليه وتقول : « سترى أيها الأخضر .. »

أين ذهبت المرأة الأخرى التى كانت تبكى على الصفحة الأولى ؟.. لا تعرف ولن تراها ثانية طيلة القصة . هذه مشكلتك أنت ..

وهكذا يستمر الضرب والركلات على مدى عشرين صفحة مزدحمة بالتفاصيل والحجارة التى تطير فى وجهك .. بذخ رهيب فى الألوان والطباعة وخامة الورق والفنان يستخدم الصفحات كأنه لا يوجد غد .. يعنى ممكن أن تجد قبضة الرجل العنكبوت فى صفحة واحدة كلها .. هؤلاء لا يعانون مشاكل الفقر التى تعانيها مجلة سمير التى تحشر 16 كادرًا فى الصفحة . ونلاحظ ظاهرة غريبة هى أن قدم أى بلدوزر من هؤلاء لم تمس الأرض طيلة القصة .. كلهم فى الهواء منذ أول كادر حتى آخر كادر حتى لو لم يكونوا قادرين على الطيران . ثم إن هؤلاء الناس عندما يتشاجرون يتبادلون عبارات مزاح سخيفة على غرار : « لقد انتهى أمرك ! » فيرد : « وأنت صرت غدائى !.. » عبارات طويلة جدًا بالنسبة لشخص يسقط من السماء أو يضرب بقبضته .. لكنك تقبل هذا .. ..

لا تعرف متى ولا كيف انتهت القصة ، لكنك تكتشف أن (موردو) يراقب هذا كله على شاشته ويضحك فى وحشية ، وتعرف أنه ينوى التدخل .. القصة لم تنته إذن .. تابعوا معنا الجزء الثانى (الجميع ضد موردو) ..

هذه القصص باختصار لا تنتهى أبدًا ومن المستحيل أن تعرف متى وكيف بدأت ..

من حق المواطن الأمريكى أن يقرأ ما يريد ويستمتع به ، حتى لو كانت

صفحة الوفيات . وعلى كل حال لقد نجحت السينما مؤخرًا فى تحويل فن الستريبس إلى منجم ذهب لصانعيه من أمثال (ستان لى) و(فرانك ميلر) و(مايك مينولا) و(بوب كين) .. إن إيمان المنتجين الأمريكيين بفن الستريبس الرديء كمصدر للأفلام بدأ بدينو دى لورنتيس مع فيلم (باربارِيلا) واستمر حتى اليوم ..

لكن ماذا عنا نحن ؟.. ما الذى يروق لنا فى هـذا الهراء إلى درجة أن نقوم بتقليده وترجمته ومحاكاته الحرفية ؟.. هنـاك تجارب أكثر نضجًا فى الستريبس الأوروبى تستحق المتابعة بحق لكن لا توجد دور نشر تهتم بها أو تتولى ترجمتها ، بينما هناك أكثر من مجلة صدرت فى العالم العربى تحاول أن تجعل القارئ العربى يتذوق روعة الرجل العنكبوت والوطـواط وسوبرمان وثورمان وأكسمان . وما الذى نتوقعه من الطفـل المصرى الـذى تكونت ثقافته من (سأحطم رأسك أيتها المرأة الثعبان) و(أنت غدائى) ..؟..

قررت أن أبدأ بنفسى فأخبرت ابنى أننى لن أشترى له هـذا الهراء ثانية . لم يعلق وراح يسلى نفسه برسم قصص مصورة قريبـة جدًا من أسلوب تلك المجلات . أمس وجدت صورة رسمها على مكتبه .. لا أدرى لماذا يبدو لى ذلك الرجل ذو النظارة والشعر الأكرت الذى يهشم العملاق الأخضر رأسه مألوفًا ؟

ارتجفت وأنا أتخيل رابطة العدل الأمريكية بفتواتها المرعبة تطير فى الهواء لتحطم رءوس كل فنانى الستريبس عندنا ، ثم تنقض على عقول أطفالنا وهى تصيح : انتهى أمرك أيها القارئ العربى .. أنت غدائى !

نظرية الأوتوموبيل والفريرة

بقلم د . أحمد خالد توفيق

عادت ابنتى من عند البقال حاملة زجاجة من العصير ، قائلة إن عصيرها حامض .. تفحصت الزجاجة بعناية فوجدت أن تاريخ الصلاحية انتهى منذ شهرين ، وهكذا ذهبت بنفسى للبقال متوقعًا أن يعتذر عن هـذا الخطأ .. لكن ما أثار دهشتى هو أنه أخذ الزجاجة بلا كلمة واحدة وناولنى أخرى حديثة التعبئة . إذن هو ذلـك النصاب كان يعرف منذ البداية !.. فقط كان الزبون طفلة فى التاسعة لن تلاحظ الفـارق وسوف تشرب أى شىء .. إنها ظاهرة الغش المعروفة مع الأطفال ، فهم يأخذون دومًا العصير الحامض واللحم المشغت والجبن التالف والجريدة الممزقة والمقاعد المكسورة فى السينما ؛ لأن الأمر يمر على خير فى 90٪ من الحالات ..

كل هذا مفهوم فى مصر الحالية برغـم أنه عمـل لا أخلاقى لا يختلف عن اغتصاب طفل صغير لمجرد أنه لن يفهم ما حدث له .. لكـن منطقهم هو : لو لم تخدع الأطفال فمن تخدع إذن ؟.. لكن إذا فهمنا الأمر مع هؤلاء النصابين فلن نقبله مع ثقافة دولة كاملة ، أو مع مجلة أطفال محترمة تصدر عن دار عريقة .

كنت قد وجدت أن مجلة الأطفال الشهيرة تلك نشرت ترجمة مسلسلة لرواية (المفتاح السرى للكون) التى كتبها أعجوبة العصر (ستيفن هوكنج) ، عالم الفيزياء البريطانى المشلول الذى يتكلم عن طريق جهاز خاص يضغط على أزراره ، والذى اكتشف نظرية (الانفجار الكبير)

الذى بدأ الكون ، واكتشف أشياء أخرى كثيرة لا أفهمها بالضبط لأسباب ستعرفها حالاً . المهم أن الرجل كتب رواية للأطفال تمنيت أن أقرأها .. كثير من كتاب الخيال العلمى علماء أصلاً ومنهم (إيزاك أزيموف) و(آرثر كلارك) و(يوسف عز الدين عيسى) مثلاً ، لكن ماذا عن رواية خيال علمى للأطفال كتبها عالم ؟ هكذا ابتعت المجلة فى حماس ممنيًا عقلى بمتعة لا توصف ..

يا فرحة ما تمت !.. الترجمة التى نشرت على ثلاث صفحات مستحيلة الفهم ، وسوف أنقل لك مقطعًا منها بالحرف الواحد :

« الأولاد يسمونه جريبر الزحاف Greeper the Greeper وذلك لعادته الخفية بالظهور دون إنذار فى الأركان القصية بالمدرسة لن يسمع إلا صرير خافت لحذاء سميك النعل ورائحة باهتة لتبغ قديم وقبل أن يدرك أحد يكون جريبر قد نال من أى خطة سرية تدبر للأذى . وهو Creeper تعنى الزحاف والكلمتان جريبر وكريبر فيهما سبح يفرك فى جذل يديه الخشنتين بندوبهما لا يعرف أحد كيف توصل إلى أن يغطى كلتا يديه بآثار قشور حمراء ذات قشور تبدو أليمة وما من أحد لديه الجرأة ليسأله عن ذلك .. »

قشور حمراء ذات قشور ؟.. يا نهار اسود !.. فاهم حاجة ؟.. إذن أنت عبقرى أما العبد لله فمحدود الذكاء ، ولا أفهم إلا أن هذه الترجمة تمت بأحد برامج الترجمة مثل (الوافى) وتم لصقها كما هى دون إعادة قراءة النص أو وضع نقطة أو فاصلة توحد الله . كلنا نعرف عربية برامج الترجمة هذه .. أحدها قام بترجمة USB وهو الموصل المتسلسل العام إلى

(الولايات المتحدة ب) وهو ما أثار سخرية مجلة (بى سى) التى حذرتنا من أن الولايات المتحدة (ب) أخطر بمراحل من الولايات المتحدة التى نعرفها !

مثال آخر مضحك ذكره الفنان الكبير (محيى الدين اللباد) عندما قرأ فى ذهول إعلانًا حكوميًّا تعلن فيه وزارة الثقافة عن جائزة لأفضل تصميم لشخصية كارتونية عربية للأطفال (ميكى ماوس) .. هكذا قال الإعلان .. ويتساءل الأستاذ : ما معنى هذا ؟.. هل الحكومة تطلق اسم (ميكى ماوس) على أية شخصية للأطفال باعتبارها جميعًا (ميكى ماوسات) ؟.. وكيف تكون عربية إذا كان الإعلان يفترض أولاً أن تكون الشخصية (ميكى ماوس) ؟.. الخلاصة هى أن من كتب الإعلان لا يفقه حرفًا عن ثقافة الطفل ..

الاستخفاف بالطفل .. طيلة الوقت .. ذات منطق البقال الذى باع العصير الحامض لابنتى ..

اعتدت كلما اعتبرنى أحد من كتاب الطفل أن أؤكد أننى لم أبلغ بعد درجة الموهبة الكافية للكتابة للأطفال ، وهم يعتبرون هذا نوعًا من التواضع الأحمق ، لكننى موضوعى لا أقيم نفسى بأكثر أو أقل من حقيقتى أبدًا . هذه هى الحقيقة .. الأطفال كائنات حساسة ذكية تختلف عنا نحن الذين اعتدنا القبح وانعدام الموهبة وبرنامج (صباح الخير يا مصر) فلم يعد يؤثر فينا شىء .. هذه الكائنات يجب أن تنال أفضل وأرقى وأجمل شىء ، ولنذهب نحن للجحيم فقد اعتدنا ذلك على كل حال ..

اعتاد رجل الشارع أن يبتاع لابنه أوتومبيل بلاستيك و(فريرة)

وعصيرًا أحمر لا يعلم إلا الله ما فيه ، وهكذا يعتقد أنه قدم للطفل احتياجاته ، وهذا هو ما يفعلونه على نطاق أوسع .. المطرب الذى فشل يصير مطربًا دائمًا لبرامج الأطفال .. الملحن معدوم الموهبة يلحن للأطفال .. الرسام (نص الكم) يختارونه ليرسم للأطفال .. املأ الساعات التلفزيونية بأفلام رسوم متحركة (يسمونها كارتون) فيها قط وفأر وبطة .. لا يهم ما تقول ولا يهم أن الفيلم ذاته يتكرر فى كل يوم ، ولا أن مذيعة البرنامج التى أفرغت زجاجة ماء أكسجين على شعرها لتبدو شقراء ، تقطع الفيلم فى منتصفه غير مبالية بكون الطفل يتابع القصة أم لا ، فهو كائن أقل من البشر ولا رأى له .. مجرد ملء ساعات وكل شىء بالكيلو ، وما هذه البرامج والمجلات إلا صيغة أخرى من الفريرة والشراب الأحمر أو العصير الحامض الذى أعطاه البقال لابنتى ..

هذه الترجمة الرديئة لقصة هوكنج ليست سوى نموذج ثالث للفريرة والشراب الأحمر ..

وما دمنا مع الفنان الكبير (اللباد) فلابد من ذكر سخريته من مجلة أطفال عربية غير مصرية نشرت على غلافها صورة مادونا وهى تمتص إصبعها فى إغراء .. هل هذه ثقافة طفل ؟.. والأدهى أن ذات المجلة نشرت على غلافها ذات مرة صورة مبهجة زاهية الألوان لاثنين من معارضى النظام معلقين على المشنقة !.. وهى رسالة واضحة أن الذى لن يسمع كلام بابا الزعيم يا حبايبى حنعلقه فى المشنقة ويصرخ : أأ آآآآ ه !..

على فكرة اللباد من أهم الجادين فى موضوع ثقافة الطفل ، وأذكر أن مجلة سمير قدمت له فى أوائل السبعينات تجارب بصرية بالغة الأهمية ،

منها قصة كاملة لجول فيرن رسمها بطريقة (فن البوب) وأسلوب الكولاج الذى كان سائدًا وقتها ، وبالتالى ارتقى بالطفل بصريًا خطوة وهو يتابع القصة المثيرة المفيدة .. هل رأيت رسم مصطفى حسين لقصة (خيال الحقل) ؟ أو المرجع البصرى الفاخر الذى قدمته دار الهلال مع قصة (الجمال الأسود) التى أطلقت عليها (مذكرات حصان) ، حينما ضمت فى الكتاب كل لوحة رسمت للحصان منذ فجر التاريخ ؟.. البعض يصر على أن يكون جادًا وأن يقدم الجمال الراقى ، بينما يصر الباقون على أن الأطفال يجب أن يشربوا العصير الحامض ..

النتيجة ؟.. يمكنك أن تراها فى الشوارع .. هذا البلطجى وهذا المغتصب وهذا المختلس وهذا الأفاق وهذا الخريج الجاهل .. كلهم تربوا بطريقة الفريرة ..

حتى أنا كاتب هذا المقال تربيت بطريقة غير بعيدة جدًا عن الفريرة ، لهذا أقول لك إننى أعرف أن هوكنج اكتشف شيئًا مهمًا جدًا لكنى لا أفهم ما هو بالضبط ..

الجدية والمزيد من الجدية فى ثقافة الطفل .. إنها شىء خطير جدًا يحدد مصائر الأمم .. إذا أردنا أن نحصل على مواطن صالح يفهم ما اكتشفه (هوكنج) فإن علينا أن نبحث عما هو أفضل من صورة مادونا على الغلاف ، أو تسمية كل شخصية كارتونية باسم (ميكى ماوس) ، أو ترجمة النصوص ببرنامج (الوافى) دون مراجعة ، أو استخدام أسفل عينة فنانين على الإطلاق لرسم قصص الأطفال . لعل هذا هو التحدى الأهم فى الأعوام القادمة .

عن العصر الذهبى لمجلة سمير

د . أحمد خالد توفيق

أولاً دعنى أؤكد لك إننى لست من جيل مجلة (السندباد) حتى لو كنت تعتقد أننى عجوز لهذه الدرجة .. هناك جيل كامل تربى على رسوم بيكار فى هذه المجلة لكنه ليس جيلى .. إنما أنا من جيل (سمير) و(ميكى) .. توءما دار الهلال اللذان صنعا ثقافتنا الأولى .. الأول كان شخصية فرنسية مترجمة اسمها (سبيرو) ثم صار عربيًا جدًّا ، والثانى قادم من عالم ديزنى الساحر . ثمة وحش مترجم كان يأتى من بيروت يتكلم بلغة (البندورة والعلكة والبوظة) هو مجلات سوبرمان والوطواط ولولو الصغيرة ، وقد أوقفت هذه المجلات على كل حال لأن وزير الثقافة وقتها أدرك مدى ما تحمله من قيم أمريكية بعضها مفزع (المجلة المنحوسة التى وقعت فى يد الوزير كانت تمثل سوبرمان يلقن أبويه درسًا قاسيًا !) .. كان هذا قبل أن تأتى الضربة القاصمة من الأهرام فى صورة عملاق فرانكفونى لا يمكن منافسته اسمه مجلة (تان تان) .. هنا اجتمع أفضل المؤلفين البلجيكيين مع أفضل الرسامين ليصنعوا هذا الحلم الجميل الذى استمر عشرة أعوام ، قبل أن تتوقف ..

كما قلت من قبل كانت مجلة سمير تقدم شخصية فرنسية اسمها (سبيرو) يرسمها فنان اسمه (برنى) ، ومع الوقت صار (سمير) عربيًّا أكثر فأكثر .. اسمر لونه وتجعد شعره وصار يشترى الفول ويأكل الكنافة فى رمضان ، ورسمه عدة فنانين مثل التهامى وحجازى ونسيم جرجس ..

وسط كل الإبهار والإتقان الحرفى لدى سحرة ديزنى ومارفل ودى سى كوميكس ، استطاعت مجلة (سمير) أن تعيش وأن يصير لها قراؤها .. والسبب هو كتيبة المؤلفين والفنانين التى استطاعت دار الهلال أن تحشدها فى ذلك العصر الذهبى ..

لم تعد عندى مجلات (سمير) ، لكنى أتذكر كل حرف نشر فيها (ليس شيئًا هينًا بعد ثلاثين عامًا) ، وانطباعى هو أن هؤلاء الفنانين كانوا يحبون ما يقومون به فعلاً ، ومقتنعون به جدًّا .. بالتأكيد لم يتقاضوا إلا ملاليم بالنسبة لما يناله فنانو اليوم إذا تعاملوا مع صحافة الطفل الخليجية . النقطة الأكثر أهمية هى أنهم ظلوا فى قوقعة تعزلهم عن أساليب الستريبس الغربية ، كأنهم هم مكتشفو هذا الفن ، وهكذا لا يمكن أن تجد فيهم استنساخًا لرسامى (دى سى كوميكس) أو رسامى (ماد) كما تجد فى أكثر رسامينا اليوم ... لو تأملت رسوم (عدلى رزق اللـه) لشخصية (أشعب) لوجدت أسلوبًا طفوليًّا أقرب إلى المنمنمات الفارسية ، وبالتأكيد لم يستعمله أحد فى القصص المصورة قبله ولا بعده . وماذا عن رسوم (محمد حجى) و(كنعان) و(مأمون) التشكيلية المتجهمة ؟.. لقد تخصص الفنان الأول فى قصص المقاومة الفلسطينية وكان يرسم الإسرائيليين أقرب إلى الوطاويط مصاصة الدماء ، وما زلت أذكر رسمه لقصة كفاح (مارتن لوثر كنج) .. أما رسم (مأمون) لقصة (سبارتاكوس) فهو مجموعة من اللوحات التشكيلية التى زودت ببالونات الحوار .. بالطبع رضعنا كراهية الصهاينة من هذه القصص لأن من رسموها كانوا يكرهون الصهاينة فعلاً قبل أن تختلط الأمور

كل مسرحيات شكسبير قرأتها للمرة الأولى على شكل قصص مصورة فى مجلة سمير .. عرفت أديسون وبيمون والياس هاو .. هل حقًا لا تعرف (بيمون) و(إلياس هاو) ؟.. بالطبع لأنك لم تكن من قراء سمير ..

ثم يأتى (محيى الدين اللباد) .. اللباد العظيم الذى قرر أن يذيق الطفل المصرى أساليب فنية أكثر غرابة وحداثة ... إنه يقدم لنا قصة كاملة من أدب (جول فيرن) مستعملاً أسلوب الكولاج وفن البوب ، لا تنس أن هذا كان عصر البوب و(أندى وارهول) على كل حال ، فاستعمل ذات العالم (المشجر) فاقع الألوان الذى تراه فى فيلم البيتلز (الغواصة الصفراء) .. تخيل قصة لا ترى فيها وجه بطل واحد وإنما أصابع وقبعات !.. وقد قدم لنا اللباد شخصيات طريفة جدًا مثل الولد السكندرى (قرقورة) الذى يثير رعب الإسرائيليين ، وزغلول أفندى بشاربه الأحمر ..

أخبث من عمل فى المجلة كان عمنا الكبير (حجازى) .. لقد قدم لهذه المجلة أضعاف ما قدم لروز اليوسف وصباح الخير معًا ، لكن الكبار كعادتهم ينظرون لما يطالعه أطفالهم على أنه (شغل عيال) .. من هذه الثغرة تسلل حجازى وألف ورسم أجرأ قصص يمكن تصورها .. لابد أن رجل المخابرات كان يقضى يومه فى تعذيب الإخوان والشيوعيين ، وينقب بالميكروسكوب فى كل مطبوعة وجريدة ، ثم يشترى مجلة سمير فى طريق العودة ليقرأها أطفاله .. غير عالم أنها تحوى قصص (تنابلة الصبيان) لحجازى ..

ما كل هذا الإلهام ؟.. لقد كان الانفتاح فى علم الغيب .. ولم تكن

هوجة الأطعمة الفاسدة ولا الغش الصناعى قد بدأت ، وما أذكره على قدر علمى أن الشرطة كانت فى خدمة الشعب وقتها قبل أن يصير الشعب فى خدمة الشرطة .. لكن عمنا حجازى يقدم لنا ثلاثة أطفال كسولين شديدى البدانة والخبث هم تنابلة الصبيان .. هؤلاء الأطفال القادمون من بلاد السلطان يلعبون بالاقتصاد المصرى لعبًا .. لقد استعملوا علب البولوبيف المصنع فى الغرب وغيروا الورقة اللاصقة عليه ليبيعوه على أنه منتج مصرى مائة فى المائة !.. وزارة الصناعة تهلل والإعلام يصفق والمذيعات البلهاوات يجرين معهن اللقاءات .. لقد صاروا من أقطاب الصناعة فى مصر وهم نصابون لا أكثر .. الأدهى أنهم يتفقون مع نشال مشهور هو (على عليوه) ليسرح رجاله لسرقة رواتب موظفى شركتهم أول الشهر !.. وهكذا يدور المال دورته ويتمكنون من دفع الرواتب أول كل شهر .. يقرر الموظفون ركوب سيارات أجرة لتفادى النشل ، هنا تتبدى سخرية حجازى عندما نكتشف أن قوانين الشركة تحتم على الموظفين العودة بالأوتوبيس !.. واحد فقط يكتشف المهزلة هو سمير نفسه .. يحاول فضح التنابلة ويوزع المنشورات ضدهم فيعتقل ، وتحاكمه محكمة أمن الدولة ويلقى به فى السجن .. لاحظ أننا نقرأ قصة أطفال نشرت عام 1969 !.. وفى النهاية يفر التنابلة بما سرقوه إلى الخارج !.. (هذه النهاية اضطرت دار الهلال لتغييرها فى الألبوم الذى أصدرته للقصة فى عهد السادات) ..

هناك قصة أخرى لتنابلة الصبيان تحكى كيف تقمص أحدهم دور ضابط والآخر دور وكيل نيابة والآخر دور طبيب وهبطوا على قرية مصرية بريئة ليتحالفوا مع العمدة والبقال الثرى (حسبو) وينهبوا مواشى

الفلاحين .. مع أغنية تتردد باستمرار هى (الهش كده .. كل ولاد العز كده .. أما ولاد الفلاحين .. سود ومش قد كده !) .. لاحظ أننا لا نتكلم عن مسرحية لـ (نعمان عاشور) .. بل قصة أطفال مصورة .. يا للرسام العبقرى الخبيث !.. كل هذا قبل الانفتاح بثمانية أعوام !..

لكن السبب الذى جعل هذه الأعمال تمر تحت أنف الرقابة هو نفس السبب الذى جعلها تتبخر كأنها لم تكن : أنها قصص أطفال .. فقط أردت أن أقول لعم حجازى : نحن تلقينا الرسالة وفهمنا .. ولو كنا قد صرنا محترمين وهى فرضية قابلة للمناقشة فلك فضل عظيم فى هذا ..

كانت مجلة سمير تحمل طابعًا عامًا من كراهية إسرائيل والولايات المتحدة ، والتفرقة العنصرية ، ومساندة حركات التحرر وفيتنام والمناضلين ، وهى نغمة قد تبدو يسارية بعض الشىء اليوم لكنها كانت النغمة السائدة فى مصر وقتها وقد قدمتها المجلة بلا إسفاف .. فليس غريبًا أن يكون عصر السادات هو بداية انهيار مجلة سمير .. لم يعد هذا عصر الكلام عن (جيفارا) و(مارتن لوثر كنج) بل هو عصر شراء (السونتيانات) من بور سعيد ..

هؤلاء الناس كانوا مؤمنين بأن الطفل يمكن أن يستوعب أى شىء وأية معلومة ، ما دامت تقدم له مبسطة ، والتجربة العربية المماثلة التى تحضرنى الآن هى مجلة (أسامة) السورية ..

كانت مجلة سمير من إبداعات دار الهلال فى ذلك العصر الذهبى ، وهو العصر الذى شهد تجارب هائلة قدمتها (نتيلة راشد) .. مثلاً رواية (الجمال الأسود) صدرت للأطفال فى ألبوم أنيق اسمه (مذكرات

حصان) يحوى كل لوحة أو نقش جدارى أو تمثال للحصان عبر التاريخ .. (بنت الشمس والقمر) أساطير أفريقية يحكيها مين ؟.. فؤاد حداد شخصيًا !.. هناك مجموعة قصص أطفال عالمية يرسم كل قصة فنان من وزن (حلمى التونى) و(مصطفى حسين) و(محمد حاكم) و(إيهاب شاكر) .. هكذا يدخلون فى استعراض عضلات لا يمكن نسيانه .. (البوابة المسحورة) قصة ورسم (يورى ترنكا) أعظم أديب ورسام أطفال .. من الذى يشرف على ترجمة الكتاب وإخراجه ؟.. اللباد !

ما زالت مجلة سمير تصدر عن دار الهلال .. لا أريد أن أكون سمجًا لكننى أشعر بأنها فقدت كل روح ، وأنها تصدر لأنها يجب أن تصدر .. كل العاملين فيها (مالهمش مزاج) .. وعلى كل حال لم يبق شىء كما كان فى الماضى ، فلماذا تختلف مجلة سمير عن أى شىء آخر فى مصرنا الحبيبة ؟

عن النعناع وقناوى والفوضى

بائع النعناع العجوز يدفع سيارته فى أحد الشوارع قرب مديرية الأمن ، فتستوقفه سيارة بيجو بيضاء بها بعض الرتب ، وينتقى ركابها بمعونة السائق المجند ربطات عديدة مكتنزة من النعناع النضر طيب الرائحة ، ويشتمون البائع طالبين أكياسًا يضعون فيها ما أخذوه ، ثم بلا كلمة أخرى تنطلق السيارة التى تعالت منها الضحكات ، ليقف البائع وحده وقد اختفى نصف بضاعته .. دنوت منه فرأيت دموع القهر والغيظ فى عينيه ، وهو يردد لنفسه :

ـ « عاملين لى فيها بهوات .. ده قوت عيالى يا كفرة .. »

تأمل معى الموقف .. لا أعتقد أن وزارة الداخلية تأمر ضباطها بسرقة النعناع ، وكمية النعناع على هذه العربة لن يزيد ثمنها على خمسة جنيهات لن ترهق هؤلاء ، لكن خمسة الجنيهات هذه تمثل للرجل رأس ماله بالفعل . هكذا بلمسة بسيطة صار هذا البائع المسن من أعداء الداخلية ، والسبب تصرف غير مسئول من بعض البكوات ، ورغبة فى فرض القهر والسيطرة على رجل لا خطر منه ..

بالفعل هناك تجاوزات كثيرة من رجال الشرطة ، بعضها بسيط مثل عدم دفع ثمن النعناع وبعضها يصل لدرجة إلقاء المتهم من الطابق الثالث ، وقد كنت أجلس فى (ميكروباص) بين المحافظات يقف جوار قسم شرطة شهير جدًا فى القاهرة ، فسمعت السائق يقول لأمين الشرطة المحتج على وقوفه هنا : « الميكروباص ده بتاع فلان بيه .. » لم يبد

الأمين أية دهشة . فقط تساءل : « مش ده بتاع علان باشا ؟ » فاتضح من كلامهما أن كل واحد من البهوات يشمل برعايته مجموعة خاصة به من الميكروباصات معروفة ولا يسمح لأحد بأن يتصدى لها ، والمقابل معروف طبعًا . هذا كلام يعرفه الجميع لكنك لا تستطيع إثباته ، وأية محاولة لذلك سوف تنتهى بك فى السجن .

كان كل هذا فى ذهنى عندما ذهبت لرؤية (هى فوضى) فيلم يوسف شاهين وخالد يوسف . وكما قال الأستاذ (رامى عبد الرازق) فى (كادر ثابت) عن حق :« هنا ثنائى نرجسى مخيف لا قبل لأحد بالوقوف أمام تدخلاته » . وكنت أعرف أن الفيلم سينجح ويمتدحه الجميع مهما كان مستواه ؛ لأنه صار من الكفر ألا يعجب أحد بفيلم ليوسف شاهين . وحتى الكومبارس الذى يقدم للبطلة كوب ماء فى أحد أفلامه يعتبر نفسه أستاذًا من أساتذة التمثيل ، ويقول فى وقار وغموض : « أفضل أن يرى الناس العمل ليحكموا بدلاً من أن أتكلم عنه » . وغدا من التقليدى فى كلام أى ممثل أن يحكى عن (تجربة التطهير أو الميلاد الجديد) التى اجتازها بالعمل مع شاهين .

منذ اللحظات الأولى عرفت أن الفيلم حقق فتحين : الفتح الأول هو تحطيم الكثير من التابوهات والخطوط الحمراء بصدد هذه التجاوزات ، والفتح الثانى هو إعطاء دور بطولة شبه مطلقة لخالد صالح أفضل ممثل عرفته مصر منذ عشر سنوات بلا مبالغة ..

فيما عدا هذا بدا واضحًا تمامًا أن الفيلم علاقته واهية جدًا بيوسف شاهين .. هذا هو فيلم خالد يوسف بالكامل ، فلا تظهر لمسات يوسف شاهين إلا فى مشاهد محدودة مثل المولد ، والعلاقة شبه الأوديبية بين

وكيل النيابة وأمه ، واسم بهية ، وطبعًا الخلط الاجتماعى الطبقى العجيب ، والهتافات السياسية المفتعلة مثل (عمر السجن ما غير فكرة) التى تذكرك بهتاف شاهينى آخر (مصر حتفضل غالية عليا) الذى يتصور شاهين أنه قادر على قهر بونابرت وكلب حراسته الأرمنى الشرس (برطملين) ..

السيناريست (ناصر عبد الرحمن) وضع على مكتبه لافتة تقول (الداخلية تغتصب المصريين) ، وقرر أن يبنى عليها سيناريو كاملاً مدته ساعتان جعل فيها هذه المقولة حرفية . يسهل أن نتصور أن خالد صالح يمثل الداخلية ، بينما منة شلبى هى مصر التى لا يحميها إلا القانون..

هكذا تم البناء الكبير .. لابد من حبكات فرعية كثيرة ، ومنها مثلاً وكيل النيابة الذى يحب فتاة تدمن المخدرات وترسم الوشم على ظهرها ، وهى أيضًا ابنة عضو فى لجنة السياسات ! ، وهى حامل من وكيل النيابة كذلك ، وإن كانت أمه (هالة صدقى) لا تندهش من ذلك لحظة بل هى فقط قلقة على صحة الطفل الذى سيولد لأم مدمنة . جاءت الاستراحة فنهضت لأدخن سيجارة . تأخرت ربع دقيقة وعدت فوجدت أن وكيل النيابة صار متيمًا بحب منة شلبى فجأة ، وكلتا الفتاتين ليست بالضبط نوعية الفتاة التى يمكن أن تروق لوكيل نيابة ..

هناك مشاهد عجيبة طويلة جدًا ولا لزوم لها مثل مشهد زنزانة الحريم المجاورة . هنا خيط واضح من قصة (الهمس المسحوق) الرائعة ليوسف إدريس ، لكن بصراحة لو كان عنبر الحريم أقرب لحريم ألف ليلة بهذا الشكل فمن واجبنا جميعًا أن نُسجن .. فى الواقع كان الأجمل أن يكون

هذا عالمًا خياليًا لا وجود له يتناقض مع واقع العاهرات والمدمنات الفعلى القذر القبيح . أى أن يكون وليد أحلام المساجين المحرومة كما فعل إدريس العبقرى فى قصته آنفة الذكر .

الفيلم جرىء حسيًا ، لكن كما قلت فى مقال سابق هناك ميزانين فى الرقابة : ميزان للعامة وميزان لشاهين .. هكذا تصفح الرقابة فى تسامح أسطورى عن مشاهد لو قدمها سوى شاهين لعلقوه مشنوقًا . نظارة هيبة العبقرية وضعت على عين الرقيب فلم يعد يرى .. .

فى أفلام شاهين يتكرر ذلك الخلط الساذج بين المتصوفين والموالدية والأصوليين ، فهو ـ كالخواجات تمامًا ـ يضع كل هؤلاء فى سلة واحدة تمسك بالدف وتتطوح ذات اليمين واليسار ، برغم أنه لا يمكن الجمع بين المتصوفين والأصوليين أبدًا . ثم المشهد الكوميدى فى مكتب مرشح الإخوان فى مجلس الشعب .. الإخوان لا يتكلمون هكذا سواء اختلفت أو اتفقت معهم ، لكنك تسمع كلامًا غريبًا مثل : « طبعا إحنا الحل .. المهم تدونا أصواتكوا وتسمعوا كلامنا .. » لو كانوا يتكلمون بهذه السذاجة لما صار الشارع إخوانيًا . تصوره للشاب السلفى فى السجن هو شخص ملتح بجلباب يقف طيلة الوقت ووجهه للحائط يقرأ المصحف ويهتز ، كأنه يهودى عند حائط المبكى . هل السلفيون لا يجلسون على الأرض أو ينامون أو يهمدون قليلاً ؟

المظاهرة العاطفية فى نهاية الفيلم والتى صممت بعناية لإثارة حماسة المشاهدين وقشعريرتهم ، والتى تبدو فيها الداخلية غلبانة جدًا ومثيرة للشفقة ، لدرجة أن هالة فاخر تدفع أربعة جنود فيسقطون . هذا الاقتحام للقسم كان فى الواقع سوف يؤدى لفتح النار مباشرة ، دعك من وكيل

النيابة الذى صار يجرى فى ممرات السجن ويطلق الرصاص فى الهواء وعلى الأقفال ويهدد ضباط القسم ..

الفيلم يتلخص فى عبارة واحدة : (خالد صالح) .. ومعه الكثير من خالد صالح مع لمسة من خالد صالح ، وبعض خالد صالح ، ثم خالد صالح على الوش .. هذا الممثل العبقرى هو الذى رد للمشاهدين مقابل تذاكرهم وزيادة ، وكنت تشعر بأن أى وقت لا يظهر فيه على الشاشة هو وقت ضائع . السيناريست رسم شخصيته وفى ذهنه خيوط كثيرة جدًا من قناوى باب الحديد . العاشق المتيم فى الحب بحرارة حارقة والمنفر والشهوانى .. وكما كان قناوى يرسم دلو (الأزوزة) ليتدلى من ذراع الصور العارية لتذكره بهند رستم ، فإن أمين الشرطة فى هذا العصر يلفق بالكمبيوتر صورة لمنة شلبى بالبكيني . ومثل قناوى يغتصب حبيبته كخطوة أخيرة قبل نهايته ، لكنه لا يلبس قميص الأكمام هنا بل يقتل نفسه . هذه الشخصية مرسومة ببراعة ، ويمكنك بسهولة أن تدرك أن يوسف شاهين يتعاطف معها ويحبها . لكن هناك الكثير من المبالغة الفجة فيها مثل أن يجلس ليلتهم عشرين رغيف حواوشى ببلاش وفى الوقت ذاته تنهال أمامه الرشاوى .. الأمور لا تحدث هكذا ..

لا ننكر أن الفيلم ممتع ، والسرد خطى يجعلنا للمرة الأولى نشاهد يوسف شاهين بارتياح ، لكن هذه الهنات تقف فى حلقك فلا تستطيع ابتلاعها ، دعك من تحميل كل خطايا الكون على عاتق أمين شرطة واحد ، وأعتقد أن السبب طبعًا هو أن للرقابة حدًا تستطيع مضغه فابتلاعه . بعد هذا مستحيل .

Making of ...

حماتى مشاهد ممتاز للأفلام ، فهى لا تحاول أبدًا أن تسأل عن كيفية تصوير هذا وذاك .. الأفلام بالنسبة لها لقطات تسجيلية صورت بكاميرا خفية لمجموعة من البشر يمارسون حياتهم ، وعندما يتصرف بطل الفيلم بحماقة فإنها تلومه ولا تلوم كاتب السيناريو .. طبعًا هى تعرف أن هناك كاميرا ومخرجًا ومصورًا ومونتيرًا ومؤلف موسيقا تصويرية ، لكنها تفضل أن تندمج فى الفيلم ولا تفسده بتخيل طريقة صنعه .

عندما بدأ التلفزيون المصرى يعرض برنامجًا يوميًا عن تصوير making of فيلم (همام فى أمستردام) كانت تتابع الحلقات ، وفى رأيى الخاص أن هذا ترام طويل مكون من ثلاثين عربة ابتاعه التلفزيون المصرى ، إذ يظهر فى بداية الحلقة مثلاً محمد هنيدى ليكلمنا عن يوم التصوير الصعب ، أو عن الشطة التى وضعوها فى الكشرى فكاد الممثل الفلانى يختنق ، أو عن غنائهم فى شجن لأغنية الحلم العربى ، كأنه يتكلم عن تصوير (الأب الروحى) ، ثم تشاهد لقطات التصوير فلا تجد شيئًا من هذا كله .. لقد أغمض عينه لربع ثانية مع الأغنية فصار هذا (شجنًا جميلاً) وسعل صديقه مع ملعقة كشرى فوجدوا فى هذا ما يغرى بتقديم حلقة مدتها ربع ساعة . قالت لى حماتى : « قبل أن أرى هذا البرنامج كان لدى اعتقاد بسيط أن هؤلاء الناس يتعبون نوعًا .. لكننى لم أر طيلة الحلقات سوى مجموعة من الشباب يهرجون ويمزحون ! »

هذه هى المشكلة مع انتشار تلك الأفلام التسجيلية التى تظهر ما يدور فى كواليس السينما المصرية . أنت لا تشعر بأنهم جادون بل هم مجموعة

من الشباب يمضى وقتًا طيبًا ويحصل على أجور ممتازة ، ولا شك فى أنها تثير إحباط أى شاب مصرى مثل (مصطفى) المحروم من كل شىء ، الذى يجلس أمام الشاشة وهو لا يجد وظيفة ولا يحوى جيبه سوى خمسة عشر جنيهًا سوف ينفقها غالبًا لمشاهدة الفيلم الذى يرى لقطات منه الآن .. ذنبه الوحيد هو أن مخرجًا لم يكتشفه بعد .

لا أعرف متى بدأ هذا الفن القائم على (تصوير التصوير) السينمائى .. فن تصوير فيلم تسجيلى يريك ما يحدث فى كواليس الأفلام الروائية السينمائية . ربما أقدم مثال فى ذهنى هو (سيسيل ب دى ميل) وهو يرتب الخدعة السينمائية فائقة الشهرة لانشقاق البحر الأحمر كى يخرج اليهود فارين من فرعون فى فيلم (الوصايا العشر 1956) . لم يكن هناك كمبيوتر فى ذلك الوقت ، وقد اعتمد الرجل على حيلة شديدة البراعة عندما يمتلئ خزانان عملاقان بسرعة ويفيضان لتغرق المياه الفجوة بينهما ، ثم يتم عرض اللقطة بالعكس فتبدو المياه كأنها تنشق وتتراجع .. هذا شىء جدير بتسجيله بالتأكيد ..

بعد هذا صار مصطلح Making of شهيرًا جدًّا وعلى لسان الجميع . فى البداية كان يعرض بشكل محدود ولم تكن له قنوات سوى الأفلام التلفزيونية التسجيلية . بعد ظهور الـ (دى فى دى) وضرورة احتواء كل قرص على أشياء إضافية extras غير القصة ذاتها ، صار لطريقة صنع الفيلم موقع متميز وثابت ، وصار من المهم أن يوجد مصور مهمته متابعة كواليس التصوير باستمرار . أحيانًا لا يبقى من الفيلم سوى ما تم تصويره لعملية صنعه ، ومن هذه الأفلام مشروع (تيرى جيليام) المنحوس (الرجل الذى قتل دون كيشوت 2000) . هذا نموذج لفيلم تحالفت كل

الحظوظ ضده حتى إنهم عدلوا عن تصويره تمامًا فلم يبق منه سوى فيلم تسجيلى قصير .

إن التصوير فى الكواليس له دور دعائى مهم ، وفى الوقت نفسه يرضى فضول المشاهدين الراغبين فى معرفة (كيف تم هذا ؟ .. كيف صنعوا هذا السحر ؟) . بالنسبة للناس هذا عالم أسطورى غامض ومن يعملون فيه كائنات نورانية خيالية ، لذا يرحبون بأية لمحة تظهر لهم هذا العالم . بل إن هناك أفلامًا تصور كيف تم تصوير الـ making of !.. أى إنها تصور عملية تصوير التصوير..

لم ينتشر الـدى فى دى (القانونى) فى مصر ، لكن الفضائيات اعتادت تقديم لقطات صنع الأفلام هذه ، وهناك قناة فضائية شهيرة لديها حلقة واحدة تكررها يوميًّا باعتبارنا مجموعة من الغائبين عن الوعى الذين لا يلاحظون أى شىء . هذه اللقطات أعتقد أنها تسيء للأفلام والممثلين أكثر مما تفيدهم . عندما نرى فيلمًا ضخمًا مثل (سيد الخواتم) أو (هارى بوتر) أو (ماتريكس) فإن أفلام making of تعد متعة حقيقية لأنها تكشف لك عن إجابات الكثير من الأسئلة ، وتطلعك على الآفاق التى يمكن أن يرتادها العقل البشرى حيث يمتزج الفن الراقى بالتقنيات الحديثة . عندما يقدمون فيلم (همام فى أمستردام) يوميًّا على مدى ثلاثين حلقة رمضانية ، فماذا يفعله صناع (سيد الخواتم) إذن ؟

فى الأفلام المصرية لا ترى سوى الأبطال يمزحون ، وهناك من يخطئ عمدًا فى مقاطع الحوار على سبيل التظرف ، والمعجزة التى تبدو بها البطلة تُصفع بينما الكف لم تلمس وجهها ، وهكذا .. سرعان ما يتضح لك أن أغلب الممثلين يتعاملون باستخفاف حقيقى مع مهنتهم .. ليس هناك من

هو على استعداد لدراسة الشخصية ودوافعها وعلى الأرجح لم يسمع حرفًا عن ستوديو الممثل . ليس بينهم روبرت دى نيرو الذى يحضر تصوير لقطات الفيلم كلها حتى تلك التى لا يمثل فيها ليعيش الأحداث ، وإنما هى قوالب جاهزة تُقال للصحفيين؛ مثل ذلك الممثل الوسيم الشيك الذى يقول للصحافة إنه عمل مع بعض القهوجية كى يعرف كيف يتصرف القهوجى . والآن تخيل معى الموقف بعبثيته : الممثل الوسيم يوقف سيارته الفاخرة أمام مقهى شعبى ، وينزل بنظارته السوداء وسط العيال الحفاة المتجمهرين ، ليتجه إلى أحد القهوجية ويقول له : مساء الخير يا ذوق .. كنت عاوز أشتغل معاك عشان أعرف طريقتك فى تقديم المشاريب !

فيصيح القهوجى : تحت أمرك يا باشا !

طبعًا كلام فارغ مخصص للاستهلاك الصحفى . ثم ترى دوره فى الفيلم فتجد كالعادة قهوجيًا تلفزيونيًا نمطيًا يضع طاقية صوفية على رأسه وسيجارة خلف أذنه ويهتف فى تظرف : « أيوه جاااى ! » ، وهو هنا لا يقلد القهوجى بل يقلد القهوجية الذين رآهم فى أفلام سابقة . وهناك ذلك الممثل العبقرى الذى كان يؤدى دور مريض صرع ، فملأ الصحف كلامًا عن أنه كان يجوب الأزقة يراقب مرضى الصرع وزار أكثر من مستشفى صحة نفسية ليرى كيف يتصرفون . رأيت أداءه فى الفيلم وأقر وأعترف أننى لم أر فى حياتى مريض صرع يجرى أميالاً وهو يصرخ وقد كور أنامله على شكل مخالب كأنه مذءوب . واضح أنه لم ير مريض صرع قط ..

استسهال فى استسهال ، لكن مشكلة أفلام making of أنها تفضح هذه الحقيقة بوضوح ، وتجعلك تدرك أن ما يقومون به ليس بهذه الصعوبة

ولا هذا التعقيد كما يزعمون . لا أعمم كلامى طبعًا وإلا لكنت أتهم ممثلاً مثل (خالد صالح) وممثلة مثل (عبلة كامل) أو مخرجًا فى حجم (داود عبد السيد) و(محمد خان) بالسطحية . لكن مقياسى الأخير هو الفيلم نفسه .. ما الذى صنعوه فى النهاية ؟ . هل يستحق كل هذا الضجيج ؟.. للأسف الإجابة (لا) فى ثمانين بالمائة من الحالات ، وإن كان هذا لن يؤثر لأن (مصطفى) سوف يذهب للسينما وينفق آخر خمسة عشر جنيهًا فى جيبه ، مهما قلت أنا !

هـــو ده !

لم آخذ الأمر بجدية إلا عندما فوجئت بمجموعة من زهرات المدارس الإعدادية يمشين فى شارعنا وراء كهل وقور ، فتمد واحدة منهن يدها كأنها تقرصه مع ذلك الصوت الشبيه بصوت البورص ، فلما انتفض الرجل مذعورًا صاحت فى مرح :

ـ « هو ده ! »

قلت لنفسى على طريقة حوذى تشيكوف العجوز : « هىء هىء .. شباب يمرح .. بارك الله فيهم » وابتعدت .. إلى أن فوجئت بأن أولاد الأسرة كلهم يكررون هذا الفعل الذى لم أسمع عنه إلا فى الكباريهات . نفس القرصة وصوت البورص من الشفتين ثم (هو ده !) .

سألت عن مصدر هذه الحركة فقال لى مراهقو الأسرة فى ضجر لأننى عجوز ثقيل الظل متحجر :

ـ « فيلم عمر وسلمى .. »

وأكد لى أحدهم أنه فيلم رائع ، وأنه على إذا أردت أن أراه أن أحضر معى علبة مناديل كاملة لأجفف دمعى ، بينما قال ابنى إن الشباب يخرجون من السينما ليقفوا فى طابور قطع التذاكر للحفل الجديد . نحن إذن نتحدث عن (سفر الرؤية الآن) أو (كوفاديس) أو (الأب الروحى) .. أو على الأقل (الأرض) ..

طبعًا مرت على الفيلم فترة طويلة جدًا فلم تعد شبهة الدعاية له تهدد هذا المقال ، دعك من أننى لم أره إلا مؤخرًا على تلك القناة الفضائية

التى تذيع الفيلم 5879680 مرة . هكذا رأيت الفيلم وأصبت بحيرة بالغة فى شبابى كان الكبار يسخرون من اهتمامى الزائد بأفلام من طراز (بريانتين) و (حمى مساء السبت) ، لكن لا أذكر أن أيًا من تلك الأفلام كان يحوى مشهدًا مثل (هو ده !) ..

لا أنكر أننى مولع جدًا بصوت (تامر حسنى) وأعتقد أنه ذو كاريزما واضحة .. سيناريو (أحمد عبد الفتاح) لا بأس به وإخراج (أكرم فريد) متماسك .. لكن ما الشىء الخارق فى هذا الفيلم (لدرجة البكاء) ؟

أولاً الفيلم يخاطب الشباب فعلاً .. يناقش أولوياته واهتماماته .. هذا صحيح ، لكن أية عينة من الشباب ؟.. عمر انفصل عن حبيبته التى ترغب فى أن تكون ممثلة ، ثم يقابل الفتاة الرقيقة سلمى التى انفصلت عن خطيبها بسبب خلافه مع أمها .. تنشأ قصة حب مليئة بالتشابك والهجر واللقاء والشجار والصلح .. وهو يشك فيها عندما يجد رقم هاتف خطيبها السابق على الموبايل ، فيتركها ثم تعود له وتشك هى فيه .. هناك سيارات ومشاجرات (على بنت) ونغمات موبايلات .. إلخ .. هذه مشاكل شبابية معتادة فعلاً ونسمع عنها كل يوم ، لكنها ليست بالضبط مشاكل الشباب الحقيقية .. إنها مشاكل الشباب الذى يعانى فراغًا قاتلاً ، والذى تجده فى الكافتيريا وقت المحاضرات يخلق مشاكل ويخلق حلولاً طيلة الوقت ..وهو ذات الشباب الذى سيدخل المول لرؤية فيلم يشبه حياته اسمه (عمر وسلمى) ..

السينما المصرية الشبابية الحديثة أو سينما المولات ، مصرة على أن النمط الطبيعى للشاب هو شارب الخمر مدمن الحشيش ، وهى مصرة كذلك على أن مدمن الحشيش شخص ظريف جدًا يبعث الضحكات من

حوله ولا يمكن الاستغناء عنه . هناك ذلك الفتى النحيل كبير الأذنين عظيم الموهبة لا أعرف اسمه للأسف الذى يصرون على أن يحبسوه فى نمط واحد هو نمط المدمن الذى ذهبت المخدرات بعقله ، وهو يظهر هنا فى مشهد ظريف فى حد ذاته حيث جلس يشرب البيرة متربعًا على كبود سيارة ولم يلحظ أنها تحركت ولا أنها عادت .. لكن قبل أن تضحك تذكر أن هذا المشهد يدور على أبواب جامعة ..

إذن الشاب المصرى المعاصر لابد أن يشرب الخمر والحشيش .. سنقبل هذه المعلومة ، لكن هل يجب أن يقضى وقته فى علاقات آثمة كذلك ؟.. السينما المصرية الشبابية تحاول تنميط هذا . وهناك مشهد مشين فعلاً تلوح فيه الفنانة هالة صدقى أمام الكاميرا بقطعة حميمة جدًّا من ثياب فتاة ، بينما تامر حسنى يتظاهر بأنه لا يعرف أي شيء عن الموضوع ..

هل اكتفيت من المشاهد المشينة ؟.. لا وحياتك .. هذا فيلم عبقرى نجح فى أن يصور عزت أبو عوف الوقور الراقى وهو جالس على التواليت والجريدة فى يده . هناك مشهد لا لزوم له يمر فيه صبى مراهق أمام تامر حسنى الجالس فى كافتيريا فيدور الحوار العميق التالى :

ـ « مش ده اللى بيبان باله .. »

فيرد المراهق بكل قلة أدب :

ـ « خليك أنت فى شعر صدرك .. »

فيشد تامر حسنى سراويل الفتى لأسفل ويهتف فى انتصار :

ـ « حبيب قلبى ! »

تعبت كثيرًا جدًّا كى أقنع أولادى أن هذا الحوار ليس من كلاسيكيات شكسبير ، وأنه من الممكن ألا يردده المرء ليلاً نهارًا ومع هذا تستمر الحياة ..

أما عن موضوع القرصة و(هو ده) فيتكرر فى الفيلم ألف مرة تقريبًا حتى تصاب باختناق ، وعزت أبو عوف يلعب دور الأب المتفهم ، لذا هو يتستر على فضائح ابنه ويتستر ابنه عليه ، لكن كليهما يقرص ويقول : « هو ده » فى النهاية ..

السبكى شخصيًّا يظهر فى مشهد كامل باعتباره منتج الفيلم . قواعد الظهور الشرفى Cameo تقتضى أن تختار دورًا قصيرًا طريفًا لا يُمحى من الذاكرة ، وأفضل من اختار هذه الأدوار بذكاء شديد هو يوسف شاهين . من الممكن أن تكتفى بالظهور كما فعل هتشكوك مرارًا لدرجة أنه كاد يلعب دور جثة غارقة طافية على الماء فى فيلم (قارب النجاة) ، لكن السبكى اختار دورًا أقرب للقسوة والسماجة ولا يضيف له شيئًا .

ينتهى الفيلم فعلاً لكن المنتج لا ينسى أنه بحاجة للمزيد من التمويل ، لذا يضيف مشهدًا لا داعى له فى أحد مطاعم التيك أوى الشهيرة يغنى فيه تامر حسنى وكل العاملين فى المطعم (يا برنسيسة .. يا برنسيسة) .. جرب أن تدخل مع خطيبتك هذا المطعم الشهير وغن لها أغنية عاطفية أمام (الكاشيير) ولتر إن كنت ستخرج من هناك حيًّا . المشهد كله مفضوح وواضح تمامًا أنه مجرد وسيلة تمويل .. لكن لا أحد يهتم ..

الآن وقد رأيت الفيلم ، يجب أن أقف مع نفسى وقفة حقيقية لأعرف ما حل بى .. هناك ثلاثة احتمالات :

1 ـ الفيلم تافه وقد جن الجميع بينما احتفظت أنا بعقلى .

2 ـ الفيلم قطعة من الفن الرفيع من عينة (ساتيريكون) و(الختم السابع) ، لكنى صرت عجوزًا متحجر الذوق لا يفهم هذه الأمور .

3 ـ الفيلم ردىء وتافه لكن الناس تحب تامر حسنى فعلاً ، ولهذا أحبت الفيلم كما أحب الجمهور من قبل أفلام البيتلز بدعاباتها البريطانية ثقيلة الظل ، وأفلام عبد الوهاب البدائية ، وأفلام الفيس بريسلى شديدة التفاهة .

أعتقد أننى أميل للاحتمال الثالث ، فهل يساعدنى أحد برأى موضوعى ؟

الخواجة بيقول

بقلم د . أحمد خالد توفيق

فى مقال ساخر للناقد السينمائى الراحل (سامى السلامونى) يتخيل مشهدًا سينمائيًا تجلس فيه البطلة فى الكافتيريا فتفتح حقيبتها لتخرج عود قش تدسه بين شفتيها . لا تعرف معنى هذه الحركة ولا جدواها ، لكنها رأت هذا المشهد فى فيلم إيطالى يدور فى إسطبل خيول ، وراق لها جدًا !

هذا هو موضوع مقالى باختصار شديد : نحن لا نعمل شيئًا من دماغنا أبدًا ، وإنما نفعل ما يفعله الخواجة طيلة الوقت ..

لم أكن قد رأيت فيلم (الرقصة الخاطفة Flash dance) ـ الذى كان ظاهرة فى الثمانينات ـ إلا مؤخرًا ، لهذا انبهرت جدًا بكليب لمطربة لبنانية ترتدى ثياب الإيروبيك وتلف الشريط اللاصق حول قدميها ، ثم ترقص أمام لجنة تحكيم صارمة غير مبالية ، حتى تنجح فى النهاية فى انتزاع التصفيق منهم . عندما رأيت الفيلم أدركت أن المشهد مأخوذ بالمسطرة منه ، حتى إن اللبنانية جعلت شكلها كشكل (جيسيكا بيل) بطلة الفيلم الأمريكى ، وإن كان النقل قد تم ببراعة لا شك فيها . عامة تميل الكليبات الغنائية أكثر من سواها إلى انتظار ما يصنعه الخواجة ، تحلق (كارى آن موس) فى الهواء وتثبت حركتها بينما تدور الكاميرا بسرعة من حولها فى فيلم (ماتريكس) ، عندئذ يحلق هشام عباس فى الهواء فى أغنية (نارى نارين) ، ولفترة طويلة بدا أن كل المطربين العرب علقون فى الهواء .. إن هذا شىء مقدس وعدم تقديه يعرضك للاتهام بالكفر لا سمح الله ..

عندما تراقب الكليبات العربية تجد خليطًا فريدًا من قتلة المافيا فى فترة تحريم الخمور بذلاتهم وقبعاتهم وأحذيتهم البيضاء، والكلاشنكوف فى صندوق الكمان.. وهناك جمنزيوم.. وهناك سباقات مجنونة بالسيارات.. هناك كلاب ماستيف وإرهابيون وحراسات خاصة.. هناك الغوريلات السوداء التى تلبس الفانلات الداخلية وقد رسمت الوشم على كل جزء من جسدها مقلدة مطربى الراب الأمريكيين.. قارن هذا بتجارب حسين كمال فى تصوير الأغنية مع نجاة الصغيرة ولسوف تفهم معنى الأصالة والخصوصية..

هناك فرقة شبابية ـ ليست (وسط البلد) قطعًا ـ لم أجد لدى أفرادها موهبة غنائية واضحة، فألحانهم مملة وأصواتهم ضعيفة، لكن لديهم موهبة مهمة هى أنهم درسوا جيدًا جدًا أوضاع المطربين الغربيين و(بوزاتهم) الاحترافية.. إنهم يعرفون جيدًا كيف ينظرون للكاميرا، ثم يأتى مخرج درس جيدًا الإضاءة والمونتاج فى الكليبات الغربية وعرف كيف يقلدها بدقة..

كنت أراقب عمرو دياب أثناء افتتاح إحدى الدورات الرياضية عندنا، تلك التى غنى فيها (بالحب اتجمعنا).. رأيته يجرى وهو يحمل الميكروفون والكاميرا تلاحقه، ثم فوجئت بأن هناك مصورًا يركض وراءه لاهثًا وقد صوب الكاميرا عليه من زاوية منخفضة.. عمرو دياب يقلد بالضبط (ليونيل ريتشى) فى ختام أولمبياد (لوس أنجليس) عندما غنى أغنية (الليل بطوله) وأحال الاستاد إلى شعلة من الحماس. هذا من حقه، لكن لماذا يجب أن يقلد المصور المصرى حركات المصور الأمريكى بحذافيرها؟.. الخواجة كان يجرى وراء المطرب فلابد أن نفعل مثله..

حتى تقليعة القبعات فى المباريات الدولية التى تشهدها مصر.. قبعة العم سام العالية التى لا ينقصها سوى علم أمريكا، قد رسم عليها علم مصر ولبستها الحسناوات اللاتى لا يختلفن فى شىء عن الجمهور الأمريكى.. لا أحد يريد (شيحة) ولا (سيد العضاض) كريه الرائحة الذى يرقص بالجلباب الأحمر ويهز كرشه العملاق.. هذا ليس زمنه لكنه زمن تقليد الخواجة...

فإذا انتقلنا إلى الأفلام نجد نفس اللقطة فى مليون فيلم مصرى: البطل يقفز قفزة جانبية واسعة ليطلق الرصاص بمسدسين نحونا وهو مستمر فى السقوط بالسرعة البطيئة. كما رأيت مليون مرة فريقًا من الرجال الأشداء يتقدمون صفًا بالعرض نحو الكاميرا بذات السرعة البطيئة بينما انفجار مروع ـ بطىء هو الآخر ـ يدوى خلفهم. ولا واحد منهم يلتفت للخلف لأنهم أشداء كما تعلم. هذه الأشياء فعلتها السينما الأمريكية وما زالت تفعلها، لكنها بالطبع فعلتها أولاً وفعلتها أفضل بحكم الإمكانيات.

الاستنساخ قوى جدًا فى السينما، وهى ظاهرة قديمة على كل حال.. إن هند رستم ليست سوى تقليد محلى لمارلين مونرو، وكمال الشناوى ليس سوى كلارك جيبل مصرى، وإسماعيل يس ليس سوى جيرى لويس لا يكلف كثيرًا. تستمر الظاهرة حتى ترى هانى رمزى يضع ذات ماكياج وطريقة تمثيل جيم كارى فى (غبى منه فيه) ويقلد (رون أتكنسون) حرفيًا فى (أسد وأربع قطط). عندما يقدم الغربيون (الصرخة) و(أعرف ما فعلت الصيف الماضى) يظهر أكثر من سيناريو حول مراهقين فى مكان معزول بينما سفاح مجنون يذبحهم واحدًا تلو الآخر

تفتح التلفزيون فى رمضان فتكتشف أن هناك عشرين ساعة يوميًا من تقليعة (السيت كوم) ، وهى اختراع غربى بالكامل ، لكنـه صـار مقدسًا سوف تلمح أكثـر مـن مسلسـل قريـب مـن (الأصدقـاء) وسـواه ، مـع حرص الممثلين على أن يكونوا مضحكـين مما يجعلهـم يبـالغون فـى مقاطع الكلام ويحركون كل عضلة فى وجوههم ويغمزون ويقطبون ، ثم يتدخـل شريط الضحكات (المعـادل السـمعى للزغزغـة) ليعلمـك أين ينبغى أن تضحك بالضبط ! . كل هذا غريب علينا لكن الخواجة يفعل ذلك ..

التقليعـة الأخـرى هى (الستاند أب كوميديان) وهو الكوميدى الـذى يقـف أمـام الجمهـور على المسـرح ليقـول أشياء مضحكـة .. لا .. ليس المونولوجيست هو ما أعنيه .. هذا بدوره فن غربى تمامًا يعتمد على تراث من ملاهى برودواى وعروض تلفزيونية تابعها الغربيون جيدًا مثـل (حياة ليلة السبت) ، مع جيش ممن يكتبون النكات لهذه العـروض ومنهـم ميل بروكس وفريقه اليهودى ، ومنهم وودى ألـين ، ومنهـم دان أكرويـد ... عرف العالم العربى هذا الفن مؤخرًا مع (محور الشـر) الفريـق الأمريكـى ذى الأصول الشرقية الذى قدم عدة عروض فى عدة دول عربية . عندمـا نقدم عندنا هذا الفن دون أن تكـون لـدى المشاهد خلفيـة ، يبـدو النجـم محرجًا مرتبكًا لا يعرف من أين يبدأ وماذا يقول (حتى أحمد بدير غرق فى العرق وهو يقدم فقرته) ..

وماذا عن قنوات الطهى العديدة ؟.. وماذا عن الدعاة الشباب المتأنقين (ومن جديد لا أقصد عمـرو خـالد) الذيـن يستنسـخون صـورة الداعيـة البروتستانتى النجم التلفزيونى فى أمريكا ؟.. الداعيـة الـذى يملـك قصـرًا وطائرة ويختًا وقناة تلفزيونية ؟.. حتى النشرات الإخبارية عندنا تقلـد قناة

الجزيرة بلا أصالة ، بينما الجزيرة نفسها استنسـاخ لأسلوب بى بى سى ولكن ببراعة وإتقان..

هناك حادثة يحكيها لى هواة كرة القدم لكنـى لـم أرهـا ولا أستبعد أن تكون تشنيعة ، عن النجم الكروى المسلم الذى أحرز هدفًا منذ عـدة أعوام ، فرسم علامة الصليب على صدره !.. هو لا يعرف معناها إنما رأى مارادونـا يفعل هذا فى الملعب وقلده تقليدًا أعمى ! . من حق كل إنسان أن يطلـب البركة من رموز دينه ، لكن عليه أن يعرف أولاً معنى ما يفعله ..

نعم .. مشكلتنا هى أن الخواجة يفعل ذلك .. قد يكون هـذا ضروريًا بالنسبة لتقنية جديدة أو مفهوم علمى جديد ، لكن من الخطأ أن نطبق هذا على الفن كذلك .. أن نعيد صناعة فنونهم بالعربية .. إننى لأبتعد بنظـرى وأتساءل : من نحن حقًا ؟.. فلا أعرف ..

لقد لخص (سامى السلامونى) العبقرى كـل شـىء .. إن مـا نقـوم بـه اليوم ليس سوى مضغ عود من القش فى الكافتيريا لأننا رأينا الخواجة يفعل ذلك !



عن محرقة المثقفين والمدرعة بوتمكين

ليرحم الله أسامة عبيد .. عندما أتذكره تتداعى لذهنى قافلة كاملة من الذكريات التى تمت لثمانينات القرن الماضى .. بيتـه فى شارع الألفى ، ونادى التمثيل فى كلية الطب ، ومسرح مدينة طنطا المتداعى الذى يصلح لتصوير أفلام الرعب ، ومكتب أمن الدولة بالكليات الذى يدللونـه باسم (رعاية الشباب) ، وقصر الثقافة ودخان التبـغ الـذى تجمد فى الهـواء ، وصرخاته العصبية فى مجموعة الممثلين الهواة الذين يعتقـدون أن المناداة على الطماطم والتمثيل ينتميان للفن ذاته . أسامة عبيد طالب الطب الذى ظل فى السنة الخامسة حتى شاب شعره وتجاوز الأربعين ، وصـار زمـلاؤه أساتذة يدرسون له فى ذات الكلية .. كـان يشتعل بجنون المسرح الـذى سرق حياته ، لكن النقطة الأهم هى أنه كان ماركسيًا صريحًا بلا مواربة .. فى ذلك العصر ـ أوائل الثمانينات ـ كان طالب الجامعة الماركسى يواجـه خطرين : خطر أمن الدولة وخطر الجماعات الدينية . ولم يكن الطلاق قد تم بعد بين هذين الكيانين . إنها سياسـة الحكومـة الدائمـة : عندمـا يـزداد السكر فى الطعـام يجب أن تزيـد الملـح .. إلى أن يتضـاعف خطـر الملـح فتضطر لزيادة السكر من جديد ، وهكذا للأبد .. فـى ذلـك العصـر كـان الخطر هو الملح .. أعنى الشيوعيين والناصريين لهذا دللت الحكومة السكر .. أعنى أعضاء الجماعات ، قبل أن تفيق على أنهـم صـاروا يسيطرون على الجامعة سيطرة مطلقة ، وقبل أن ترفع المقاعد ويتلاشى دخان المنصة لـيرى الجميع جثة السادات الممزقة على الأرض ..

فى هذا العصـر كـان أسـامة عبيـد لا يكـف عـن التبشير بماركسيته ، وكانت هذه المرة الأولى التى ألقى فيهـا مثقفًا ماركسيًا خـارج الكتـب ،

فبدا لى غريبًا ثائرًا بلا لحظة تعب واحدة .. كأنه خرج من أحد كتب جوركى أو شولوخوف . كان يتهمنى بأن ثقافتى أفقية لا رأسية لأننى لم أنخرط معه ، وكان يقول : « أى مثقف حقيقى هو يسارى بشكل تلقائى » ، لكنى أعترف بأن هناك عاملاً مهمًا جعلنى أبتعد عن دائرته هو الخـوف .. كنت أتخيل دائمًا تلـك الغارة الليليـة أو الصباحيـة على دارى والزنزانـة المليئة بالماء والكرابيج والكلاب والصعق بالكهربـاء ، فكـان هـذا يقضى على أى حماس لى لفهمه أكثر .. فقط كنـت أحتفـظ بصداقتـه من بعيـد ، وأحضـر مسـرحياته التى كـان يخرجهـا فـى حمـاس مشبوب كأنـه بصـدد الإعداد لثورة .. دخان التبغ والمقاعد المغبرة التى يعلوها طن من التـراب ، والخيش والفئران التى تجرى على قدمك قبل أن ترفعها ، والوجوه الغريبـة التى تجلس فى آخر القاعة ولا نعرف من أصحابها على الإطلاق .. أذكـر كذلك تلك المسرحيات التى كان يختارها ذات الطابع الملحمى البـريختى : (مارا صاد) و(غـول لوزيتانيـا) و(بهيـة وياسـين) .. المسـرحيات التى كانت تقدم فى مهرجان الجامعة وكان هو يصر علـى أن يـدس فيهـا آراءه الخاصة ...

عرفـت مـدى فقـر الإمكانيـات ورثاثـة كـل شـىء والممثلـين الذيـن لا يعرفون ما هو التمثيل أصلاً ، ومصر فى مسرحياته هى دومًا فتاة شاحبة رديئة التمثيل جاء بها من مدرسة التمريض ، لكنها باردة قادرة على تحمل صراخه وانفجاراته العصبية التى لا تنتهى .. وكنت أتساءل كيف يستطيع أن يستخلص فنًا من كومة الركام هذه ..

لم يكن أحد يفهم ما يقول .. لم يكن أحد يعبأ بما يقول .. فقط جهـة واحدة كانت تهتم وترصد وتراقب ..

تذكرت هذه الأحداث وأنا أقرأ مأساة الفنانين الذين التهمتهم النار فى بنى سويف . هناك أخبار متضاربة بهذا الصدد ولست متأكدًا بصراحة من موضوع إغلاق المسرح بالجنزير عليهم من الخارج ، وربما كانت إشاعة تناثرت وصدقها الجميع ، لكنى أعرف شيئًا واحدًا هو أن موضوع الجنزير كان يحدث حرفيًا أيام أسامة عبيد ..

إن هذا الحادث البشع يكشف عن جوانب كثيرة من فكر الأمن والنظرة العامة للفن والشخصية المصرية نفسها .. عن جانب الإهمال حدث ولا حرج .. أذكر أننى كنت أحضر محاضرة يلقيها مهندس معمارى شاب ، قال لنا ضاحكًا إن هذه القاعة التى نجلس فيها تخالف أبسط قواعد التصميم الهندسى التى يعرفها أى طالب فى إعدادى هندسة ، وأشار إلى الباب وقال : أى مكان يعقد فيه اجتماع عام يجب أن تفتح أبوابه للخارج لا للداخل ، وإلا هشم الناس بعضهم فى حالة هلع الحريق على باب لا ينفتح .. فى الغرب يعرفون هذا الموقف جيدًا ويطلقون عليه **Theater Panic** لكن المشكلة فى مصر أننا نعرف .. لسنا جهلة بل نعرف لكن أين التطبيق ؟

ما زلت أذكر بروفات أسامة عبيد والمخبرين الجالسين أفواجًا فى الظلام على مقاعد المشاهدين ، حتى إننى قلت له ساخرًا : أنت تساهم فى تثقيف رجل الأمن بروائع المسرح العالمى ، ولولا هؤلاء لما وجدت جمهورًا تقدم له عروضك . تذكرت رجال الأمن المركزى الذى يقفون خارج باب المسرح كأنهم يحرسون تسربًا نوويًا فى مفاعل .. تذكرت كل هذا وقلت لنفسى : ما سر هذه النظرة التى تنظر بها أجهزة الأمن للمثقف والتى تدفعها لإهماله وتقديم قبو متداع يقدم فيه عروضه ، ثم الشك فيه ومراقبته إلى درجة محاصرة عمله بالجنازير ورجال الأمن المركزى ؟

الإجابة هى أن الدولة تمقت المثقف وتشك فيه فعلاً .. إنه كائن منكوش الشعر متحذلق يلبس سراويل من الجينز زمامه مفتوح ، ويدخن كمحرقة الجثث ، ويلبس نظارة سميكة تم لحامها بالنار ، من وراء زجاجها ترى عينيه صغيرتين مستدقتين كعينى بقة .. إنه فقير كالأبالسة وثرثار ومزعج .. إنه يقول كلامًا غريبًا لا يفهمه أحد ، وقد تعلم رجال الأمن أن يشكوا فى أى كلام غريب غامض .. منذ خمسين عامًا تعلم رجال الأمن أن أى كلام لا يفهمونه هو أفكار شيوعية على الأرجح يقولها رجل شيوعى كافر وابن كلب غالبًا .. .

فى كتابه الظريف (الطريق إلى زمش) يحكى عمنا الثرثار محمود السعدنى عن صول المعتقل الذى دخل على المعتقلين يسأل عن أى رجل (متعلم ونبيه) .. فمن يلبى نداءه إن لم يكن د . (لويس عوض) ؟.. اتضح أن الصول يريد من ينظف بالوعة المجارى المسدودة ، ووقف المعتقلون يكتمون ضحكهم وهم يرون أستاذ الأدب الإنجليزى الوقور يشمر كميه ويمد يده العارية فى البالوعة ليخرج ما بها من قاذورات .. لو صدقت هذه القصة فهى نموذج مثالى لرأى الدولة فى المثقف عامة ..

وما زلت مع تداعيات الحادث الذى ذكرنى بمسرحيات أسامة عبيد .. لم يكن الأمر بهذا الخطر .. لم تكن أية مسرحية من مسرحيات أسامة قادرة على إحداث ثورة .. لسنا فى (مونمارتر) هنا .. فلماذا يهتمون بها إلى هذا الحد ؟.. مخبرون وأمن مركزى وأجهزة تنصت وملفات .. هذا يقودنا إلى التفكير فى حاسة النقد العبقرية العالية لدى الطغاة .. إن الطغاة أغبياء فى كل شىء ، لكنهم فى هذه النقطة بالذات شديدو الذكاء والحرص .. وقد أبدى المخرج الكندى المشاغب كرونبرج إعجابه

الشديد بذكاء الطغاة حين يشمون الخطر فى أفلام مخرج أو قصائد شاعر ، بينما النقاد غافلون عنه .. تجاهل النقاد الألمان الفيلم السوفييتى الرائع (المدرعة بوتمكين) ، فمن الذى شعر بأهميته وخطره ؟.. (هتلر) شخصيًا !!.. عندما كان يصرخ فى رجاله : أعطونى فيلمًا مثل المدرعة بوتمكين أو موتوا !

ليرحم الله فنانينا الذين افترستهم النيران فدفعوا ثمن أخطاء الحكومة وأخطاء الشخصية المصرية ذاتها .

ليرحم الله أسامة عبيد الذى قتله الفشل الكلوى .. لقد كان نموذجًا للمثقف الثورى الذى لم يفهم رجال الأمن حرفًا مما يقول ، لكنهم فهموا أن عليهم أن يحاصروه ويراقبوه ويضيقوا عليه الخناق ، ولن أندهش لو كان ملفه ما زال مفتوحًا فى مكتب ما بوزارة الداخلية برغم مرور أعوام على وفاته .

هل كان هنا حقًا ؟

هل كان له وجود حقًا ؟ أم هو حلم بصرى وسمعى فائق السحر مر به عدد منا فى زمن معين ثم أفاقوا ؟

ما أذكره هو كالتالى : كنا طلبة فى الكلية وحواسنا مرهفة كالنصال ، وعواطفنا مرهفة أكثر من حواسنا . عندما كانت للَيل رائحة وللسحاب لغة وللظلال رقصة نفهمها ونعرف رموزها ، وفى حفل ليلة رأس السنة ظهر على شاشة التلفزيون للمرة الأولى .. لم يكن مطربًا يلمع شعره بالفازلين ، ولا مطربة شبه عارية تضع برج القاهرة فوق رأسها بعد ما صبغته بالأصفر .. مشهد غير معتاد فعلاً أن ترى هذا الشيخ الوقور ببذلته الكاملة ولحيته الشائبة وعباءة علىّ كتفيه ، وهو يمشى على المسرح كشبح وسط الظلال مغنيًا بصوت رخيم :

ـ « القلب يسألنى عن طول رحلتنا .. صبرى يعلله .. والعقل ينهانى

أنوى البعاد لنلقى فيه راحتنا .. إذا بالحنين وشوقى لا ينامان .. »

وتتصاعد موسيقا رهيبة مهيبة من مسام الكون ذاته فيجفل قلبك ..

لقد شفّ الرجل تمامًا .. ذاب .. فلم يعد يشعر بنفسه ولا الجمهور .. صار جزءًا من الأفلاك والشهب والثقوب السود .. اقترب جدًا من مسام أوراق النباتات حتى غاص فيها ، وفهم الشفرة الغامضة لرفرفة أجنحة الفراش ، وعرف أين تموت الفصول وأين تبيت الدببة القطبية ، وعرف سر ذلك الوميض الغامض الذى يتوهج فى الأفق فى بلاد الشمال .. إنه يعرف أسرار الشفق القطبى .. لقد اقترب .. اقترب جدًا

يتوغل بين الظلال ساهمًا .. هذه ليست أغنيـة .. أقسـم باللـه العظيم إنها ليست كذلك ..إنها تجربة يدنو فيها من سر الكون ، وإن اتخذت شكلاً عاطفيًا ظاهريًا كبعض أشعار المتصوفين .. وانتابنى رعب خفى من أنه ذهب هناك ولن يعود أبدًا ..

من جديد أقسم أنه لم يشعر أن الأغنية انتهت ولا أن أضـواء المسرح سطعت ، ولا أن الأكف التهبـت بـالتصفيق .. كـان يستجمع ذاتـه التى ذابت هنـاك فى درب التبانـة بين المجـرات .. هنـاك عند جـوار كوكبة الدجاجة وقلب جوار وعاء الدب الأكبر .. يستجمع هذه الشظايا المبعثرة محاولاً أن يعود لصورته الأولى ..

قالت أختى وهى تمسح دمعة تجمدت فى عينها :

ــ « فـؤاد عبد المجيـد .. يستعملون موشحاته كخلفيات لفرقة رضا أحيانًا .. »

إذن هذا هو مصدر ذلك الصوت الذائب الغامض القادم من لا مكان ، والذى يردد :

« يا غريب الدار

بأفكارى

كم تخطر ليلاً ونهارا

أدعوك لتأتى بأشعارى

بجمال فاق الأقمارا.. »

مع الكثير مـن (يا لا لا لا لا) مـن أجـل إضفــاء الجـو الأندلسـى الساحر . وأنت تشعر على الفور بأن هذه الأغانى لم يؤلفها أحد ، إنما هى

موجودة هكذا منذ كنا فى الأندلس . ربما ألفها (زريـاب) وربما رقصت عليها (ولادة بنت المستكفى) كى تحرق دم (ابن زيـدون) ، ولتقنعه أن التنائى أضحى بديلاً عن التدانى .

لم أكن واهمًا .. فجأة صار فؤاد عبد المجيد مـلء السمع والبصر .. على أغلفة المجلات كلهـا .. فـى برامـج التلفزيـون .. فـى الراديـو . إنـه الموظف الوقور شقيق المعلق الرياضى الشهير (نجيب المستكاوى) ، الـذى كان يهوى كتابة وتلحين الموشحات ، وبعد ما صـار على المعاش بدرجة وكيـل وزارة قـرر أن يخرج بموشـحاته الرقيقـة إلى النـور . تـأثير هـذه الموشحات علينا كشباب كان ساحقًا .. ثمة سحر لا يوصف عندما تـأتى العاطفة من شيخ وقور جرب كل شىء واعتصر الحيـاة واعتصرتـه ، وهـو ذا يهدى لنا خلاصة تجربته وآلامه فى ألحان رشيقة وبكلمات فصحى قوية .. عندما يغنى (على الحجار) أو (عمر فتحى) فهو شاب صديق لك يحكى عواطفه وأنت تسمعه ، أما هذا الشيخ فهـو يحكى لـك تجربتـه فتصدقه ، عندما سما الحب وامتزج بـالكون وحكمـة السنين وآلام لـم تبق شعرة واحدة سوداء فى لحيته ..

كانت المذيعة تسأله عن كيفية بناء الموشـحات فـارتجل هـذه الكلمـات ولحنها على الفور على العود :

ــ « لاه وخلى البال .. بالفتنة يسبر أغوارى

« ما أدرى له من حال .. وأقاوم جذب التيار

قلبى رغمى يهواه .. نغم ينساب بأوتارى

وأنا ما أطيق هواه .. أو أحسن ألعب بالنار »

تصور هذا !.. وتصور اللحن المرتجل .. ثم يأتى موزع عبقرى ليجعل من هذا العمل ملحمة كاملة . بعد هذا ظهر شريطه الثانى الذى غنى فيه بعض الكلمات بالعامية ، لكنها عامية تذكرك بعامية (رامى) و(شوقى) . أعتقد أن التوزيع كان للفنان (منير الوسيمى) . هنا تسمع أذنك الذاهلة الشابة الظامئة للحياة ـ وقتها طبعًا ـ كلمات مثل :

ـ « الزمان تاه من سنين .. بس فاكر إننا

« كنا قلبين مجروحين .. واغترابنا ضمنا

« كنت حاسس بالحنين .. لشىء ما لوش فيا وجود

« وانتى الوجود .. إنتى الوجود ..

« ما قدرتش أفهم أن آه .. فيها صلاة .. فيها حياة ..

« كان اهتمامك البتول .. بتقابله جدران من صخور

« تملاه كسور .. تملاه كسور »

يا نهار اسود !.. (بتول) و(اغترابنا) !.. تأمل رقى ورقة هذه العامية . والصورة الشعرية : « كنت حاسس بالحنين .. لشىء ما لوش فيا وجود » مع ملاحظة أن هذا ليس الشاعر الفرنسى (بول فاليرى) وإنما هو وكيل وزارة على المعاش ..

بعد هذا جاء شريط من كلماته وألحانه لعفاف راضى هو (أبافكارى وبأشعارى) .. وفيه تقول كلمات مثل : « يا فاتنى يا ساحرى .. هيا سويا . إلى الثريا .. فاضت بقلبى أشواق حبى ..فمن يلبى .. عشقا سويا ؟.. يا عاذلى يا لائمى .. لا تعذلانى .. بل فافهمانى .. الحب يسمو بالقلب يعلو .. حتى يناجى ربا عليا .. »

ويا ليتنى أستطيع أن أسمعك هذا اللحن إن لم تكن سمعته .

تضخم حلم فؤاد عبد المجيد وتحول إلى نوع من الحمى بالنسبة لنا ، حتى إننى كنت أعلق عشر صور له على جدران غرفتى ، وفجأة .. بخ .. خلاص .. لم يعد هناك .. لقد توفى هذا الفنان العظيم الذى لم تدم شهرته أكثر من عامين . شهاب توهج فى السماء فأضاء كل شىء وأضاء لنا أرواحنا ثم انطفأ وساد الظلام . المليح يبطئ كما يقول العرب ، لكنه كذلك يرحل بسرعة جدًا .

شرائط الكاسيت التى كانت عندى .. كلها اقترضها ناس وأضاعوها ، وعندما أسألهم عنها ينظرون لى فى بلاهة : « أية شرائط ؟.. » لم تعد أغانيه تُذاع . لا أجد صورة واضحة له فى أى مكان ، والإنترنت كلها ليست فيها صورة واضحة له . أسأل بائع الشرائط فينظر لى ثم ينفجر ضاحكًا : « فؤاد مين ؟.. هع هع ..! »

الفنان فى مصر يموت عندما يموت .. هذه حقيقة يجب أن نعترف بها .. أنت موجود طالما أنت تتحرك وتظهر فى وسائل الإعلام وتملأ الدنيا صخبًا وتقبض العربون وترفع عدة قضايا .. ولو ظللت حيًا حتى الثمانين فإنك ستصير الفنان الكبير مهما كان مستواك .. لكن تذكر أنك عندما تموت فلسوف تموت فعلاً . حتى على مستوى العظماء مثل يوسف إدريس وعبد الوهاب وأم كلثوم .. هل حجم وجودهم هو ذات الحجم الذى كانوا يشغلونه عندما كانوا بيننا ؟.. قلها بصراحة ..

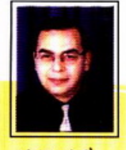
أحيانًا ألجأ لأصدقاء الكلية كي أتأكد أن فؤاد عبد المجيد لم يكن حلمًا بصريًا وسمعيًا جميلاً عشنا فيه عامين أو أكثر . ليرحمك الله أيها الفنان الجميل ، ويرحم عبقريًا آخر اختفى تمامًا كأنه لم يوجد ، اسمه (حمزة علاء الدين) .. من هو (حمزة علاء الدين) ؟.. هذا موضوع آخر ...!

فهرس الكتاب



نبع الآداب والثقافة المعاصرة

سلسلة 1
مقالات



15/7/009

د. أحمد خالد توفيق

لعلك قرأت بعض هذه المقالات ، ولعلك قرأتها كلها . لكن اجتماعها فى كتاب واحد يعطيك نظرة أشمل ، وأعمق .

قد يروق لك هذا الكتاب ، وقد يبرهن على أننى حسن الظن فى نفسى أكثر من اللازم ، ولكنى فى جميع الأحوال أعدك بشىء واحد : هذه مقالات صادقة تمامًا ؛ لم أكتبها طلبًا للمادة ، أو نفاقًا لمسئول ، أو دفاعًا عن جهة ما ..

عندما حاول بعض المحيطين بعبد الناصر أن يوغروا صدره على العظيم (أحمد بهاء الدين) ، قال لهم : اتركوه ؛ نحن راقبناه ، وندرك أنه لا علاقة له بأحد .. هذا رجل (دماغه كده) ..

(دماغى كده) .. عنوان مناسب جدًا لهذه المقالات .. فقط هناك شخص واحد كتبت وهو فى ذهنى ، ويهمنى بالطبع رضاه والفوز باحترامه ـ إن لم يكن بحبه ـ ، ويغرينى بممارسة تلك اللعبة المعقدة ؛ بين قول ما أريد قوله ، وكتابة ما يريد قراءته ؛ فلا أتورط فى أسلوب (ما يطلبه المستمعون) ، أو أمارس الاستفزاز المجانى لمجرد التميز .. وهذا الشخص هو القادر على جعلى أتردد ، أو أراجع دماغى هذه .. وهو الوحيد الذى أدين له بكل شىء : القارئ .





الثمن فى مصر 10
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم